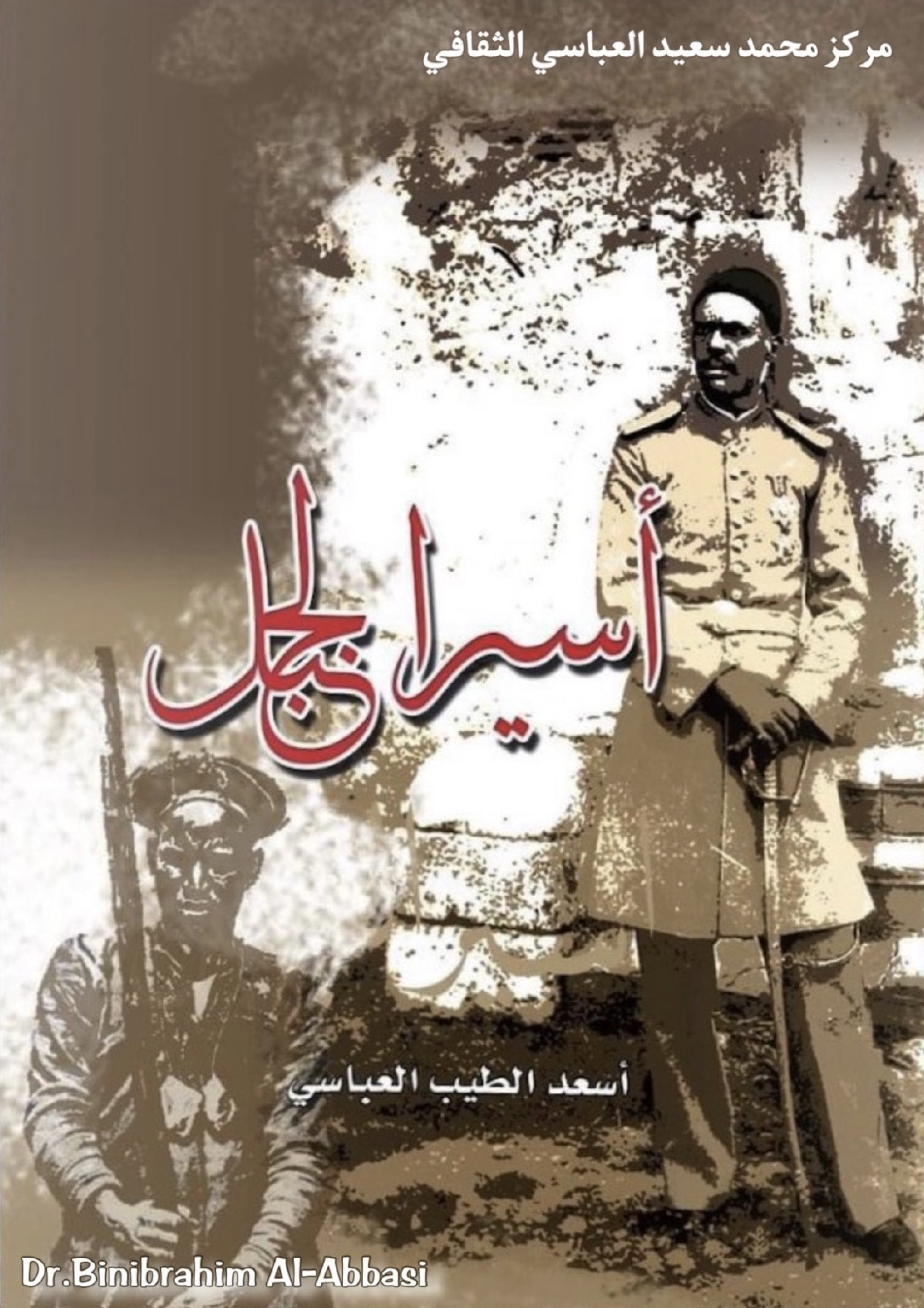


مركز محمد سعيد العباسي الثقافي
أسير الجبل
أسعد الطيب العباسي
Dr.Binibrahim Al-Abbasi

أسير الجبل

تصدر عن مركز محمد سعيد العباسي الثقافي

رواية

أسير الجبل

أسعد الطيب العباسي



الإهداء

إلى روح شقيقي المغفور له بإذن الله المهندس «الزبير الطيب العباسي» سمي جده البطل «الزبير باشا» كنت أسنُ من الزبير وكان أكبر مني. لذا عزمت أن أهدي روحه هذا السِفر.

أسعد الطيب العباسي
١٥/ يوليو/ ٢٠١٥م

الفصــل الأول

النبوءة الصادقة والفراق المر والرحلة المفزعة

(١)

بدت جزيرة (واوسي) - التي تقع شمالا لخرطوم ـــالبحريّة بنحو خمسين ميلاً في ذلك الزمان؛ وقد مضى ثلث القرن الثامن عشر وزاد قليـــلاً - بائسةً بمنازلها البدائية المتفرقة، قطاطي من القش و (درادر) أسافلها الدائرية من طين يستوي عليها خليط الزبالة من روث البهائم وبعرهـــا، بنيت سقوفها المتحدرة بجرائد النخيل وسعفه، وأعشابـــالتبس وسيقانه، وشقائق أشجار الدومـــوجذوعها. هي منازل تفتقر إلى الأسوار، وتضربها في المواسم القاسية سافياتالرياحـــوهجير السموم. كان «رحمة منصور العباسي» - أحد قاطني تلك المنازل - رجلاً تتملكه البساطة في مظهرهـــوعيشه. كان نحيفاً، مربوع القامة، هادئاً ومسالماً، يمتهن الزراعة شأنه شأنـــأهل جزيرة واوسي، يسكرهدعاش المطر، ويطربه شميم الجـــروف.
كانالرجل راضيـــاً برزقه، سعيداً مع زوجته «شمة بت فتاحة ولد النيل»، التي عدها رحمة أحد أروع أقدارهـــوأنصبته في الحياة. لم تكن حياتهما خالية من الأحزان، فقدتوفي صغيرهما عبد الرسول، فبكياه مر البكاء، وشاركتهما ذلك البكاء بنتاهما عائشة وفاطمة وابنهما بطران. كانرحمة يهرعـــإلى النيل الملتف حول واوسي من كل الجهات، وينظر إلى أمواجه التي لم تعد بناظريه إلا قبوراً تستثير تفجعه، ولكنه كان يحتمي بإيمانه وصبره، فقد علمه والده منصور ودعلي - العالم الأزهري - أن يلوذ بالصبر عند الشدائد والأحزان. كان يمتاح منه ذلك، فقد كان معلمه الأولـــومرشده في الحياة. يعود رحمة إلى منزله فتهرع صغيرتاه، فاطمة وعائشة، إلى أحضانه، ويودع بطران كفه الصغيرة داخل كفه المعروقة، فيودعون في قلبه حبهم إلى الأبد. وعندما يسترقـــالنظر إلى زوجته شمة يرى في عينيها حبـــاً ومودةً، فينسى آلامه ويسلو أحزانه. كانت السماء صافية زرقاء وسحب بيضاء تتسابق فيما بينها، ونسيم عليل يداعب أشجار النخيل ويحرك سيقانـــالذرة، وتبرق خضرتها مع تخلل أشعة ال

شمس بينها التراقص على وتيرة نغم واحدة. امتدت أشعة الشمس لتنير حق ولا الذرة التي استحالت رؤوسها صفراء اللون في تساوق وانسجام مع النسائم المتعاقبة، فصار كبقعة كبيرة مضيئة، وغدت حبيباته نبراساً يكاد يعمي الناظر. منظر خلاب قذف بالسعادة إلى قلب رحمة، وبالبهجة إلى روحه، وهكذا تستمر الحياة وتعمر المطامير وتمتلئ بالذرة، فيحس الجميع بالاطمئنان فيعود رحمة إلى أنسه الجميل مع شمة، بعد أن يداعب أطفاله وينامون، وعندما يناديها كانت تقول له:

– ياأبو بطرانأنا ماكت بقولك تناديني بي بت الملوك، وللا بخلانعـليّ بيها في شانرضيت الجية والعيشة معاك فوقا لجزيرة دي.

يبتسم رحمة ويقول لها:

– طيب أدني مني جاي يابنت الملوك.

(٢)

لم تكن شمة تقو لإلا حقا، فهي تنتمي لملو كــا لمتمة، و منهم جدها الملك إدر يس أبو دريع، و جدها الملك عبدالله و دسعد.

بحيــاءٍ بالــغٍ تقترب شمة من زو جها رحمة و تقول له متلعثمة، و قد بلغ بها الحياء قمته:

- شن بتدو رمني يا أبو بطر ان..؟!

ما كان تحت أنف رحمة منشــارب، كان يسمح له مع تلك الا بتسامة العريضة التي بدت فو قو جهه أن يداعبه بزهو و هو يقول لها:

- شيخي ما بغباك يا بنت الملوك مو؟

- اللهم أنفعنا بي جاه سيديو د البشير السماني، بس يا أبو بطر انــأنا ما شفتو عليك الله و صفولي و حدثني عنو.

قال لها و هو يرنو نحو الأفق في ذلك الليل الذي تحمل سماؤه نجو مــاًو أقماراً، و هو يتخيَّر بديع اللغة، إذ يحدثها عن شيخه الأثير:

- سيديــأحمد الطيب صوفي بارز، و وليٌ صالح، و عالم فقيه، نادر زمانه، و فريد أو انه، و غرة دهره، و شمس عصره، البحر المحيط الكبير، و الحبر المدقق الشهير، العلامة الألمعي، و الفهامة اللوذعي، من دانت له قطو فــا لحكمة، و دنت له علو مــا لعبارة، و تناهت إليه دقائق الإشارة، المدقق السختيت، و الرباني الخريت، الداعية المجدد.

- ده كلو بعر فو.. شكلو كيفن؟

- طويل القامة، ذو هيبة وجلال، حسن الوجه، له شعاع كأنه شعاع الغزا
لة، أصفر اللون، باين العنق، ضخم العظام، حلو النطق، عريض الصدر و
الظهر، طويل الزندين، أملس القدمين، بعيد ما بين المنكبين، أقنى العرنين،
كث اللحية، لحيته ما بين الخفة والكثافة وهو يخضبها، ويحف شاربه، واسع ال
جبين، حسن العين والأسنان.

- أهاشن بلبس؟

- يلبس القميص ومن فوقه الثوب، ولا يلبس تحتهما السراويل، ويلبس ا
لطاقية الحجازية وعليها عمامة بيضاء، وتارة (أم قرين)، ونعله رضي الله عن
ه هي النعل الحجازية ويأخذ في يده عصا.

(٣)

كان «رحمة» يدين بالولاء للطريقة السمانية التي أسسها الشيخ أحمد الطيب ودالبشير، راجل أمرحي، وكان رحمة يكثر من زياراته لأرضـا أمرحي في الأعياد والمناسبات الدينية ليلتقي بمرشده الروحي الشيخ أحمد الطيب ودالبشير، وكانت روحه تتوقد وماً لهذهـا الزيارات، فيقفز إلى مركب ويقطع صفحة النيل وينحو جنوباً، بعد ابتعاده قليلاً من جزيرة واوسي، ويرسو على شاطئ النيل الغربي ليترجل فوقـا اليابسة وهو يشدو بالمدائح والأوراد المسجوعة، وعندما يصل إلى الزحام عند خلوة شيخه أحمد الطيب، تشتعل الغيرة في قلوب الرجال من أحباب الشيخ الطيب، فهم يعلمون كم هو أثير لديه، فقد كان يفسح له في مجلسه، وينظر إليه بعين الرضا، ويعامله معاملة خاصة. تلك الغيرة دفعت بالجرأة إلى صدور البعض، فسألوا الشيخ الطيب:

- شيخنا القطب..مالك بتميز رحمة ده مننا..شايفلك فوقو شوف؟ الزول مزارع هوين..لا ليهو في العير ولا في النفير؟

لم يكن أحد من الحضور يتوقع ما قاله الشيخ الطيب عن تلميذه رحمة، فالمقولة صارت نبوءة وتحققت، وتناقلتها الأجيال وحكت بها الأزمانُ للأزمانِ.

بهدوئه وصلاحه ووجهه المشرق وصدقه العميق، قال لهم:

- رحمة..رحمة زولًا مبروك، يحمل في ظهره ملكاً سـيجيء به فارسـاً وصالحـاً يضيء المشرق والمغرب..!

صمت الجميع، فقد رد عليهم شيخهم رداً حملهم من شواطئ الغيرة

إلى شواطئ الاحترام، وهكذا ظلت مكانة رحمة ترتفع، وصار موضعه في قلوب أحباب الشيخ الطيب في موقع المودة والاحترام. ولما بلغت أخبار النبوءة رحمة، استحال كيانه حبوراً وفرحة، وأيقن أن الله سيعوضه عن فقد ابنه عبد الرسول خيراً، وهذا ما أسر به في تلك الليلة لزوجته شمة بلطف آسر:

- أكان إنتي يا شمة بنت الملوك أنا أبو الملك.

- إن شاء الله ربنا يديك الفي مرادك يا أبو بطران، وفي الباقي لي بطران ده شبهو شبه الملوك.

- بطران ربنا يخليهو..لكن بشروني بي ولد حا يكون ملك وفارس وصالح يضيء المشرق والمغرب.

- والبشرك ده منو؟

- بشارة ما بتقع واطة، دي بشارة سيدي أحمد الطيب ود البشير.

بصعوبة استطاع رحمة أن يضع كفه على فم زوجته شمة التي شرعت في إطلاق زغرودة مجلجلة، فوأد بعضها..! ثم همس قائلاً:

- مالِك بتدوري تصحي الشفع وناس الجزيرة؟

- فرحتا يا أبو بطران والله فرحتا.

بعد أن اطمأن رحمة إلى هدوء منزله والجزيرة من حوله قال لشمة:

- هسع يا بت الملوك عاجباك الشقوق الفي كرعيني ديل وجسمي المغبش ده، ما تشوفيلك زيت تمسحيني بيهو؟

قالت له ضاحكة:

- إنتا بتدور الزيت.. وللا بتدور تفتش على الملك بتاعك..؟!

(٤)

تجاوزت الشمس أفقها الصباحي بقليل، وتسللت أشعتها إلى داخل الدُردُر، ولسعت شمة فنهضت مذعورة، وقد تناهت إلى أسماعها أصوات متفرقة. ثغاء شياه، نهيق حمير، وخوار أبقار، وأخرى بشرية لمزارعين وأطفال يلعبون. ميزت بينهم أصوات ابنها بطران وابنتيها فاطمة وعائشة. فأيقنت أن النشاط قد بدأ في الجزيرة، فنظرت إلى جانبها فرأت أن زوجها وصنو روحها رحمة، لا يزال نائماً، فحز في نفسها أن الجميع قد نشطوا عداها وزوجها رحمة فقد سرقهما النوم، قالت لنفسها:

- والله جنس خمالة..هسع يا ربي الشفع ديل شربوا الشاي وين؟

ومرقوا بتين؟ وأنا لا حلبت ولا ولعت لي نار.

الخواطر ألهبت صدرها وأخجلتها، وعندما تخلصت منها وضعت كفها فوق صدر زوجها وربتت عليه برفق وهي تقول:

- قوم يا العشا الوكت روح والفجر فاتنا والناس فوق الزراعة وسرحوا بي بهايمن.

أفاق رحمة ومسحة من القلق ترسم ملامح وجهه وهو يقول لشمة:

- لعلك طيبة يا بت الملوك أصبحتي كيف؟

- ماني طيبة يا أبو بطران، زعلانة من روحي ما صليت ولا حلبت ولا ولعتا لي نار، النوم الله يقبحو.

- البارح السهر أخدنا بالحيل.

- كلو منك الليل كلو تفتش..!

(٥)

من أغوار رحمة البعيدة بدأت ابتسامة تشق طريقها بصعوبة وتستقر مرهقة على وجهه، وسرعان ما قتلتها تلك الاختلاجات القلقة فقال:

- الإبريق يا شمة.. ضارب الخلا أتجمر وأتوضأ.

- لا لا يا أبو بطران، بلزمك بعد الخلا البحر، إتحمم في الأول عشان تستعد سمح لي صلاتك. رد عليها وقد استدرك:

- نوم ونسيان اللهم ألطف.

عاد رحمة من النهر وصلى صلاته وتــلا قرآنــاً وقرأ أوراداً، وقد أضاء دردره بنجمتيه وقمره، وقد عادوا من ملاعبهم. أعدت شمة للجميع الإفطار الحليب والعصيدة. هم بعدها رحمة بالمغادرة إلى الأرض والزراعة..إلى مهنته التي لا يعرف سواها، غير أن شمة استوقفته بعد أن حررته من أيدي الصغار، وقالت له وهي تتقي حرارة الشمس بكفها:

- والله يا أبو بطران ما بقدر أصبر، حدثني كويس بي كلام سيدنا الشيخ الطيبوالله تعبانة.

- لا تشغلي روحك.. وكلام شيخي زي ما بقلك ما بتقع واطة.

- ربنا يحقق القالو.

- هسع بدور ألحق الزراعة ودعتك الله.

- ودعتك لي أمين الوداعة.

(٦)

ضرب رحمة بمعوله كثيراً على الأرض، فأحس بالتعب وبعض الرؤى ترهقه، فدنا من جذع شجرة استطالت وسط أرضه يطلب عندها الاسترخاء، فأسند إليها ظهره واضعاً معوله بجانبه، وعندما لفحت وجهه نسائم الخضرة والنيل، أغمض عينيه فقد بدأ يداعبهما الوسن، غير أن دمعة رفعت جفنه المسدل وتسللت برفق وسالت على وجهه، وبهدوء قبض عليها قبل أن تهرب إلى الأرض، فقد أيقظ هديل القماري في نفسه حزنـــاً قديماً متجدداً، فقد تذكر شيخه أحمد الطيب، شيخه الذي فارق الدنيا قبل سبع سنوات، تذكر ذلك التشييع المهيب وتلك الدموع، وكيف أنه بكى في ذلك اليوم كما لم يبـــكِ من قبل.. نادته الأرض فبدأ ينهض ليستأنف عمله، أراد أن يحمل معوله بكف ناعسة حزينة، فإذا بها في ناب حية رقطاء لدغته بقسوة وهربت، فغاب نعاسه تماماً. نهض رحمة بألمه وهو يمسك كفه الملدوغة بكفه الأخرى، ويسير مترنحاً، فرآه بعض الزراع وعندما سقط هرعوا ناحيته، فقال لهم بصوتٍ واهن:

- أنا اتلدغت.

حملوه بسرعة وساروا به نحو دردره في تلك الجزيرة. كان الهدوء والتوتر يلف الرجال، ولكن الأمر تبدل إلى صخب وصراخ عندما دخلوا برحمة الملدوغ وهم يحملونه فوق الأيادي إلى داخل الدردر، خاصة عندما رأت شمة ذلك المشهد، فقد كان الزبد يخرج من فم رحمة، فزادت في صراخها صرخة وقالت:

- ووب عليّ.. أبو بطران مالو..؟!

- رحمة لدغو دبيب.

استحالت شمة إلى كيان من العطف، ونظرت إلى عيني رحمة بهدوء وصبر، باغتها في تلك اللحظات دون أن تحتسب، رغم أن قلبها كان ينتفض بعنف وقالت تخاطبه، وهي ترى بياض عينيه يغالب سوادهما:

- ما تغمد عينيك يا رحمة.

ثم التفتت إلى الرجال وسألتهم:

- مصيتو ليهو محل اللدغة؟

- أيوه يا بت فتاحة.

- الظاهر ما مصيتوه كويس، إنتو بتخافو من السم وللا شنو؟

أخذ الجميع يترقب بيأس خطوة شمة التالية، فرفعت كف رحمة الملدوغة وهي تحذره للمرة الثانية ألا يغمض عينيه، وأخذت تضع على الكف والساعد جروحــاً بمديته الحادة التي استلتها من أعلى ذراعه، ووضعت مكان اللدغة في فمها وأخذت تمتص منها السم أو بقاياه وتقذف من فمها لعابها الذي اختلط به السم والدم، وفعلت مثل ذلك في تلك الجروح التي أحدثتها في الساعد، ثم مزعت من طرف ثوبها قطعة ربطتها بإحكام أعلى الساعد. بقلب مفطور أخذت شمة تنظر إلى عيني الملدوغ وسط صمت وترقب الحاضرين، وأخذت تخاطبه بما أملاه عليها ذلك الخاطر المباغت:

- يا العشا ما في باقي بركة.

رد عليها بصوتٍ واهن يكاد لا يبين، صوت أعلى من السكون وأقل

من الهمسة:

- تلقيها في صرة فوق المشلعيب.

فهمت رده وأشارت بعينيها بذلك المغزى، فتبرع أحد الرجال وأحضر بركة الشيخ الطيب التي كان رحمة يحتفظ بها بعناية، فتلقفتها شمة بلهفة وأخذت تنثر تلك الحفنة الترابية فوق الرباط، وهي تدعو ما شاء لها مـن الدعاء.

الجزيرة لا تغيب عنها الأحداث والأخبار أبداً، فهي تضم مجتمعاً صغيراً ومفتوحـاً، لذا بدأت جموع النساء تتقاطر على دردر رحمة ليقفن على حالته، ولما غابت الشمس قالت شمة:

- خلاس يا جماعة رجال ونسوان.. كتر خيركم.. بعد دا بندور نسلب رحمة السليم من هدومو، ونمسحو وندق ليهو الصفايح، بس يقعدن عماتو وخالاتو.

في ذلك الزمان كانوا يطلقون على الملدوغ لقـب السليم تفاؤلًا، ولا يتركونه ينام مطلقاً، لـلاعتقاد الذي كان سائداً بأن المتأثر بالسم إذا نام أو أغمض عينيه، فإنه سيصاب بالعمى، لذا كانت مهمة شمة ومن معها من النساء أن يبقين رحمة مستيقظـاً الليل كله، فأخذن يشغلنه بالدهن والحديث والضرب على الصفائح الفارغة التي تحدث صوتاً مزعجاً لا يدعه ينام أو يستسلم لغفوة، وهكذا استمر ذلك الليل وكانت الناس تسمع الأصوات وتتمنى ألا تتوقف، فتوقفها يعني موت السليم. صار ليل السليم جزءاً من أدب العاشقين، فيقول العاشق: ليلي بعدكم صار كليل السليم. أي أنه قضاه سهراً.

وقتها كان رحمة مشغول الفكر بشيخه ونبوءته، ويخامره إحساس بأنه

لن يموت حتى تنجب له شمة الابن البشارة، وعزم أن يقضي أيامــاً حال أن يتعافى بممرح الطيبية قرب ضريح شيخه الراحل. في الصباح كان رحمة قد استعاد كثيراً من عافيته، فهدأت زوجته شمة وعاد أطفالهم الذين توزعهم الأهل في الليلة السابقة، فهشاشة قلوبهم لا تحتمل ذلك المشهد. أخبر رحمة زوجته بما عزم عليه فردت عليه قائلة:

- قطع شك زيارتك للضريح ما بكون فيها إلا الخير والبركة، بس يا أبو بطران جسمك يا الليلة بمرح فوقو السم، ارتاح لك زمن وسافر في شان تقدر تجدف.. سواقة المركب مي ساهلة. لشهر أو يزيد ورحمة يحلم بزيارة ضريح شيخه بممرح الطيبية، حلم كان يقلق منامه ويجعله في ترافق مع السهر، وفي فجر أحد الأيام جــدَّ منه العزم على السفر، غير أن صوت صغيرته عائشة وهي تتحدث إليه بصوتها الطفولي أزعجه، فقد فهم منها قولها:

- أمي عيانة يا أبوي.

وجدها تتكئ على ظهر الدردر من خارجه، تتقيأ بألم فنظر إليها فابتسمت وقالت:

- البنية يا أبو بطران مطرطشة ساكت، أنا ماني عيانة.

- إنتي بتدوري تطمنيني ساكت في شان عارفاني بدور أسافر.

- لا والله يا أبو بطران، سافر وودعتك لي الخالقك، بس أمش جيب لي طينة بحر أنا بتوحم ..!

(٧)

لم يكن يخالج رحمة أدنى شك بأن الملك هو من يتحرك داخل أحشاء زوجته شمة، لذا كانت دواخله تمور بسعادة لا توصف، عبر عنها بأهازيج طروبة وهو يتجه بمركبه غرباً نحو أرض ممرح الطيبية. كانت نفسه تحمل عبارات ثناء ووفاء، قرر أن يناجي بها قبر شيخه أحمد الطيب. وصل إلى هناك بمشاعر متباينة ومختلفة تمتزج فيها أحاسيس الفرح بأحاسيس مؤلمة ومحزنة. أحاسيس الفراق المر، فقد فرق الزمان بينه وبين شيخه، فظل يتذكر مجلسه وتختال في رؤاه إيثاره وعطفه. يبكي أحيانـــاً، وطوراً يبتسم. غير أن ما كرس الفرحة في قلبه، تلك المكانة الرفيعة التي ظل يحتفظ بها في قلوب أحباب الشيخ الطيب وخليفته ابنه الشيخ نور الدائم، فظل في معيته عشرة أيام، يبادله وداً بودٍ، ووفاءً بوفاءٍ، حتى ناداه صوت شمة، فأسرع بخطاه نحو النيل وبدأت عودته إلى جزيرة واوسي. أحس رحمة طوال أشهر حمل زوجته بأشياء لم يكن يحس بها من قبل، وكانت تنتابه أحاسيس حسب أنه قد نسيها، إذ تضاعفت مودته وتعمق حبه لشمة، فكانت تقول له أحياناً:

ـ يا العشا أنحنا كبرنا شغل الصبيان ده خلو..!

حديثها كان يزرع الابتسامة في وجهه، فهو يعلم أنها تتجمل ولا تعني ما تقول.

كانت الأرض تهش تحت معوله، والماء ينساب رقراقـاً إلى زرعه الذي لم يهاجمه الجراد في ذلك الموسم، ولا غشيت الأمراض سنابله، ففاض إنتاجه حتى تصدق ببعضه، بنى قطية ودردراً آخر وأحاط منزله بالصريف، وصار كوجهاء الجزيرة في ذلك الزمان. تعثر رحمة في ثوبه

بقلب خافق وهو يهرول في ليلة من ليالي شهر يوليو الممطرة قاصداً قطية نائية تقطنها التاية أم شموم، تلك المرأة البدينة السمراء، وعندما أدركت فيه لهثه ابتسمت وعاجلته قائلة:

ـ شمة بتتوجع يا رحمة مو؟

ـ آي والله متألمة شديد حصليها.

التاية تدرك عملها جيداً وملمة بطبائع نساء الجزيرة وأحوالهن. حملت حبلها وتبعتها ابنتها شموم، التي ورثت بدانتها وترغب في وراثة مهنتها.

أراد رحمة أن يتبعهما فمنعته التاية برفق وسارت في طريقها. ظل هذا اليوم محفوراً في ذهن التاية إلى أن توفاها الله بعد خمسين عاماً. كانت فخورة بيديها طوال هذه الفترة، وتردد في مجالسها فخراً بأن يديها أول يدين تمسان جسد الزبير ود رحمة. وقف رحمة يتلفح الظلام خارج منزله، والقلق والترقب يأخذان بتلابيبه، والطين يلطخ حذاءه. كان يكثر من الدعاء بصوتٍ عالٍ، كأنما يريد أن يُسْمِع به السماء. طال قلقه قليلاً وعندما سمع الصرخة اشرأب بعنقه فوق الصريف وأخذ يصرخ:

ـ ولد يا التاية مو.. ولد مو؟

لم يسمع رداً، فعاود السؤال بصوتٍ أعلى، فجاءه رد التاية وفقاً لحدسه:

ـ آي ولد يا ود منصور، ولداً حسِين وزين.

وأضافت شموم:

ـ ولدك أصابعينو طوال يا رحمة..!

تخلص رحمة من الصريف وخر ساجداً يشكر ربه، ثم انفجر باكيـاً بوجه امتزج فيه الطين ويقول:

ـ أريتك يا شيخي لو كنت حضرتو، الله يرحمك يا الشيخ الطيب..ألف رحمة تنزل عليك يا شيخي.

بدت شمة بت فتاحة في ذلك اليوم الوعاء الذي حمل هدية جزيرة واوسي إلى العالم بمشرقه ومغربه، هدية للدين والوطن والإنسانية. كانت تتأوه بآلام المخاض العسير ولكنها كانت تكتم آهاتها بخِرقة دستها بين اللسان وباطن الفك. إنها كهذه الجزيرة التي صمدت في وجه الأعاصير وضربات أمواج النيل، قبل أن تنهزم وتتثاءب وتلفظ أهليها لما وراء النيل، محتفظين باسمها إلى اليوم. حبيبات العرق كانت تغطي شمة من أعلاها حتى أخمص قدميها، والحبل القديم بقسوته يشدها إلى أعلى. عندما بدأ مولودها يغادر بطنها بدا كلؤلؤة من محار لا يجود الزمانُ بمثلها إلا مرةً واحدةً كل ألف عام.. وما أن صرخ صرخته الأولى حتى انسابت إليها كنغمة مموسقة ترددت كقافية موزونة طروب، فانزاحت معاناتها وارتسمت على شفتيها ابتسامة تهزأ من ذلك الحبل وتستخف بكل ألم. قيل أن الزهر في ذلك اليوم قد نبت في غير موسمه، وأن سماء الجزيرة جادت بمطر غير مسبوق في ذلك الشهر الذي كانت تلهب سمائمـه الوجوه. حدث هذا والقرن الثامن عشر يقبر من أعوامه واحداً وثلاثين عاماً، وعرف ذلك المولود كيف يتمسك جيداً بثدي أمه ويرتشف بنهم، ولا ندري أكان ذلك حليبـاً صرفـاً أم أنه ممزوج بماء الفروسية والتقوى والفحولة والأمارة. لم يكن فجر الثامن من يوليو كأي فجر آخر في حياة أهل جزيرة واوسي وأسرة رحمة ود منصور، كان فجراً كالبشارة لم يغشَ الزراع أراضيهـم،

إنما شدتهم إلى منزل رحمة صراخه وبكاؤه الليلي، حضروا إليه زرافات ووحدانـــاً، وفي عقلهم الجمعي نبوءة الشيخ، بعضهم كان يكتمها في صدره زمانـــاً، وبعض الذين كذبوها غابت عن أذهانهم ونسوها، ولكنهم جميعاً في ذلك الفجر أخرجوها من صدورهم وتذكروها وتحلقوا حول رحمة مباركين ومهنئين، وكم كان رائعـــاً احتفالهم بهذا القادم المنتظر، إنهم قوم تتحرك مشاعرهم وتعتمل قلوبهم البيضاء بالفرحة والسعادة لكل مناسبة سعيدة مهما صغرت، فما بالك وهم اليوم يستشرفون البشارة، كانت أرض الجزيرة - كل أرض الجزيرة - مسرحـــاً للأهازيج والمدائح والشعر، كان يوماً مشهوداً وحدثاً أسطوريـــاً لم تشهده الجزيرة في تاريخها، وعندما طار الخبر لأرض ممرح الطيبية، تحركت المراكب بالأحباب والنساء والأطفال صوب جزيرة واوسي، منضمين هناك لأهل القرى المجاورة، فنُحرت الإبل في فضاءات الجزيرة جنبـــاً إلى جنب مع الأبقار المذبوحة، والخراف معلقة بعد ذبحها على فروع الأشجار مستسلمة للسلخ، فتعطرت أجواء الجزيرة بروائح الشواء، كانت الإبل ترزم، والخيول تثير النقع، والنساء يطلقن الزغاريد، ورحمة يدمع وشمة تبكي وبعض الأطفال يضعون إكليـــلاً تاجيـــاً من الزرع الأخضر على رأس المولود. اقترب أحدهم من رحمة وهو يقول له:

ـ دي ما حصلت قبال كدي يا ود منصور، ما ترى النسوان فوق جزيرتنا دي وفي غيرا من الحلال بلدن كل يوم.

ـ يا أخوي كل زولًا في الدنيا دي بجي بي نصيبو.

ـ أها شن بتدور تسمي جناك ده؟

ـ من غير أحمد الطيب شن بدور أسميهو؟

من خلفهما انطلق صوت قبل أن يضع صاحبه كفه على كتف رحمة:

ـ لا لا يا رحمة.. اسمو محفوظ في اللوح، اسمو الزبير يا رحمة، سمو الزبير يا رحمة بكون زي الزبير ابن العوام.

نظر رحمة خلفه فأدرك أن محدثه غريب الوجه، هيئته كهيئة الدراويش، وقبل أن يرد عليه كان جليسه يهمس له قائلاً:

ـ أقسم لك الزول ده نبي الله الخضر..!

وكم كانت دهشة رحمة عظيمة عندما استدار بوجهه ناحية الدرويش، فلم يلفه، فقد اختفى الرجل وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته، فعاد بدهشته ونظره إلى رفيقه، فأدركه مبتسماً ويصرخ قائلاً:

ـ أبشر يا أبو الزبير.. كمان أبشر يا أبو الزبير.

أحالنا الحدث إلى ما قاله الزبير باشا نفسه عندما شارف على الثمانين من عمره، ولم يتبقَ له من القبر إلا خطوة أو خطوتان: وعندما شارفت الخامسة والعشرين تزوجت بابنة عم لي واخترت التجارة لتكون مورداً لعيشي، وخيِّل إليّ أنني بذلك قد انتهيت من تحديد أمر مستقبلي ومن تعيينه، كما أهوى وأختار، ولكن كم كنت واهماً..! وأنني لا أنفك أتساءل حتى اليوم، على الرغم من أنني شارفت على الثمانين، ترى ما الذي نملكه من أمر أنفسنا؟ وإلى أي مدى نستطيع بآمالنا أن نتحكم في مستقبل لا يملكه إلا الله..؟!

(٨)

في تلك الأجواء الأسطورية المفعمة بالروحانيات والمتسربلة بالصوفية ولد الزبير. بعث ذلك المولود البشارة سحره في أرجاء الجزيرة الخضراء، وتنامـــى الدفء في كل ركن من أركان منزل والده رحمة ود منصور، وبدأت والدته شمة تتخير الأساليب الخاصة التي تناسب هـــذا الطفل، لا تمييزاً عن إخوته، إنما تفاعلًا مع تلك البشارة الكريمة التي أشاعت ما أشاعت في النفوس. كانت نفس شمة تنطوي على حب عظيم لهذا المولود، مخفية تفضيلها له وإن كانت تغني له برؤية ثاقبة:

ولدي حجر الصاقعة الرزم..سكاهم سكة غنم..وجاب وشوشهم سجم..

لم يكن والده ينظر إليه إلا كما ينظر المرء إلى أعز هدية، أو إلى أفضل ما يملك في الحياة، وبدأ عزمٌ يقوى في كيانه: الزبير لا بد أن يتعلم. خلوة الفكي محمد تناسبه عندما يبلغ الخامسة. كان يعد الأيام والشهور ليبلغ هذا الهدف، وهو يعلم أن الأمر لن يتحقق إلا بهجره لهذه الجزيرة. ولكن كيف يهاجر من دمه..؟! لقد ارتبط كيانـاً وروحاً بهذه الأرض، ولكن من أجل الزبير يهون كل شيء. لم يستطع أن يخفي عزمه عن صنو روحه شمة، فوضعت يدها وجلًا فوق صدرها وقالت:

- كيفن بنسيب الجزيرة ونمرق منها.

- إنتي يا بت الملوك ماك شايفة عويناتو ببرقن كيفن..؟

- أكان ماك أبوهو كت بقول عليك بتدور تسحروا..!

- لا لا، بس بقول يخش الخلوة في الجيلي وإنتي عارفة أخواني قاعدين فوقا، يعني الجيلي مربعنا زي ما واوسي مربعنا، كلنا أهل بس الواطة وسعت بينا والرزق شتتنا، وأنا والله ما هين عــليّ أفارق واطاتي.
الصمت الذي ران على شمة أنبأ رحمة أنها قد غرقت في تفكير حتماً سينقلها للموافقة على الانتقال بعد سنوات قليلة إلى الجيلي، ولم يطل تفكير شمة واتخذت قرارها:

- الجيلي مي بعيدة، وأهلك الناعماب والجميعاب والشهيناب ياهن زي أهلي، ومعاشرتن سمحة وزينة، وفيها خلوة الفكي ود عيسى، نمش ندّو الزبير.

- آي والله محمد ولد عيسى ولد أبو سكيكين عالم مشكور وإيّاهو البعلم الزبير.

عادت شمة إلى صمتها ولكن الصمت لم يكن وحيداً هذه المرة، فقد كانت تطوف حوله الأشجان. نظر إليها رحمة فأحس بوخزة تشبه تلك الوخرة التي تهاجمه كلما تذكر طفله المتوفى عبد الرسول. نهض قبل أن تفضحه دموعه وغادر الدار يجوب أرض الجزيرة، كأنما يودعها متملياً ميادينها ورمالها ومياهها التي كانت ملاعب طفولته، تلك الملاعب التي كانت مسترفداً لخياله ومنبعــاً لذكرياته. طائر الجنة يحل في الخريف يتبعه السمبر الأسود والقطا والجبركل والدباس وطير البقر. هذه شجرة سدر وتلك شجرة أراك، تلك أرضي، هذا زرعي وأنين الساقية يتساوق وغناء الأورتي وآهات الثور..هنا لدغتني الحية..تلك مركبي كم تأرجحت بي على صفحة النيل. طيور الرهو والخداري تتخذ في الأشجار أعشاشــاً وأوكاراً، تغدو في الصباحات وتأتي عند الأصائل محملة بالغذاء لصغارها، إنها مثلي وقد علمتني سعيها.
نظر رحمة إلى السماء كانت صافية ولكن في موسم الخير ستتوشح

بالسحب السوداء، وسيتراقص فيها البرق بخفة ولمعان يتبعه الرعد. حينها ستثغو الشياه وأذنابها مرفوعة وآذانها منتصبة، لتنذره بالقادم من السماء..يا إلهي سأرحل عن كل هذا رحماك يا ربي. اتخذ رحمة من النيل مرآةً بعد أن غسل وجهه من مياهه، فقد رغب في العودة إلى شمة وصغاره بوجه لا تبدو عليه آثار الحزن. قبل أن تقع أشعة الشمس على الصريف وتتسلق الدردرين والقطية، كان رحمة ينهض من فراشه ثم يصلي، وعندما يصل لأرضــه يغني لها فتطرب ويضربها فتئن وتصرخ ثم يعود. الشمس تشرق وتغيب ويغيب معها يوم ويدور الزمان ويأذن لعام أن يمضي بغير عودة، وآخر يبدأ في الدوران والزبير يكبر ومخائل الذكاء فيه تزداد وضوحاً، وعيناه تلمعان أكثر.

(٩)

بدا الزبير قبل أن يصل للخامسة طفلًا يقوى على صحبة والده وشقيقه بطران إلى الأرض والنيل، يسعد برؤية الشياه ويلاعبها حتى حفرت حادثة أخدوداً عميقاً في نفس رحمة ونفس الطفل الزبير معاً. يا له من منظر بشع ذلك الذي وقع على أعينهم، فقد بدا لهم ذلك التمساح الضخم الذي بدأ يشق سطح النيل مسرعاً كالشهاب أو كمركب تدفعه أمواج عاتية، وفي لمح البصر اختطف شاة عزيزة على نفس الطفل الزبير وعاد بها بقسوة بالغة حاملها بين فكيه إلى جوف النيل، ودم أحمر قانٍ يختلط بالماء العذب ويرسم لوحة مرعبة على سطحه.

بكي الزبير بكاءً مراً وأخذ رحمة يواسي طفله الصغير، أخذه بين أحضانه وبقوة لم يتوقعها الأب تفلت الطفل وتخلص من تلك الأحضان، وهرول صوب النيل وقذف بجسده الصغير فوقه. أسرع رحمة خلف طفله يبحث عنه بين طيات النيل لينقذه من غرق يكاد يكون محققاً، حتى انتشله ثم قال له لائماً:

- إت مجنون يا جنا؟ شن السويتو ده؟

رد باكياً دون أن يسيطر على دموعه:

- بدور أكتل التمساح ده الأكل معزتي..!

بمساعدة ابنه بطران استطاع رحمة العودة إلى داره بطفله الزبير، الذي استحال بريق عينيه إلى حُمرة ولا يفتأ يضرب بكفه الصغيرة ساقه - صارت هذه عادة لازمته طيلة حياته - بكى طويلًا بين أحضان أمه شمة، تلك الأحضان التي قال عنها الزبير عندما صار تاجراً كبيراً،

وملـــكاً عظيـــماً وهو ينعم بوسائد من ريش النعام:

- حضن أمي كان أنعم من هذه الوسائد.

نام الطفل بعد أن أخرج من صدره تنهيدات حارقة وزفرات حرى. قال رحمة وهو يستعيد تفاصيل الحادثة ويحكي بها لشمة وفرحة غامضة تهز كيانه:

- الجنا قلبو حار يا شمة.

- ربنا يحفظو ويكفيهو شر العوارض.

تلك الليلة كانت فوق ذلك تحمل نذراً حارقة تنذر بالرحيل، فقد أزف وقته وبلغ الطفل الخامسة. تحدثا كما يتحدث الهاربان من موعد تتآلف فيه الحتمية والأحزان، وبدت الجزيرة كشيءٍ عزيز يوشك أن يتسرب من بين أيديهما ويذهب، قال لها:

- سنرحل.

- ووب عليّ أنا من الرحول.

- الخلوة في انتظار الزبير وأنا رسلتا للفكي محمد وحدستو.

- متين السفر؟

- باكر.

- واطاتك ومطمورتك شن سويت فيهن؟

- أجرتهن.

- يعني خلاس باكر باكر؟

- أيوه يا بت الملوك.

- وناسك؟

- بودعهم الصباح، بس إنتي والعيال خليكم مستعدين..السماني ود جاه الرسول بجيب الجمل والتور في شان يخت فوقهم حاجاتك ويوديهم المركب. عندما أحس رحمة بمشاعر الأسى تعتمل فوق وجه زوجته شمة، قال لها:

- أهلنا الناعماب والشهيناب يا شمة فرحانين بينا وبقابلونا في المُشْرَع بي حميرم أول ما نقطع في شان يودونا لي منزلتنا في الجيلي.

صمتت شمة ثم أطرقت برأسها إلى أرضية الدردر وأسقطت عليها دمعة، وعندما تخلصت من صمتها قالـــت:

- خلني الليلة براي يا أبو بطران بدور أبكي..!

(١٠)

بدا فجر الرحيل كئيباً، كأنما قد ولد من رحم ليلة ضاجعتها أشباح الظلام..نشط المودعون والمودعات وتنافسوا في إبداء أساهم وحزنهم، وتحرك الجمل والثور يقودهما السماني ود جاه الرسول متجهاً بهما محملين بأغراض أسرة رحمة صوب النيل والمركب الراسية قرب شاطئه، ليفاجئــه الطفل الزبير بإصراره اعتلاء ظهر الثور..! وصل الركب إلى الشاطئ لم يتخلف في صباح الوداع سوى القلة من أهل الجزيرة..الصغار كانوا فرحين وهم داخل المركب، ورحمة يمسك بمجداف والسماني يمسك بالآخر:

- يا السماني بعد ده المركب دي هولك وبيتي هولك.

- بعرفك يا عمي راجلًا جنب كريماً أجرب وربنا يوصلكم بالسلامة، وأنا ما بصد للجزيرة إلا أسلمكم أهلنا الناعماب والشهيناب.

بينما كانت شمة تعاقر أشجانها والمركب يسير على صفحة النيل والصغار يترجمون فرحتهم ضحكاً ولعباً، كان الطفل الزبير صامتــاً ينظر بعينين ملأهمــا الغضب إلى النيل، وتدوران على صفحته الممتدة كأنما تبحثان عن شيء، وفي مخيلته الصغيرة شاته العزيزة التي نزفت دماءها وهي بين فكي ذلك التمساح.

لم يخطر على بال الزبير أنه بعد سنوات عديدة في مجاهل نهرية موغلة في الخطورة والتوحش سيأخذ بثأره ويقتل حفيد ذلك التمساح، وترتاح نفسه من غلها، وينقذ رجاله ونفسه من جوع كاد يهلكهم، فكانت ضربة بضربة والبادئ أظلم..!

هبط ركب رحمة ود منصور وأسرته على الشاطئ وأسعدهم ذلك الاستقبال الذي وجدوه على اليابسة من قوم نبلاء كرماء، فقد استقبلوهم كما يستقبل الأعراب في البيداء صوب الغادية..تعالت أصواتهم بالترحيب، حتى حميرهم نهقت، وجمالهم أرغت، وأصدرت نياقهم حنينها، وحركت كلابهم أذنابها. فأحسوا بالاطمئنان والأمان، وتحركت الوجوه بالابتسامات، والشمس تبعث بنورها من وجه شمة الوضاء..الأطفال أخذتهم فرحة غامرة، وبدأ جاه الرسول يجدف ويبتعد موغلًا بمركبه داخل النهر وهو يعود بدموعه للجزيرة.

كانت عينا الزبير تتحركان يمنــةً ويسرةً وهم على مشارف الجيلي غير البعيدة، كأنما كان يريد اكتشاف هذا المكان، ولم يكن يدري أن اسمه ذات يوم سيرتبط بهذه البلدة ارتباطـاً سياميـاً، وسيصير أشهر أعلامها وسيعمرها بالقصور ويرفد أهلها وهم آلـه، بالبر والإحسان، ويبادلهم حباً بحب، وبعد عقود من الزمان سيموت في أرضها ويقبر فيها بعد تشييع مهيب.

بدأ رحمة يصيغ علاقته بالناس والأشياء من حوله، وعندما تم له الاستقرار اتجه بطفله الزبير إلى خلوة الفقيه محمد ولد عيسى ولد أبو سكيكين:

- ليك اللحم ولينا العضم.

ما زال الطفل الزبير يجوس بعينيه ووالده لا يترك كفه الصغيرة، وعندما وقعت العينــان الذكيتــان على السوط قال:

- أنا ما بخاف من السوط..! ابتسم الفقيه في وجه الطفل الزبير، وهي ابتسامة لم يكن يمنحها لأحد من تلاميذه إلا نادراً، فقد هجس له هاجس أن الطفل الذي يقف الآن أمامه طفل متميز، وقد قالت الناس

إن الفقيه محمد مثل والده تماماً من الأصفياء أصحاب الكشف. نظر إليه الزبير نظرة عميقة فرأى في عينيه أبوة حنونة وصادقة، فتخلص من كف والده وتقدم نحوه بحلمه العزيز وأمنيتـه العذبة، اللتيـن كرسهما في عقله والده، وهما امتلاك لوح خشبي يكتب عليه ودواية تفيض بالعمار يغرس فيها بوصته. فانتحى الفقيه بوجهه إلى رحمة وهو يضع كفه فوق رأس الزبير ويقول:

- خلاس يا ود منصور إنتا أمش.

لم يشعر الزبير بالوحدة أو الوحشة بعدما غادر والده المكان، فرفع رأسه إلى أعلى يبحث عن ابتسامة الفكي محمد فوجدها حيث هي، فخامره فرحه الطفولي وشيخ محمد يقول له مدعماً قوله بالإشارة: أمش ألحق الأولاد في الخلوة. انطلق الزبير وانضم هناك للطلبة بتوق عظيم، لم يشف منه إلا بعد أن امتلك لوحاً ودواية، لتبدأ منذ تلك اللحظة رحلته الفقهية والعلمية الباذخة التي أهلته بعد سنوات طويلة أن يفلح في إقامة دولة تحكم بالشريعة الإسلامية، وأن يلعب دوراً في نشر اللغة العربية والإسلام في أرجاء جنوب السودان، وأن يضع اللبنات المهمة لتطور البلاد وتمدينها، وأن تصير قصوره في مصر دُوراً للمنتديات الدينية والعلمية والأدبية، يؤمها الأدباء والعلماء والصفوة وعلية القوم. لم يكن تفاؤل الشيخ الفقيه محمد ود عيسى كافياً ليصل به إلى أبعد من توقعاته، بتميز الطفل الزبير الذي فاجأه بعد وقت قصير بمقدرة تفوق الوصف في الحفظ والفهم، وكان أول تلامذته الذين يغسلون لوحهم كنايـةً عن حفظه، ليعود ويستكتبه من جديد سورة جديدة. ولعل تشجيع رحمة ود منصور لابنه الزبير في حفظ القرآن الكريم كان له أثر إيجابي فعال، فقد كان يهديه في كل مرة يضع فيها شيئاً من القرآن الكريم في صدره شاةً أو معزةً، وكانت هذه السوائم أول أملاك الزبير في الحياة، ومع هذه الأملاك استبان شيء لرحمة، فقد

أدرك أن الطفل الزبير لا ميول له نحو الرعي أو الزراعة، إنما كانت نفسه تميل به إلى حب التجارة والفروسية، فقد باع الطفل الزبير ما امتلك من سعية وادخر ماله لدى أمه شمة التي سألته:

- شن بتدور بالقروش يا الزبير؟

- بوريك يا أمي بعدين. وصل الطفل الزبير الذي اقتربت سنه من السابعة إلى دار والده من الخلوة ذات نهار، كان صامتاً لم يقل شـيئاً، وخرج عصراً يلعب مع أترابه ويستمتع بالنظر كعادته لشباب البلدة وهم يعتلون صهوات خيولهم، وعاد قبل مغيب الشمس وطلب من والدته أن تعيد إليه أمواله ففعلت بـاستغراب. ساعة العشاء كانت ساعة سمر وسعادة في دار رحمة، الابنـان بطران والزبير يتلاطفان، والبنتـان عائشة وفاطمة تخدمان الدار بسرور مع أمهما. أهل البلدة لا يعرفون السهر، فآوى الجميع إلى فراشهم، لم يهدأ للزبير بال في تلك الليلة، وترافق مع السهر كثيراً، ثم قرر الخروج من الدار. أحست أمه بخروجه وكانت تظن أنه خرج لقضاء شيء لا يجوز فعله هنا، ثم أخذت تترقب عودته، ولكن ترقبها طال ولم يعد الزبير، فأصابتها خفقة وصادها خوف، فتخلصت من جوار زوجها النائم ويممت وجهها شطر باب الدار، وخرجت هائمة على وجهها في طرقات البلدة تبحث عن فلذة كبدها، وتوغلت في الظلام حتى صارت قطعة من ذلك الظلام الذي زاده الهدوء رهبة. هدوء صافٍ لا يقطعه سوى نهيق حمار، أو مواء قط، أو ثغاء شاة. البلدة أغلب مبانيها طينية تفوح منها رائحة روث البهائم. لم تهتم شمة بتلك الأجواء الباردة التي انتظمت تلك الليلة، فما كان في كيانها من لهيب كان كافيـاً لمنحها دفئـاً كاذبـاً. كان يصحبها طيف ابنها الزبير الذي غاب أثره، فأوصلها البحث قريبـاً من النيل، حيث زرائب السوائم، وهناك وجدتْ الزبير فاندفعت نحوه بقلب خافق ولهفة عظيمة:

- شن الجابك هنا يا ولدي؟

- بفتش على زريبة الفضل ود موسى.

- شن بتدور بي الفضل؟

- بدور أشتري منو الباسلة.

كان الفضل عندما يجوب البلدة بحصانه الأشقر، تتبعه مهرته التي أسماها الباسلة التي وقع الزبير أسيراً لهواها، وكان يمني نفسه بـامتلاكها. كان منذ صغره ينظر إلى الأشياء الكبيرة وينمو في كيانه عشق الفروسية حتى باتت الخيل والليل والبيداء تعرفه:

سموك الزبير فارســاً تشد الحيل..وسموك الزبير فارســاً تصد الخيل..وسموك الزبير صالحــاً تقيم الليل..وسموك الزبير بتغير هوية ليل..

ضمت شمة ابنها الزبير إلى صدرها بحنو بالغ وهي تقول له:

- يا ولدي هسع خلاس الفكي محمد أجازك وأبوك بدور إوديك لي كتاتيب الخرطوم، في شان تتعلم أكتر وتبقى زولًا كبير، بعدين لمن تجي تعال اشتري الشيء البتدور تشتريهو.

بدأت نفس الزبير تمور بمشاعر جديدة، وآمال أخرى بدأت أطيافها تطوف حوله، فعاد مسروراً مع والدته إلى الدار ونام نومــاً لا قلق فيه ولا اضطراب. في اليوم الأخير من أيامه في خلوة الفقيه محمد ولد عيسى، سمع الزبير وأقرانه منه قوله: خلاص الشيء الكتير الحفظتوهــو ده لازم تجودوهو كل يوم في شان ما تنسوه.

تبادل الزبير وابن عمه محمد عبد القادر حبيب الله نظرات تعني الانطلاق إلى

ملاعبهمـا الأثيرة قرب النيل. كانا صديقين زادتهمـا الخلوة محبة والتصاقاً، وكان الزبير يدخر لصديقه وابن عمه محمد رواية تحكي تفاصيلها عن مغامرته الليلية بغرض شراء الباسلة. هناك قرب النيل اجتمعا يراقبــان الزراع وهم يحصدون ما زرعوا بهمة ونشاط. أصاخ محمد إلى رفيقه الزبير وهو يورد التفاصيل بدقة ثم يسأله بشغف، ولكن ثمة أصوات دفعت بهما إلى دائرة الصمت والترقب، أصوات قابلها المزارعون بصمود وشجاعة، كان أصحاب تلك الأصوات المزمجرة - وبعضها أعجمي أجش - غرباء يركبون فوق جياد قوية ويحملون العصي والسلاح، ويلبسون الطرابيش ويسألون الجميع بفظاظة عن الضرائب.

قفل الزبير ورفيقه محمد عائدين يملأهما الأسى، ولا يرتد طرفاهمــا عن النيل. ينظران إلى هذا الكائن الأسطوري ولا يعرفان من أين أتى وإلى أين سيذهب، ولم يدريا أنهما ذات يوم سيركبان سطحه بأمواجه العاتية، وثبجه العالي في رحلة طويلة تحفها المخاطر ويسطرها التاريخ وتردد تفاصيلها الأجيال.

بتلك المشاعر افترقت خطى الصديقين الصغيرين وعاد الزبير إلى داره مصطخبـاً بالأسئلة، كبحر يجيش مواره بالزبد. عاد رحمة متعبــاً بعد أن ألقت الشمس بدمائها فوق أفقها الغربي:

- أبي لماذا تأخرت؟

- أنت تعرف. لقد رأيتك هناك مع محمد ابن عبد القادر وقد رأيتم كل شيء.

- الترك والمصريين ليه بشيلو حقكم، ومالم قاعدين يكوركو كده؟

- أنت صغير لن تفهم.

- سأفهم يا أبي.

- إذن تعال فسأحدثك عن الأمر.

(١١)

جلس الزبير وأخذ يسمع من والده ما أشكل عليه فهمه، حتى أدرك أنهم تحت سلطان الباب العالي، وأنهم رعية الدولة الإسلامية التي يجب طاعتها وطاعة خليفة المسلمين وخديوي مصر المفوض من الأستانة، وأن الضرائب التي يجمعها الأتراك والمصريون إنما هي أموال لصالح الدولة الإسلامية. في ذلك اليوم غرس رحمة في نفس ابنه الزبير بذرة الولاء للدولة الإسلامية، وكانت أسماء الولاة والباشوات التي تخرج من فم والده تبدو له كأسماء نجوم بعيدة في السماء، ولم يدر بخلده أنه في يوم ما سيجري في قرن مع أولئك الباشوات والولاة، ويصير مثلهم، يهاديهم ويهادونه، يأكل في موائدهم ويأكون في مائدته، إنه بحق أمر عصي حتى على الخيال. غير أن ما تكرس في نفس الزبير هو طريقة جباية الضرائب والإسراف فيها، وعد الأمر قسوةً وظلماً، وحلم كما يحلم المتمني بزوال تلك القسوة وإزالة هذا الظلم. لم يستغرق الطفل في التفكير كثيراً، فقد فاجأه والده بالاستعداد للسفر في غده للخرطوم بغرض الالتحاق بمدرسة الكتاب. قبل أن يتسلق الزبير جبلًا آخر في رحلة مجده الأثيل، ساقته خطى الفرحة فجراً إلى أترابه وبينهم صديقه ابن عمه محمد عبد القادر، وأخبرهم بعزم السفر، فأشعل في أنفسهم ما أشعله من نيران الغيرة التي استحالت في مقبل السنوات إلى وفاءٍ وتقدير عظيمين، بلغ حدهما التضحية بالأموال والأرواح.

في تلك المدرسة وأجوائها الجديدة التي تناغمت مع روح الزبير الوثابة للعلم، أجاد الزبير القراءة والكتابة، وبرع في مبادئ الحساب وعلوم الدين والجغرافيا والتاريخ والطبيعة. وقبل أن يكمل الزبير عامه الثاني بقليل في تلك المدرسة، ضربت أذنيه أحاديث طرب لها وجدانه، وفرح

لها كيانه. حدثوه عن خلاوي الغبش العرماب بالنيل الأبيض، وفيها خلوة الفقيه العالم محمد أحمد أبوقرين السماني.

السمانية طريقة صوفية كان لاسمها وقع السحر في قلب الزبير، ولم يكن خافياً عليه أن والده سماني وفي للطريقة السمانية، وأن علاقته بمؤسسها الشيخ أحمد الطيب ابن البشير يعرفها القاصي والداني، لذا قرر الزبير أن يضحى سمانيــاً كوالده، ومن شابه أباه فما ظلم. كما كانت روحه تتوق بشكل مستمر لــلاستزادة من العلم وتجويد القرآن الكريم، فأخذ يعد نفسه للهجرة للنيل الأبيض لينخرط هناك طالباً في خلاوي الغبش العرماب.

عندما أكمل عامه الدراسي الثاني، كان قد بلغ التاسعة من عمره وتمسك بدرب الهجرة وهو يفتح بابــاً نحو الصبا، ويتبع هذا النيل الذي بدا له كأفعى أسطوري ضخم لا ذيل له ولا رأس. بدأت رحلة الزبير نحو مبتغاه في مناحي النيل الأبيض، بعدما أغرى رفيقين من أقرانه بالمدرسة لصحبته. كان هنالك حب من نوع آخر يترعرع في نفس الزبير، وهو حب التجارة التي اتخذها فيما بعد مورداً لرزقه، وما فتئت أن حملته نحو المجد، لذا اختار أولًا وهو يغادر الخرطوم أن يشق أسواقها، وشهر ديسمبر من عــام ١٨٤٠م ينفث برده بقوة، وزمهريره يلفح وجوه الصبية الثلاثة بقسوة. نظر الزبير حواليه فبدت له إحدى أسواق المدينة كبيرةً تمور بالقوافل، والمتاجر، ووجوه تتباين سحناتها، أرمن، وهنود، ومصريــون، وأرناؤوط، وأتراك، ويونانيــون، وشركس، وسوادنة، وفرق من الجيش تغدو وتروح. في أرفف المتاجر كان يرى الأقمشة، والخردوات، والخرز، وسن الفيل، وريش النعام، والعطور، واستعاذ بالله وهو يرى بينها خموراً. وعندما حانت منه التفاتة أخرى، رأى بعض الفتيات السود وهن شبه عاريات، يعرضن للبيع في سوق النخاسة، إحداهن بدا عليها سأم من تسربل الضيم في

دمها، وهي تجرجر جسداً أبنوسياً فاتناً مصلوبـاً على شهوة الأحداق وشبق الآهات..يتحسس أصحابها جيوبهم استعداداً للشراء، فأشاح بوجهه بامتعاض وسارع يجد في سيره يتبعه رفيقاه. الزبير منذ أن خُلق إلى أن توفاه الله، لم يكن يخلع ثوب العفة إلا ليلبس ثوب الطهارة، بل حتى عندما زوجه الملك كوريام ابنته ذات السبعة عشر ربيعاً، وكانت حسناء عطوفة متوددة، وزُفـت إليه في كوخه وبقيت معه ثلاثين ليلة، لم يقربها، لأن الزواج لم يتم وفقاً للشريعة الإسلامية.

بعد تلك الرحلة وصل الزبير إلى مقر خلاوي الغبش العرماب وانخرط مع الطلبة، وبدأ ذلك الذهن المتقد في حصد والتهام ما أمامه، حتى أذهل فقهاء تلك الخلاوي وطلابها. لم يمر وقت طويل حتى تفقه الزبير في علوم الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام مالك، وإرشادات الطريقة السمانية، وأعاد حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب بعدة روايات، وصار سميره ومتعلقاً به. في تلك الخلاوي بدأ بدراسة الفقه المالكي ودواوين العشماوية وحواشيها، والعزية وشروحها، ونظم ابن عاشر، ومختصر خليل ابن إسحق الجندي. كما استوعب كل ما ألقي عليه من علوم النحو والصرف والإعراب، وحفظ متون الأجرومية والدرة البهية وشروحها، وقطر الندى وبل الصدى، وألفية ابن مالك. انعكس ما تعلمه الزبير مـن علوم الدين واللغة على واقع حياته، فأصبح ملتزمـاً التعاليم، فاهماً أبعادها ومراميها، مجيداً لاستخدام قواعد لغة الضاد كتابـةً وخطابـةً. وكان المستمعون إليه في ندواته الدينية الراتبة التي أقامها إبان وجوده بقصره بحلوان، يلحظون ذلك بسهولة، لا سيما وبينهم جهابذة العلماء والأدباء. ترك الزبير خلفه خلاوي الغبش بعد أن نهل منها ما نهل، ليعود للجيلي مثوى أحبته، ونبع صباباته، وماضي طفولته. عاد وهو يحمل عقل فقيهٍ، وقلب متدين. عاد بشوق لأقرانه ولربى لهوه البريء، ووجهه تتنازعه موجات الصبا ونذر الرجولة. فرح به شقيقه بطران واحتضنته فاطمة

وعائشة، ونظر إليه والده بفخر. أما شمة التي غاصت أساريرهـــا، وشابت نواصيهـــاَ، قبلته في النحر والخد والحشا.

حلم التجارة ينمو ويتعملق في كيان الزبير، فارتادها ببساطة ضاربـــاً صفحـاً عن رعي أو زراعة، ومع ذلك لم يشأ أن يحبس علمه في صدره ولم يعرض عن كل راغب فيه، فيجلس إليهم ويعينهم على حفظ القرآن الكريم وفهم نصوصه ومعانيه. ورغم إجازته في الطريق السماني إلا أن الزبير لم يقم بدور المشائخ الذين نهلوا من المورد الذي نهل منه، فالقدر كان يهيئ له أن يلعب دوراً آخر.

الفارس في أعماق الزبير يناديه ويهتف إليه هتافـــاً قويـــاً. الفروسية عشق قديم وحلم عزيز منذ زمن الطفولة الباكرة، هؤلاء هم بنو عمومته وأصدقاؤه من شباب الجيلي، يا لهم من آل وأصحاب، التقاهم بالشوق كله، ولاقوه بالتجلة والاحترام، ومن بينهم أقربهم إلى قلبه ابن عمه محمد عبد القادر، ولكنه بزهم في الرياضة ومهارات الجري والسباحة وألعاب القوى الشعبية والقنص والصيد في البراري وفنون الفروسية، سباقاً واستعراضاً، حتى أضحى فارســـاً لا يبارى ولا يجارى، فارســـاً قوي البنية، متحملًا وصابراً ومثابراً. ذلك التفقه وهذه الفروسية جعلت من الزبير فيما بعد رجل حرب وجهاد، وبنى مجد عز مجد دين، وصان المجد بالصم الحداد. قال عن نفسه: كنت رجل حرب وكفاح، وكان الجهاد وحده هو هدفي من العيش، ولقد استغرق هذا الهدف كل وقتي، فلم يترك لي زمانـاً يتيح لي الاستماع إلى أحلام الحالمين وفلسفة المتنبئين، الذين يلتمسون الرزق في الادعاء بأن السماء تتحدث على ألسنتهم، وتأمر عن طريقهم.

(١٢)

قضى الزبير سنوات في الجبلي يتاجر ويترافق مع أقرانه، ويمنـــح علمه وفقهه لمن يريد. وعندما تخطى العشرين بانت وسامته أكثر، وفاضت رجولته ســمتاً ونفســاً. فاز كعادته في أحد سباقات الفروسية التي كانت تقام في المناسبات، فنظر إليه من كان معجباً به وصاح: حدباي يا هو الفارس. منذ تلك اللحظة صار اسم حدباي لقبـاً له، ترافق فيما بعد مع ألقاب كثيرة. حدباي من أحدب، أي المقوس الظهر كناية عن الرجولة. بدا الزبير فارع الطول، رشيق القوام، أسمر البشرة، وسيم وسامة الرجال، وكانت الحرائر العفيفات يعجبن بفروسيته وصفاته النبيلة، ويتحدثن عنه سراً، وكل منهن تتمناه فارساً لأحلامها، وعندما تتواثب حوافر حصانه في طرقات البلدة، أو إذا ما مر بالطريق بقامته المديدة وخطاه المتئدة التي تضرب الأرض ضرباً، تشرئب الأعناق وتتزاحم العيون عليه سراً، وهو يدرك أن هناك عيونـــاً ترصده، وقلوبـاً تهفو إليه. غير أن الزبير ما كان يلقي بالًا لــكل هذا، فقد قرر أن يكمل نصف دينه ويتخذ لنفسه زوجة. قال لوالده رحمة:

- بدور أعرس بت عمي عائشة بت منصور. برقت عينا رحمة بالفرحة ورد على ابنه الزبير قائـلاً:

- منصور ود محمد علي راجلًا بستحق يناسبوه.. وإت يا الزبير كان دقيت باب أي راجل في البلد دي وبتدور تناسبو مافي زولًا بخليك تصد مكسوف، وربنا يتمملك بي خير. يا بنت الملوك تعالي في خبراً زين بدورك تسمعيهو. أسرعت شمة الزوجة الصالحة لتلبي نداء زوجها رحمة، وكان إذا ما ناداها لباءة النداء. كان النداء المقرون بالبشارة يدفعها أكثر إلى حيث زوجها وابنها الزبير، فكادت تتعثر في

مرطها. قالها لها رحمة وشفتاه غارقتان في ابتسامته:

- ولدك الزبير بدور يعرس يا بنت الملوك.

- جيت لي وجيت ليا، أزغرد يا أبو بطران؟

- أصبري شوية يا بنت الملوك، وفي الأول أعرفي الزبير بدور منو.

- ما بسألو، الزبير نجيض.

- الزبير بدور عائشة بت منصور.

- أمانة عائشة ما بت السرور وست البنات لا حدهن.

لم تكن خطبة الزبير لعائشة حدثاً عادياً، إنما كانــت حدثاً فوق العادة، وذاع أمر هذه الخِطبة وبلغ المدى وارتادت أخبارها الجزيرة وكل بقاع الجوار، وعندما بدأت احتفالات الزواج كانت شمة أكثر الناس سعادة، وفاجأت الجميع عندما وضعت في جيدها شفـاً محليـاً بتسع قطع من الذهب، والأذن يتدلى منها نصف هلال ذهبي كبير، ومسيرتان من شعرها تسترسلان، وشعرها الممشوط مع الجورسيه يبدو طويلًا أسوداً يتخفى ويبدو تحت ثوب الزراق، وملأت الأفق زغاريـدَ وأهازيـجَ. بدت تفاصيل هذا الزواج واضحة في ذهن الزبير عندما دارت الأيام دورتها وهو يعاني ويلات النفي بجبل طارق المتاخم للأراضي الإسبانية، وتقوده مشاهده إلى واقعة مؤلمة ومحزنة، فعائشة قد أهدته من الأبناء ثلاثةً، تُـوفي اثنان منهما في صغرهما، وبقـي له منها ابن هو سليمان، ما أن بلغ الخامسة عشر من عمره حتى اصطحبـه معه إلى جنوب السودان، وعجم عوده وخلفه وراءه في الحكم عندما غادر إلى مصر، ولكن الإنجليزي «جسي» أعدمه..! يا لها من ذكرى أليمة في الثلث الأخير من عـام ١٨٥٦م.

(١٣)

ذات عام زواجه من عائشة حدث أمر عجيب غير مجرى حياة الزبير. قال لزوجته عائشة في وقت مبكر من فجر ليلة رافقه فيها الأرق:

- يا بت منصور بدور أمرق.

- الشمس لا هسع ما ورتنا عينها، ولا مرقلها حمار وين بتدور تمش؟

- قلقان على ود عمي محمد.

- محمد جنا عبد القادر؟

- أي ياهو.

- شن خبرو يا حدباي؟

- البارح اتأخر ما بعرفو رجع لي أهلو وللا لسع. كنا رفاقتو منتظرنو ما رجع لينا.

- قول بسم الله يا حدباي محمد شديد ولضيض ما بتجيهو عوجة تب بإذن الله، بس انتظر نسويلك شاي وصلي الفجر بعدين أمرق.

- لا لا، بشرب الشاي وبصلي في بيت ود عمي محمد، كان لقيتو جا راجع، منو بتراوح على السوق أشوف شغلي. وضع الزبير على نفسه جلبابه وكان به القليل من المال، وتوضأ وحرص كعادته أن يضع داخل جيب جلبابه المصحف الشريف الذي لم يكن يفارقه مطلقاً، فقد كان سميره، ثم طلب من زوجته عائشة أن تأتيه بقلمه ودفتره

الورقي الذي كان يسجل عليه حسابات تجارته البسيطة، فقد نوى بعد أن يطمئن على ابن عمه أن يذهب إلى عمله في البيع والشراء. بدأ الزبير يسلك طريقه راجــلاً نحو منزل أسرة عمه عبد القادر حبيب الله منال، بقصد الاطمئنان على صديقه الحبيب. في الطريق أدركه أذان الفجر فأدى صلاته في قارعة الطريق وسأل الله أن يكون محمد بخير. في دواخل الزبير كان هناك شيء مبهم حال دون تفاؤله بالاطمئنان على صديقه محمد، وقفزت إلى ذهنه أقوال كان يرددها له محمد:

- يا الزبير أخوي تراكا ماشي في درب التجارة والفقه وتعليم المحتاجين، وترا ربنا أداك العلم وأنحنا تبعنا أبهاتنا وبهايمنا وبقينا ترابلة ورواعية متلهم، وإت عارف من وكتاً طويل سعيتنا وزراعتنا وخيرنا كلو ماشي للأتراك والمصريين، هلكونا بالضرائب يا الزبير أخوي أتعبونا تعب شديد.

- عاد شن بتدور تسوي يا محمد؟

- أخليلم البلد دي يا الزبير.

- تخليها تمش وين يا محمد أخوي؟

- أرض الله واسعة يا الزبير، امكن ربنا كاتبلي رزقاً في بكاناً تاني.

هذه الأحاديث كانت تختلج في صدر الزبير ولم يتوقف اختلاجها إلا بعد أن وجد نفسه أمام منزل أسرة عمه عبد القادر، الذي استقبله بوجه قلق فأصابه بوخزة حادة:

- عمي إن شاء الله ما في عوجة؟

- كدي خش لا جوه يا ود أخوي رحمة، ثم أخذ يصيح:

- الشاي يا أم محمد لي حدباي ود رحمة.

(١٤)

كان الزبير في ذلك الوقت يتفرس في وجه عمه عبد القادر، وكأنه يبحث فيه عما يطمئنه، وعندما فشل في ذلك أعاد عليه سؤاله السابق:

- إن شاء الله ما في عوجة يا عمي، وأخوي محمد وين؟
- فاقدنو من البارح يا الزبير وأصلو ما انخبرلو بلد.
- وبعد ده بتدوني أشرب الشاي؟، لا لا أنا بمرق.

خرج الزبير من منزل عمه سريعـاً لا يلوى على شيء ولا يأبه لصوت أم محمد وهي تصيح: الشاي جاهز يا الزبير.

بدأ الزبير يجوب أنحاء البلدة بحثـاً عن صديقه محمد ويسأل عنه الجميع، في وقت كانت الشمس قد ألقت بنورها الصباحي على الدنيا، وقبل أن يتملك اليأس قلب الزبير كانت خطاه تقوده نحو النيل، وهناك رأى صبيـاً فسأله عن محمد، ووقعت إجابة الصبي كالصاعقة على رأسه:

- جيت بدري لاعن هنا كت بدور أتفرج على مراكب ود عموري المصري الرسن هنا مغرب أمبارح، والله فيهن جنس خلق وجنس حاجات، ولما خلاس بدورن اتحركن شفتلك محمد ود عبد القادر راكب معاهن كوركتلو: وين ماشي يا محمد، نهرني وقال لي: أسكت يا جنا.

(١٥)

هنا أدرك الزبير أن صديقه وابن عمه قد أبحر متسللًا مع قافلة التاجر المصري المشهور علي ود عموري متجهاً إلى الجنوب، فعاد بقلب حزين إلى منزل عمه عبد القادر وفي كيانه عزم للحاق بمحمد بأي وسيلة وإعادته للجيلي. تحلقت أسرة عبد القادر حول الزبير وهو ينقل لهم خبر محمد، فرأى دموع والدته تجري على خديها وحزنـاً عميقـاً قد بدا على وجه عمه عبد القادر، وبعد صمت قال عبد القادر للزبير:

- خلاس يا الزبير ولدي محمد ضاع، الجنوب ده ما فيهو غير المصايب والكتل، أكان بتقدر ألحقو وجيب ود عمك راجع.

صادف طلب أسرة صديقه محمد عزمـاً نما في كيان الزبير، فرد على عمه قائـلاً:

- أيوه يا عمي بالحيل بلحقو وبجيبو راجع، وما بتأخر بمش أكلم بت منصور وأبوي وبسافر الساعة.

- ربنا يوفقك يا ود أخوي.

(١٦)

الذي حدث بعد ذلك لم يكن في حسبان أحد.. بدأت في حياة الزبير قصة مختلفة ومثيرة غيرت مجرى التاريخ والجغرافية! لم تستبشر السيدة عائشة بنت منصور خيراً وزوجها الزبير يعود للدار مبكراً بوجه يفتقد الابتسامة، وزفرات حرى تنطلق من صدره، فتوجست أن مكروهاً قد حدث. أرادت أن تسأله ولكنه أجهض السؤال في فمها عندما قال لها دون أن يتخذ لنفسه مقعداً:

- محمد أخوي روح..!

- وين قبل يا الزبير نعلو ما غرق في البحر..!

- لا لا سافر مع أبو عموري المصري ركب معاهم في مراكبو المقبلة على الجنوب.

- الجنوب..؟ ووب عليّ..!

- بس أنا حالف أرجعو.

- ووين بتلقاهو؟

- بتعجل وبباري البحر لامن ألم فوقم.

شيء من الخوف والاضطراب أصاب عائشة، وقد رأت عزم السفر يطوف بوجه زوجها، فتحسست بطنها المتكورة وكأنها توحي له بألا يتأخر فابنه في انتظاره. بلسان أغرقه التلعثم قالت له:

- أفكلك ريقك، نسويلك تفطر يا حدباي قبال ما تمش مني.

- لا لا ما عندي نفس بسافر طوالي.

- ودعتك لي أمين الوداعة، وإن شاء الله تجي راجع بالسلامة وتفرح أهل محمد.

الزبير الذي لم يكن لديه زاد أو مال كافٍ لم يعد لعائشة إلا بعد عام ونصف العام وكانت عــودة ظافرة ومدهشــة، فعندما خرج من داره نهاراً لا يحمل سوى دفتراً وقلماً ونسخةً من القرآن الكريم، عاد بمركبين محملتين بالعاج والعرديب والصمغ، وبرفقته مئتان وأربعة عشر شخصــاً، أربعة وستون شمالياً ومئة وخمسون من السود..!

(١٧)

امتدت رحلة الزبير لمدة ثلاثة أيام في عرض النيل يوغل ناحية الجنوب الجغرافي بحثاً عن قافلة ود عموري في عرض النيل والهواجس تقلقه وخوفه على ابن عمه يعصف به. ما كان يريد له مصيراً مأساوياً، فقد يستقر في فك تمساح أو في بطون أكلة لحوم البشر، أو قد تخترق رأسه رصاصة أو يستقر بقلبه سهم. خفق قلب الزبير بشدة وهو على مشارف قرية «ود شلعي النيلية» قرب «الدويم» بالنيل الأبيض، عندما رأى المراكب ترسو هناك، قال لنفسه يرويها بالأمل: لا بد أنها قافلة التاجر علي ود عموري. وصلها بقلبه الذي اشتد خفقانه وأخذ ينظر ويبحث بداخلها، وفرح كثيراً حتى كاد قلبه يسقط تحت قدميه عندما رأى صديقه وابن عمه محمد في المركب الرئيس، فأسرع واعتلاها وطار إلى ابن عمه بالعناق. كادت الدهشة تحيل محمد إلى نثار وهو بين أحضان ابن عمه الزبير، إنه أمر لا يصدق. الشوق والفزع يعتملان في أغواره، فقد أفزعه مجيء الزبير كخوف الزبير من اختفائه المفاجئ. انتابته شكوك عظيمة لا بد أن الزبير وهو يعرفه جيداً من زمن الطفولة قد أتى باحثاً عنه ليعود به إلى الجيلي ليبقى مزارعاً وراعياً للأبد، يسومه الأتراك العذاب. لا لن أعود فأنا الآن حارس التاجر العظيم ود عموري، ملكني بندقية وسيعطيني من المال الكثير. كان كبير القافلة علي ود عموري يشهد وقائع هذا اللقاء الذي أثاره، ولفت انتباهه هذا الحنين وتلك المشاعر الصادقة في الود والإخاء، غير أن مصلحته التجارية وسلامته الشخصية كانت فوق كل شيء، فأضمر في نفسه شيئاً. عندما تخلص الرجلان من المشاعر التي امتلكتهما بعد اللقاء، استطاع محمد أن يتخلص برفق من أحضان الزبير ووضع ذراعه فوق كتفه وسار به ناحية ود عموري وقال:

- ده ود عمي وصديقي الزبير جنا رحمة ود منصور. بتأفــفٍ واضح نظر ود عموري إلى هيئة الزبير البائسة التي زادها بؤسـاً إرهاق السفر والرؤى الآسية. لم يكلف ود عموري نفسه عناء التحية إنما أشاح بوجهه والتفت إلى مكان قصي كأنما يبحث عن شيء أهم. لم يأبه الزبير لهذا التصرف، فهو أصلًا قد جاء ليأخذ ابن عمه ليعود به لأهله ولا مطمع ولا مطمح عنده لدى ود عموري التاجر الشهير الوافد من نجع حمادى، وهي مركز في محافظة قنا بمصر. كان اسمها في العهد البطلمي (خنوبوسكيون)، وتعني أراضٍ تربية الأوز، وتقع على الضفة الغربية للنيل على مسافة ثمانين كيلومتراً شمال غرب الأقصر. ود عموري ليس تاجراً يجوب أعالي البحار ويستحوذ على العاج والعبيد فحسب، إنما كان مغامراً وشجاعاً تزيده هيبة جثته الضخمة وأزياؤه الفخمة وصوته الجهوري ولكنته الصعيدية وأوامره الحازمة والمتصلة. كان يحمل فوق وجهه سمات عربية وتقاطيع صارمة، وتبدو لديه شراهة للمال والاستحواذ والامتلاك. تنعكس شخصيته القوية في أعين رجاله وبحارته وحراسه، غير أن الزبير لم يأبه لكل ذلك، إنما كان له هدف واحد أتى به إلى هنا، هدف لا بد أن يحققه، فالجيلي وكل أهل الجيلي ينتظرون عودته وفي معيته ابن عمه. ترجرج وجه محمد بالحرج وامتلأت نفسه بالأسف، وفكّر أن يتخلص من هذه المشاعر بإكرام ضيفه العزيز، فأخذه إلى ركن من أركان المركب وهناك قال له:

- أغديك سمك يا ود عمي، الظاهر عليك جيعان وشك مختوف.

- الجوع ما بهمني يا محمد، بهمني ترجع معاي لي أهلك، لا أنا لا هم ما بندور تحصلك عوجة. هذا ما كان يحذره محمد، فمنذ أن رأى الزبير أفزعه هذا الهاجس. ما كان يريد لأحد أن يحد من طموحه أو يكبل آماله بإفساد تسلله وابتعاده عن الأهل وأرض الأجداد. اتجه برأسه إلى السماء كأنه يطلب منها أن تعينه على الإجابة. أشعة الشمس

ترسل خيوطاً فاترة في آخر الأصيل، تنبئ عن تثاؤبها ورغبتها في النوم، والمركب يتأرجح في مرساه بلطف المد والجزر، ومحمد تلفه مشاعر لا يعرف لها كنهاً ويقول:

- الزبير أخوي أنا والله مما مسكت البندقية دي المهانة الجواي دي اتفتفتت، وما بدور أشعر بيهـــا تاني، دحين خلني يا الزبير:

- إت يا محمد ماك خابر المحل الماشيلو ده فوقو شنو، محلًا كعب وصعب.

- صعب هو ولا صعب شغل الأتراك ديل، المزارعين مهانين يا الزبير، نحنا لا حكام لا موظفين ولا علماء ولا فقهاء ولا مشايخ، فرد خطوة ونبقى رقيق الناس.. تعبت يا الزبير كتلوهم وخوزقوهم، قطعوا ضكورم والنسوان قطعوا شطورم، في شان كده الناس قامت وزعلت والكتال حصل من زمن جية الناس ديل لا هسع، من زمن رجب ود عدلان والملك نمر.

نظر الزبير إلى ابن عمه محمد نظرة استجداء وهو يقول له:

- كلامك صاح يا محمد، وذكرتني بي عمايل الدفتردار وشن سوى في أهلنا، بس بقولك يا محمد وما تنسى، أنحنا محكومين بي الخلافة الإسلامية، نصلح الكعب، وما نهرب في شان كده أرجع معاي، أهلك راجنك يا محمد وعشمن فوقي كبير ما تخذلني.

- بتعرف يا الزبير مما قمنا ما كسر تلك خاطر، بس المرة دي أعفالي.

نظر إليه الزبير نظرة حادة ورمى عليه أقوى أسلحته:

- ما بخليك تموت براك في الجنوب والصقور ياكلن جدتك يا ود

عمي، وعــليّ بالطلاق وتحرم عــليّ عاشة بت منصور، كما رجعت معاي إلا أسافر معاك.

وقع محمد في حيرة عظيمة، ففي قرارة نفسه لا يود العودة مطلقــاً واكتنفه الأسف العميق أن يكون هو السبب في التفريق بين الزبير وزوجته، خاصة أنه قد أدرك مشاعر ود عموري تجاه الزبير، وربما لا يسمح له بمرافقته. ظلت الحيرة تعتمل في كيان محمد وهو عاجز عن الرد والظلام بدأ يغزو المكان ليظهر في ذات اللحظة ود عموري ويقول:

- محمد شوف شغلك.

لم يرد محمد على ود عموري، إنما نهض وحمل سلاحه وقال للزبير:

- الحليلة دي فيها عشاك يا الزبير، صلي واتعشى ونوم الليلة معانا في المركب، والصباح اتراوح أهلك وطمنن عــليّ.

(١٨)

ذهب الزبير إلى فراش بائس داخل المركب بعد أن صلى العشاء وقرأ قرآنـاً على ضوء القمر، وعندما داعب الوسن عينيه المتعبتين كان الأمل يحدوه بموافقة ابن عمه على العودة معه في الصباح، فهو ينتوي التحدث إليه أكثر لإقناعه بالعودة.

عند الفجر أراد الزبير أن يقوم إلى صلاته، فلاحظ أمراً عجيبـاً ومريبـاً يحدث، تلك الليلة التي قضاها الزبير بمركب ود عموري كانت ليلة قاسية، أفزعه فيها حلم مرعب، محمد ابن عمه وأحب أصدقائه إلى قلبه يسبح بقوة ويطارده تمساح في عرض النيل وهو يصرخ ويستنجد به:

- حصلني يا الزبير أخوي..!

مد له يده وهو داخل المركب وكادت أن تلامسه، فإذا بيد ود عموري تمنعه ومحمد يغيب بصحبة التمساح داخل بقعة حمراء من الدماء.

أعاد له الحلم ذكرى قديمة ومؤلمـة من زمن الطفولة، عندما اختطف ذلك التمساح شاته العزيزة. أفاق من نومه وهو يقول لنفسه: اللهم اجعله خيراً. وقبل أن يعود إلى النوم مرة أخرى رأى ود عموري يبتعد ويلتحم بظلام المركب، غير أن ضوء القمر الآفل أبان له أن ود عموري وقف بهيئته الضخمة ناظراً إليه من بعيد. لم يكن هذا جزءاً من الحلم، ولم يأبه الزبير بتلك النظرة حتى فاجأه ود عموري بالعودة من عمق الظلام قائـلاً له:

- في الصباح خذ ابن عمك واذهب به، إني أسمح له بذلك ما دامت هذه رغبة أهله.

تهلل وجه الزبير بالبشر وعندما غادره ود عموري أغمض عينيه ونام نومـاً عميقـاً لا قلق فيه ولا اضطراب.

(١٩)

ود عموري الذي كان يدير شؤونه داخل المركب وخارجها بقوة وحزم ودقة، كان في تلك الليلة يخطط لتنفيذ ما أضمره في نفسه ما يستلزم تأكده أن الزبير هذا الوافد الغريب على مركبه لا يزال نائماً. منذ أن رآه لأول مرة رأى ذلك البريق في عينيه وأعجب بطول قامته وبجسده القوي الذي لم يستطع جلبابه أن يخفيه. فعزم على ضمه إلى رجاله دون أن يفصح له أو لابن عمه محمد بذلك، فهو يعلم أن الزبير قد جاء معتزماً أخذ محمد والعودة به، وعليه أن يفسد هذا العزم. الزبير المرهق والنشوان عادت له أحلامه الجميلة والساعات تقترب من الفجر، وهي أكثر ساعات الليل إظلاماً. في تلك الساعات وبعد أن اطمأن ود عموري على عودة الزبير للنوم، بدأ يصرف أوامره لحراسه ورجاله من البحارة بالإسراع في تحرير المراكب من مراسيها وإطلاق أشرعتها إيذاناً بالإبحار والسفر تجاه الجنوب. أراد محمد أن يوقظ ابن عمه الزبير ليغادر المركب التي ستتحرك، إلا أن ود عموري منعه بحزم:

- اتركه سنأخذه معنا. أذعن محمد لأمر ود عموري، فأوامر هذا السيد يجب أن تطاع، غير أن محمد لمح في هذه الصحبة حلاً لذلك القسم الغليظ الذي أثقل به الزبير دواخله. إذاً فالزبير إن رافقهم فهو في حل من تطليق زوجته. يا له من مخرج سحري. بدأ الجميع يعملون كخلية النحل، وبدأت القافلة تتحرك ومركب ود عموري تبحر وتوغل في النيل.

ومع الفجر واهتزازات المركب بدأ الزبير يفيق من نومه ليستعد لصلاته، وأخذ ينظر حواليه، فبدا له مع أشعة الشمس الأولى أن

الشاطئيـــن متباعدان، فأدرك أن أمراً عجيباً ومريباً يحدث، فالمركب متحركة وغزته مشاعر المختطف، فاعتملت في دواخله ثورة ذهب بها إلى ود عموري الذي كان محاطاً برجاله وحراسه، فقال له غاضباً:

- ما الذي تفعلونه إلى أين تأخذوني؟

رد عليه ود عموري قائلاً:

- اعلم أنك قد أتيت لتأخذ معك ابن عمك، ولكننا قررنا أن نأخذك معنا، والآن بإمكانك أن تستمتع بصحبتنا وبالرحلة..!

تمنى الزبير في تلك اللحظة لو كان بيده سلاحـــاً ليلقن به هذا المصري ورجاله درســاً لن ينسوه أبداً. عندما أبعد الحراس الزبير عن سيدهم أخذ يعترض ويحتج ويجادل، فلم تجد اعتراضاته أذنـــاً ولم تغـــنِ احتجاجاته ومجادلاته فتيــلاً، وود عموري صاحب السيادة المطلقة على مركبه اكتفى فقط بما قاله للزبير ثم تركه يرغي ويزبد.

(٢٠)

ظلت هذه الحادثة محفورة في عقل ووجدان الزبير، فقد كان قبل ذلك اليوم صعب قياده، غير أن هذه الحادثة التي تمت بغتة فيما يشبه الغدر، اتصلت بعد أعوام طويلة بحادثة مشابهة أحزنته وآلمته في العمق، فبعد ثلاثين عاماً وفي صيف عــام ١٨٨٥م والثورة المهدية تستفحل في السودان، كان يقوم بزيارة إلى مدينة الإسكندرية وحل ضيفاً هو وعائلته على نسيبه الشيخ عمر السنوسي في قصره، وبينما كان يهنأ بتلك الضيافة استأذن أحد الضباط البريطانيين أصحاب القصر ليسمحوا له بالدخول لمقابلة الزبــير، وعندما سمحوا له ضرب الأرض بقدمه وحيا باشا تحية عسكرية ثم قال له:

- يسعدني ويشرفني يا سعادة الباشا أن تقبل دعوتنا لك ولعائلتك الكريمة لتناول الشاي معنا هذا المساء، على سطح السفينة (إنديانا) الراسية الآن بميناء الإسكندرية.

- يسعدني أن ألبي هذه الدعوة الكريمة. انصرف الضابط بعد أن حيا الزبير مرة أخرى.

في الموعد المحدد وصل الزبير باشا بزيه المميز بصحبة عائلته تتبعه حاشيته إلى السفينة، واعتلى ظهرها حيث استقبله مضيفه قبطان السفينة بكل تجلة واحترام، وبدأت أباريق الشاي الفضية تفرغ محتوياتها على الكؤوس الأنيقة، وأحاديث لطيفة تجري على الألسن، وفجأة بدأت السفينة تتحرك، فنظر الزبير باشا إلى قبطان السفينة نظرة وجلة متسائلة، فرد عليه قائــلاً:

- أنت ضيفنا وأسيرنا يا سعادة الباشا، وسنقودك منفياً إلى جبل طارق وفقاً للأوامر الصادرة إلينا..!

فما أشبه الليلة بالبارحة.

(٢١)

لم يكن الزبير– الذي استسلم لقدره داخل المركب – يدري ماذا يريد به هذا المصري الذي يدعى علي ود عموري، وقد بدا يزدريه ويستخف به من جديد. قال الزبير عندما خط مذكراته بعد عقود من الزمان يصف حاله في أيامه الأولى على ظهر مركب ود عموري:

– بدوتُ مسكيناً وفقيراً كالعبد يقاسمني ابن عمي طعامه وموجات من الازدراء والاستخفاف يدفعها نحوي ذلك السيد الآمر الناهي، وينظر إليّ كمجرد راكب غريب في قطاره..! تلك كانت خطة ود عموري التي أضمرها، وهي السيطرة على هذا الشاب القوي والذكي وتسخيره لخدمته ولكن هيهات. الزبير الذي لم يكن لديه سوى قلمه ودفتره ومصحفه الشريف وجلبابه الذي عليه، ولا يستطيع أن يستبدله. أخذ يسجل على دفتره مشاهداته عن المناطق التي تمر عليهم، ويقرأ من مصحفه كثيراً دون أن يفعل شــيئاً خلاف ذلك. أخذ ود عموري يستمرئ الاستهزاء به ويقول له:

– هل معنا في هذا المركب مبشر ديني؟ ألا تجيد فعل أي شيء سوى قراءة القرآن يا رجل؟ يبدو أننا أخطأنا حينما صحبناك معنا، إنك رجل عديم الفائدة. كان حراس ود عموري ورجاله على أتم استعداد لسحق الزبير إن تجرأ ورد رداً خشناً على ود عموري، لذا كان الزبير يصمت ويقول لنفسه:

– إذاً لِمَ أخذتني أيها المعتوه؟

(٢٢)

بدأت الطبيعة تقسو، رياح ومطر وبرق ورعد وأصوات وحوش، وما أن تسكن السماء والأرض حتى تهاجم أسراب البعوض الجميع، ويبدأ الهرش على الجلود حتى تدمي. كانت الوحدة والوحشة تكبلان الزبير داخل مركب ود عموري. إنه سيد لا يعرفه، ولا يعرف ماذا يريد به أو منه. هناك مئة رجل أو أكثر من الحراس والبحارة والعبيد لا يعرف فيهم أحداً. وحدة قاسية ووحشة عظيمة تدفعان إليه في تلك الأجواء القميئة حنيناً جارفاً، وشوقاً صارخاً، وتنقلان إليه وجوهاً طالما أحبها، وجوه أهل كرماء وأحبة أعزاء: أتراك يا عائشة بخير؟ أما زال ابني يرفس جدار بطنك؟ وأنت يا أمي شمة كيف حالك من بعدي؟ عائشة وفاطمة أختاي كيف حالكما وأزواجكما وأبناؤكما؟ أبي أعز أب في الوجود، يا من علمتني ومحوت جهلي، يا من هاجرت من دمك لأجلي، هل لا تزال تقوى على رفع المعول؟ أخي الحبيب بطران أين أنت، ليتك معي الآن لأستقوى بك وبعطفك.

هذه الرؤى كان ينقذه منها دائماً ابن عمه محمد، ويبدد وحدته ووحشته، فعندما تنتهي نوبة حراسته يجالسه ويؤانسه واضعاً بندقيته إلى جواره وتمر الأيام. كل يوم كان أقسى من اليوم الذي ودعوه فيه، حتى مست أنامله ذات نهار بندقية ابن عمه التي كانت تتلألأ تحت أشعة الشمس، فأحس بشيء يغزو كيانه، فسرت فيه قشعريرة انتفض لها كل جسده، أحس بعلاقة معها عنيفة عميقة الأثر، فبدأ يمرر كفه عليها كأنما يغازلها ويلامسها، فكاد يسمع لها صوتاً وغنجاً كغنج أنثى شبقة، فيخفق قلبه وتشب الحرائق في صدره، فنظر إلى ابن عمه محمد بقلبه المستهام وقال له:

- أريد أن أمتلك بندقية.

- السلاح يملكه ود عموري، وهو الذي يسمح به لمن يثق فيه ويعرف كيف يستعمله.

هب الزبير واقفاً واتجه مسرعاً إلى ود عموري، ففاجأه المصري بما لا يحب. كان ود عموري في مقدمة المركب ينفث من غليونه وينظر إلى السماء الصافية ويسرج خيوله نحو أحلامه التي لا تنقطع، في الوقت الذي كان فيه الزبير يشق طريقه نحوه من مؤخرة المركب، وعندما وقع ظله عليه بعد أن أزاح عن طريقه عدداً من الرجال، التفت إليه برأسه ببطء شديد، وعندما أدرك أنه الزبير قال له:

- ماذا تريد أيها العاطل..؟!

ود عموري كان ذكاؤه يخبره دوماً أن في أعماق الزبير طاقة لا حدود لها، ويملك قلباً لا يعرف الخوف إليه سبيلاً، ولا بد من استفزازه ليخرج ما في أعماقه، وعندما رد عليه الزبير قائلاً وهو يكظم غيظاً:

- أريد بندقية.

مد ود عموري غليونه إلى عبد من عبيده ثم التفت بكل هيئته ناحية الزبير وقال:

- بندقية..؟ أتريد أنت بندقية؟ وماذا سيفعل رجل مثلك ببندقية؟

- لديك مائة رجل من الحراس يحملون بنادق، ماذا يضير

لـو صرت مثلهـم؟

صمـت ود عمـوري صمتـاً أقلـق الزبـير، فبـدا كعاشـق أمـام عذولـه، وكان الصمـت يذهـب بـود عمـوري إلى آفـاق التقديـر، ولكنـه سـعد بخاطـره الـذي يـزوره دومـاً ويقـول لـه هـذا الرجـل قـوي وشـجاع وذكـي، ولكنـه اسـتمر في تمنعـه ومكابرتـه، وقـال للزبـير منهيـاً ذلـك الصمـت:

- المركـب بهـا العديـد مـن الأعـمال لـن أجـبرك عـلى فعـل شيء منهـا لأنـك لسـت عبـدي.

وعليـك أن تختـار منهـا مـا يناسـبك إن كنـت ترغـب في أن يتـم توزيـع الطعـام عليـك بانتظـام. قبـل أن يدير الزبـير رأسـه التـي ارتفعـت إليهـا دمـاء الغضـب، نظـر إلى ود عمـوري نظـرة حـادة ثـم سـار عنـه، ومقلتـا ود عمـوري تسـافران خلفـه، فألفتـاه قامـة مديـدة وكتفـان عريضـان ورأس مرفوعـة تحملهـا رقبـة قويـة وقدمـان تضربـان الأرض ضربـاً فصـاح:

- قف يا زبير.

وقـف الزبـير ثـم اسـتدار دون أن يتحـرك، وود عمـوري يقـول لـه: تعا ل .

- ماذا تريد من رجل جائع مثلي..؟!

ابتسم ود عموري وهو يلتفت إلى أقرب مساعديه قائلاً له:

- اعطوا الزبير بندقية وظرفَيْ خرطوش من الذخيرة.

(٢٣)

بـدا الزبـير غـير مصـدق لمـا سـمع، غـير أن كيانـه اعتمـل بمشـاعر لا يعـرف لهـا وصفـاً، إنـما أسـعدته، وظـل واقفـاً مكانـه إلى أن قـذف لـه أحـد العبيـد بـما أمـر بـه سـيده، فوقعـت البندقيـة عـلى صـدره فعانقهـا وضمهـا إليـه وتحسسـها بولـهٍ، وغـادر المـكان مسرعـاً ببندقيتـه إلى مؤخـرة المركـب، وهنـاك جلـس واضعـاً البندقيـة أمامـه ينظـر إليهـا بعينـين مفتوحتـين عـن آخرهمـا، ولم يأبـه لذلـك الصدأ الـذي كان يلفهـا مـن خارجهـا ومـن داخلهـا، فانكـب ينظفهـا لسـاعة مـن الزمـان حتـى صـارت حسـناء بعينـه، وعندمـا وصـل إلى المـكان محمـد ابـن عمـه، ورأى الفرحـة تمـازج وجـه الزبـير، قـال لـه متهلـلاً:

- مبروك يا ود عمي.

- الله يبـارك فيـك يـا محمـد أخـوي. شـارك محمـد الزبـير فرحتـه بالبندقيـة، وأبـدى لـه مشـاعر العـزة والكرامـة والزبـير يقـول لـه:

- الراجـل مـا يكـون أعـزل يـا محمـد في المحـلات الـزي دي، بعديـن أنحنـا لسـع ماشـين لي قـدام، ومـا معـروف البلاقينـا شـنو. لم يعلـق محمـد عـلى قـول الزبـير الـذي لمـح قلقـاً فـوق وجهـه فسـأله: مـا لـك مهمـوم يـا محمـد.

- لا ما في حاجة يا الزبير، امكن التعب بس.

- تعـب شـنو يـا محمـد، المتلـك مـا بعـرف التعـب، وأنـا أخـوك بعرفـك كويـس قـول لي في شـنو؟

- والله يـا الزبـير شـن أقلـك بـس احتجتـا لي لي ريـال زارّني فيهـو واحـد مـن البحـارة ديـل كنـت شـايلو منـو سـلفة، وترانـا لي هسـع ود عمـوري مـا أدانـا شي.

شـعر الزبـير بأسـى لم يشـعر بمثلـه مـن قبـل، فـكل مـا كان لديـه مـن مـال أنفقـه في رحلتـه لـود شـلعي ليلحـق بالقافلـة، فنظـر لمحمـد وقـال لـه:

- والله مـا عنـدي شي يـا محمـد، وجيبـي ده مـا فيهـو غـير مصحفي وخرطوشـتين، وكان المصحـف بتبـاع كنـت ببيعـو والخرطوشـتين عُهـدة وأمانـة.

- ما يهمك يا الزبير أخوي بتتحل بإذن الله.

(٢٤)

ضحك الزبير عندما طافت بذهنه هذه الواقعة بعد سنوات عديدة، عندما تضخمت ثروته واستعصت على التقدير وهو يأمر أحد قواد جيشه بإذابة خمسة وعشرين ألف ريال من الفضة الخالصة ليستعملها في صناعة الرصاص..! فسبحان الله مغيّر الأحوال من حال إلى حال. كعادته فإن ود عموري كان يفاجئ رجاله والكل كان يتوقع أن يكون ود عموري قبالته في أي لحظة، وهذا ما حدث عندما رفع الزبير رأسه حينما كان يقرأ القرآن ليرى أمامه ود عموري بجثته الضخمة وهو يقول له بحزم واحتقار:

- لقد أعطيناك بندقية وخرطوشتين لتقوم بواجبك في الحراسة، لا أن تزجي الوقت في الحديث مع ابن عمك وقراءة القرآن، فيا رجل متى تفهم واجباتك، يبدو أنك لا ترغب في المضي معنا عندما يجد الجد ونبدأ حملتنا التجارية التي تحفها المخاطر، عليه فأنت محكوم عليك بالبقاء هنا بالمركب عندما نصل لوجهتنا، ولن نسمح لك بمصاحبتنا، بل سننزع سلاحك ونسلمه إلى من هو أجدر به منك. الزبير الذي كان لا يزال يشعر بضعف الغريب صمت وأعاد عينيه إلى مصحفه. المركب كانت تسير دون توقف إلا لصيد نهري أو بري أو للتمكن من قطف ثمار الفاكهة في اليابسة، تلك الأرض العذراء الولود.. أشجار الفاكهة كانت تنمو بغير تخطيط، ولا زُراع ولا حراس ولا أحد يحاسب أحداً على القطف.

(٢٥)

بـدأت المركـب في سـيرها تشـق أرض الشـلك والزبـير لا ينـي يسـجل أسـماء المناطـق، كانـت أسـماء غريبـة تـكاد تسـتعصي عـلى التسـجيل والنطـق. الأيـام تمـر وفي كل يـوم كان الزبـير يسـمع إهانة مـن ود عمـوري، إلى أن طفـح كيلـه فوضـع إحـدى خرطوشـتيه داخـل بندقيتـه عازمـاً التحـرك إلى منصـة ود عمـوري، في منصتـه في الجـزء الأمامـي منهـا، عندهـا رأى محمـد حُمـرةً في عينيـه أمسـك بسـاعده وقـال لـه:

- لا لا يـا الزبـير مـا تمـشي ترتكبلـك جنيـة وتضيـع وتضيعنـا معـاك.

- نـان المـصري ده مـا فـات حـدو كتـير، بعديـن إت عـارف أنـا راجـل حافـظ القـرآن وأعـرف أن الله سـبحانه وتعـالى أمرنـا ألا نقتـل النفـس إلا بالحـق، في شـان كـده أنـا بـدور أمشـيلو وأهـددو بي بندقيتـي دي لامـن يقيـف عنـد حـدو.

- لا لا برضـو يـا الزبـير مـا بصـح، أقعـد أقعـد عليـك الله كـما قعدتـا يـا الزبـير. أذعـن الزبـير لطلـب ابـن عمـه وجلـس وهـو متهـدج الأنفـاس. وعندمـا هـدأ بـدأ يسـجل كعادتـه فـوق دفـتره، حيـث رافقـه هـذا التسـجيل منـذ اليـوم الأول حينـما تحركـت بـه هـذه المركـب بغتـة ودون إرادتـه. هـذه منطقـة يقـال لهـا كاكا، وتلـك فشـودة، وهـذا بحـر السـوباط، وذاك بحـر الـزراف، وبحـر الجبـل، الأيـام تمـر والمركـب لا يتوقـف حتـى وصـل بهـم عـبر بحـيرة عظيمـة مترامية الأطـراف لا حـد لهـا، إلى مـكان يقـال لـه

مـشرع الـرق، حيـث رسـت المركـب ومـا كان في بـال الزبـير أن يبقـوا في هـذا المـكان طيلـة أربعـة أشـهر كاملـة، وبعـد أن تحركـوا مـن جديـد بـدأت الأحـداث تتخـذ شـكلاً أكثـر إثـارة وخطـورة.

الفصل الثاني

بلاد النيام نيام ومعركة المدينة الخالية

وأهوال جزيرة بوهول

(١)

أربعـة أشـهر في أجـواء اسـتوائية موحشـة وقاسـية كانـت كفيلـة بنقـل السـأم إلى قلـب الزبـير، ولكنـه اسـتطاع خلالهـا أن يوثـق علاقتـه ببعـض أهـم رجـال ود عمـوري مـن مسـاعديه الذيـن رأوا فيـه مـن الخـلال والصفـات مـا يؤهلـه لنيـل ثقتهـم، وأن يملكـوه بعـض الأسرار التـي كانـت تكتنـف عملهـم في هـذه التجـارة الخطـرة، وهالـه أن يسـمع منهـم أنهـم يحملـون بضائعهـم التـي يرغبـون في حملها مـن السـكان المحليـين عـن طريـق المقايضـة، وإن رفضـوا فإنهـم ينتزعونهـا منهـم قـسراً بقـوة السـلاح. هنـا علـق الزبـير قائـلاً:

- مـا أعلمـه أنكـم تأتـون إلى هنـا تجـاراً، ولكـن عرفـت اليـوم أنكـم غـزاة وظالمـون، ومـا كنـت أراه لديكـم مـن أسـلحة كنـت أظـن أنكـم تحتاجونهـا للدفـاع عـن أنفسـكم وللصيـد ولصـد الحيوانـات المتوحشـة، لا أن تتخذوهـا لظلـم النـاس وأكل أموالهـم بالباطـل، هـذه مخالفـة بينـة لـشرع الله.

في تلـك اللحظـات كانـت تتـلألأ في عينـي إبراهيـم الدنقـلاوي- أحـد مسـاعدي ودعمـوري- نظـرات الإعجـاب بالزبـير وبحسـن رأيـه وتفهمـه لدينـه فقـال لـه:

- أريد منك أن تساعدني على حفظ القرآن الكريم.

- لا مانع يا إبراهيم بل يسرني الأمر يا أخي.

تلـك الجلسـات التـي كانـت تتـم بـين الزبـير وإبراهيـم الدنقـلاوي بغـرض تحفيـظ القـرآن، كانـت تنتهـي بمؤانسـات مهمـة عـرف مـن خلالهـا الزبـير منـه أخبـاراً مثـيرة ووقائـع مهمـة. مـن جديـد بـدأ الإبحـار مـن مـشرع الـرق بعـد تلـك الشـهور التـي عانـى

فيهـا الرجـال قسـوة الطبيعـة، فلسـعات الذبـاب والنامـوس في ذلـك المـكان كانـت فـوق طاقـة الاحتـمال، غـادروا المـكان وتركـوا فيـه محطـة بنـوا فيهـا مخـازن مـن القـش والبـوص، تكدسـت فيهـا البضائـع التـي نجـح ود عمـوري في جلبهـا وجعـل عليهـا حراسـاً مـن رجالـه السـود الأشـداء، غـير أن ود عمـوري كان يريـد المزيـد. بعـد مسـيرة ثمانيـة أيـام وصلـوا إلى بحـر الجـور، حيـث رسـت القافلـة وبـدأ العمـل عـلى إنشـاء محطـة أخـرى بغـرض تخزيـن بضائـع أخـرى فيهـا عندمـا يعـودون إليهـا محملـين بهـا مـن مناطـق قادمـة. اسـتمر سـير القافلـة النهريـة عابـرة مناطـق يقـال لها أموكـوال وأبيـم وأياديـد ولقلـق، والزبـير لا ينـي يسـجل في دفـتره هـذه الأسـماء الغريبـة ويوثـق مشـاهداته بالتعليقـات، وعندمـا وصلـوا منطقـة عفـوف عـلى مقربـة مـن منطقـة يقـال لهـا ماكسـوا، أمـر ود عمـوري أن تتخـذ المراكـب مراسـيها، وأن يتـم إنشـاء معسـكر في هـذه المنطقـة لتنطلـق منـه حمـلات في جلـب البضائـع واقتنـاص العبيـد، غـير أن ود عمـوري لم يكـن يـدري وهـو في هـذه المجاهـل النهريـة الخطـرة والموحشـة أنـه قـد اختـار لمعسـكره المكان الخطـأ.. مكانـاً يعـج بالسـود الأقويـاء الذيـن خـبروا فنـون الحـرب وتعلمـوا كيـف يدافعـون عـن أنفسـهم ودرء خطـورة التجـار الغـزاة، فكـم مـن قافلـة تجاريـة تـم تدميرهـا وقُتـل أفرادهـا هنـا. بـدت الأجـواء في المعسـكر الجديـد هادئـة كالهـدوء الـذي يسـبق العاصفـة، لا يسـمع رجـال ود عمـوري سـوى حفيـف الأشـجار وأصـوات الحيوانـات، يقطفـون الثـمار ويصطـادون الحيوانـات ويشـوونها عـلى مـا يحتطبونـه مـن الجـوار، غـير أن هنـاك أعينـاً كانـت تراقبهـم وتحـصي أعدادهـم.

(٢)

كان المراقبون يسيرون في الظلام تلفهم أوراق الأشجار وجلود الحيوانات، ويحملون سهامهم وفؤوسهم على أيديهم وفوق ظهورهم، وفي قلوبهم كرهٌ وغلٌّ عظيمان، وخوفٌ من هؤلاء الغرباء، إنها زيارات لا يحبونها. بدأ ود عموري يلهب الحماس في رجاله عندما اعتزم بدء حملاته في ذلك المكان، كان في قلبه الكثير من التوق للعاج وريش النعام، إنه توق يدفعه للمغامرة، فهذا مصدر ثرائه وعزته وسطوع نجمه كتاجر كبير. قبل أن تصدر الأوامر للرجال بالتحرك كانوا ينظفون بنادقهم ويحكمون وضع خزائن الرصاص فوق أحزمتهم، والزبير لم يكتفِ بالمشاهدة إنما بدأ يفعل مثلهم، ينظف بندقيته ويتحسس خرطوشتيه، وإحساس المغامر يتملكه، لكنه أُصيب بصدمة عنيفة عندما أمر ود عموري رجاله بالانطلاق لتحقيق حلمه وقال للزبير:

- أنت يا الزبير عليك أن تبقى ضمن آخرين داخل المعسكر.

أحس الزبير بالغُبن والغضب، وقال لود عموري:

- إت شايف فوقي شنو يا ود عموري؟ خواف وللا مرعة؟ أنا لاني خواف لاني مرعة.

ود عموري لا يكرر أوامره أبداً، إنما ينتظر تنفيذها فقط، وعندما بدأ الرجال يتحركون أذعن الزبير للأمر وتخلف مع المتخلفين داخل المعسكر، تصحبه حسرة قاتلة.

بدأ رجال ود عموري يحملون أسلحتهم وبضائعهم من الخرز والسكسك وتلك التي تروق السكان المحليين ليقايضوها بالعاج وريش النعام، وكل ما يُسكت لهفة وشره ود عموري،

وإلا سيأخذونها بقوة السلاح. كان الزبير المتحسر ينظر إليهم، وقبل أن يصدروا أصواتهم التي تنم عن القوة والاستعداد، كان الزبير يمسك بكفي صديقيه إبراهيم الدنقلاوي وابن عمه محمد عبد القادر، ويقول لهما:

- كت بدور أمشي معاكم عل المصري ده حماني، بس قبال ما أودعكم بقولكم اتقوا الله وما تاذوا المساكين ديل وما تاخدوا حقهم بالقوة.

- إن شاء الله يا الزبير وودعناك الله.

- مع السلامة وإن شاء الله تجوا حازمنها بي الحلال.

(٣)

بـدأ الرجـال بقيـادة ود عمـوري يبتعـدون ويزمجـرون والزبـير ينظـر إليهـم والحريـق في كيانـه يـكاد يقـضي عليـه، وعندمـا اختفـت الأجسـاد في الأفـق وخفتـت أصواتهـم ثـم تلاشـت عـاد الزبـير إلى داخـل المعسـكر متخـذاً لـه مـن صخـرة صغـيرة مقعـداً مسـنداً بندقيتـه مـا بـين الأرض وذقنـه، واسـتغرق في تفكـير عميـق.
لم يمـضِ الزبـير عـلى هـذه الحالـة وقتـاً طويـلاً، ونهـض يتفقـد المعسـكر ومـن فيـه، وأغضبـه أن يكـون ماكثـاً بـين هـؤلاء العبيـد وبعـض الضعفـاء مـن رجـال ود عمـوري، وبحارتـه الذيـن كانـوا لا يعملـون شـيئاً سـوى الاحتطـاب والصيـد والقطـف والطبـخ والاعتنـاء بالمراكـب الراسـية وإعـداد وتنظيـف أماكـن الراحـة لسـيدهم وقـواده ومسـاعديه مـن تلـك العفونـة التـي تزكـم الأنـوف في ذلـك المعسـكر.
في ذلـك الصبـاح الـذي غـادر فيـه رجـال ود عمـوري المدججـون بالأسـلحة الناريـة، أشرقـت شـمس اليـوم عـلى سـماء صافيـة وهـواء معتـدل، لا ينبئـان عـن تلـك الأحـداث الدمويـة التـي وقعـت فيـه. كلـما انتابـت الهواجـس وذكريـات الأحبـة الزبـير، يهـرع إلى مصحفـه ولا يتركـه إلا لصـلاة أو أمـر مهـم، رغـم أن ود عمـوري كان يقـول لـه دائـماً تلـك الكلـمات عامـداً حشـدها بمعـاني الاسـتفزاز والإهانـة:
- أي فائدة نرجوها من قسيس مثلك.
- أنـا فقيـه ولسـت بقسـيس، ومـن يـردِ الله بـه خـيراً يفقهـه في الديـن، وهـذا حديـث رسـول الله إن كنـت لا تعلـم.
سـمع الزبـير صـوت طلقـات ناريـة وأصـوات ترتفـع مـن بعيـد، فقبـل مصحفـه ونهـض إلى خـارج المعسـكر. كانـت هنالـك ظـلال

من السماء تسقط عليه وتغطيه. كان يظن أنها سحب سوداء غطت الشمس في يوم غير خريفي، وعندما رفع عينيه نحو السماء رأى أسراباً من الصقور السوداء تحلق والشمس تختفي من خلفها، ثم أخذت هذه الصقور تهبط ثلة ثلة بسرعة وعنف، وما درى الزبير أنها إنما هبطت لتنقض على تلك الجثث الكثيرة التي قتل السود أصحابها من رجال ود عموري، وتتلقف عيونها ولحم أطرافها وتتوغل إلى أكبادها، فتحمل على مخالبها غنائمَ تسيل منها الدماء. وعندما سقطت أمامه نقاط من الدم كقطرات من المطر، عاد للمعسكر وحمل بندقيته وأخذ ينتظر، ولم يطل انتظاره حتى رأى نحو خمسة عشر رجلاً من رجال ود عموري هاربين إلى المعسكر وخلفهم عدد كبير من السود يلاحقونهم ويناوشونهم بالرماح، فيتساقطون ويتحشرجون. مشاهد الهزيمة والموت أسقطت على الزبير أسًى وحزناً، وأخرجت من كيانه قوةً وعزماً، وعندما اقترب السود المنتصرون أكثر من المعسكر وهم يلاحقون رجال ود عموري المدججين بالأسلحة النارية، وقف مكانه كأنما يقف على جفن الردى وهو نائم، مُحكماً قبضته على بندقيته التي صوبها نحو كبير السود الذي كان زعيمهم وقائدهم، فأصاب بإحدى خرطوشتيه رأسه فسقط يتخبط في دمائه، هي ذات اللحظة التي تعثر فيها ود عموري وسقط، ليسرع نحوه أحد السود بمدية حادة طويلة ويمسك بذقنه ويرفع رأسه ويضع المدية على خناقه تمهيداً لذبحه، فإذا بخرطوشة الزبير الثانية تستقر في ظهر ذلك المقاتل الشرس، وترتخي قبضته من ذقن ود عموري الذي نهض بجسده الضخم وهو غير مصدق لهذه النجاة، بعد أن ظن أنه ملاقٍ حتفه. عندما التفت رأى ابتسامة فوق وجه الزبير، فبادله بأخرى أكثر إشراقاً. لم تكن بندقية الزبير

تصلح بعد ذلك لشيء، والسود يقتربون أكثر، فأسرع نحو بعض البنادق المعبأة والساقطة إلى جوار بعض جثث رجال ود عموري، فعمد إليها واستطاع عن طريق طلقات نيرانها السريعة أن يعمل في الأعداء قتلاً وفزعاً بعد أن أردى زعيمهم قتيلاً، فانقلبت دفة المعركة رأساً على عقب، وبدأ الصمود يغزو كيان ما تبقى من رجال ود عموري بعد استشعارهم لذلك الدعم من الزبير الذي تحرك مرة أخرى في مقدمتهم، مطارداً السود الذين توخوا الهرب بجحافل مدحورة وأعقاب خاسرة، وبذلك استحالت الهزيمة إلى نصر مبين. ومن بعد بدأ الزبير يتفقد الجرحى وجثث الموتى.

(٤)

أسـقط الزبـير دمعتـين وهـو يـرى بـين الجثـث جثـة صديقـه إبراهيـم الدنقـلاوي قبـل أن ينـزع منهـا السـهم الـذي تـم غرسـه بقـوة في ظهـره، وقبـل أن تبـدأ مراسـم دفـن القتـلى التـي أصر فيهـا الزبـير أن تقـام فيهـا صـلاة الجنـازة عـلى القتـلى المسـلمين، وأمهـم في ذلـك. ليبـدأ تقليـداً لم يكـن متبعـاً مـن قبـل في تلـك الأحـراش.
كان الزبـير مهمومـاً بابـن عمـه محمـد عبـد القـادر، فهـو ليـس بـين القتـلى ولا بـين الجرحـى، ولمـا علـم مـن الرجـال الأحيـاء أن السـود أسروه ضمـن آخريـن، قـام بخلـع ملابسـه واسـتبدلها بملابـس أحـد القتـلى، فقـد كانـت تشـبه ملابـس الجنـود، وحمـل بندقيتـه وطلـب مـن بعـض الرجـال أن يتبعـوه للبحـث عـن ابـن عمـه الأسـير.
كانـت رحلـة بحـث شـاقة وخطـيرة تخطـى فيهـا الزبـير وسريتـه غابـات ومسـتنقعات وأدغـال، تعرضـوا فيهـا لهجـمات مـن حيوانـات متوحشـة، وأخـيراً توصلـوا إلى الموقـع الـذي كان معتقلاً فيـه محمـد عبـد القـادر والآخـرون مـن رجـال ود عمـوري. مـا أن رأى السـود الزبـير ورجالـه حتـى لاذوا بالفـرار تاركـين خلفهـم الأسرى. فتـم تحريرهـم وعـاد بهـم الزبـير للمعسـكر وسـط هتافـات قويـة وأهازيـج طروبـة، يقودهـا ود عمـوري نفسـه.أعلن هـذا الاسـتقبال الرائـع بدايـة لسـطوع نجـم قائـد فريـد ينظـر إليـه الجميـع بنظـرات إعجـاب لا حـدود لـه.

(٥)

الاستقبال دفع بالغبطة والسرور وأسباب الفخر والعزة إلى نفس محمد عبد القادر الأسير المحرر، وقال لابن عمه الزبير والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- ديل يا الزبير ما بعرفوك، والما بعرفك بجهلك، بعرفوك الناس الزينا ديل، الناس الربو معاك وشافوك واتأكدوا من رجالتك وفروسيتك وفقهك وعلمك وإنسانيتك وشطارتك، بس من هنا ولا قدام بعرفوك يا خوي، وبدوك مكانتك.

كان لا بُدَّ أن تتبدل الأحوال، وتتحقق رؤية محمد عبد القادر، كان لا بُدَّ أن تتغير نظرة ود عموري، وكان لابُدَّ أن يترك مكابرته. كل هذا حدث بالفعل وود عموري يقترب من الزبير، اقترب منه وهو يتحسس رقبته التي كانت موضعاً لتلك المدية، وكأنه يمتن له بإنقاذه لحياته، وكأنه يقدم ندماً وأسفاً على ما فات، قال له:

- من الليلة يا شيخ الزبير أنت مساعدي وستخصص لك خيمة داخل هذا المعسكر، ستصلك فيها ملابس جديدة وستصلك فيها كل المؤن، من لبن وبلح وخبز وسلاح وكل ما تطلبه، وكل ما تحتاج إليه، ولا تعتب عليَّ فيما سبق: نحنا ولاد النهار ده..!

كانت هذه هي المرة الأولى التي يسبق فيها لقب شيخ مناداة ود عموري للزبير، وما أفاد به ود عموري كان ينم عن حب واحترام وتجلة، وكان إيذاناً ببداية معاملة مختلفة تحل مكان الاستخفاف والاحتقار والازدراء. لما كان الزبير يحمل قلباً نبيلاً لا يمل الغفران، قال له:

- بقولوا يا ود عموري المسامح كريم، في شان كدا أنا مسامحك وبتعاون معاك بس عندي شروط.

- أشرط يا شيخ الزبير..!
- في الأول طريقة التجارة دي لازم تتغير، التجارة أصلها التراضي، التجارة لا هي عنف ولا حرب، وتاني أنا بشوف قبال كل شيء الأهالي الكاتلوك ديل نشوف زول بفهم لغتهم ونرسلوا ليهم عشان يقنعهم بأننا قد أتينا تجاراً لا غزاةً، ولا محاربين ولا ظالمين. صمت ود عموري وبدأ يفكر وهو يقول لنفسه:
- أيريد هذا الرجل أن يغير طريقتنا في التجارة؟ نحن نجوب هذه المناطق منذ سنين، وهذه هي الطريقة التي نعرفها. ظل التجار قبل ظهور الزبير بينهم يستكشفون المناطق المجهولة ببعث سراياهم ليتوغلوا فيها مخترقين قبائل غير معروفة، ويتعاملون مع أهلها بخشونة وقسوة وغلظة، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن يصبح الأهالي معادين لهم، وأن تكابد تلك السرايا والحملات الصغيرة كثيراً، وأن تلقى عنتاً كبيراً، وتفقد من أفرادها الكثيرين. عندما رأى الزبير من ود عموري صمتاً، قال له:
- أعرف فيما تفكر، ولكن فكر في قولي هذا، علينا أن نقول عن طريق رسولنا الترجمان إلى الأهالي الذين قاتلونا وقاتلناهم: هلموا إلينا تعالوا لنا لنصبح أصدقاء، سندفع لكم خمس وعشرين ودعة، ديةً عن كل قتيل من قتلاكم، سنعطي خواتم نحاسية للأحياء منكم. بعد تفكير عميق وافق ود عموري على ما قاله الزبير، وكم كانت دهشته عظيمة عندما عاد الترجمان وفي معيته كبار أهالي المنطقة، وبعدما تسلموا الديات والهدايا وافقوا على أن يجلبوا لهم العاج وريش النعام، وأن تكتمل بينهم الصفقات عن طريق المقايضة. هذا المنوال من السياسة لازم الزبير، فعندما غاب ود عموري بدأ الزبير يمارس سياسة

السلم متنقلاً بين بلاد الإقليم، مكوناً صداقات كثيرة مع الأهالي والسكان الأصليين، متعرفاً على طبائعهم وعاداتهم، ومتعلماً لبعض لهجاتهم. لما رأى ود عموري في الزبير رجاحة عقله وحكمته، قال له:
- ألديك أي شروط أو رؤى أخرى؟
كان الزبير يرى أن السكان المحليين يعتورهم الضعف الشديد ومتحفزون للشر بلا داع أو سبب، وقد يفقد ود عموري رجاله وحراسه في أي وقّت، لذا رد عليه قائلاً:
- لا بُدَّ من النظام العسكري للرجال حتى لا يستهان بهم، ولا بُدَّ أن يسود السلم، وأن تتوخى العدل بالسداد الفوري والناجز لأثمان البضائع التي تجلبها من السكان المحليين.
- قل المزيد يا شيخ الزبير، أريد أن أسمع كل حكمة تتمتع بها.
- لا تسمح بقيام أية حملات أو سرايا غير نظامية، ويجب أن تكون قوتها كبيرة لا تقل عن عشرين رجلاً، ومن المهم جداً الحرص على كسب ثقة الوطنيين المحليين بالتودد لهم، وعدم أخذ أي شيء منهم قسراً وعنوةً، ولكن عليك أن تكون دائماً حذراً وعلى أهبة الاستعداد لمقاومة أي تعدٍّ عليك، ومواجهة أي عدوان ورده، وألا تعمد إلى أي هجوم أو غزو مطلق. عندما بدأ اجتماع الزبير بود عموري لم يكن هناك أحد معهما، ولكن سرعان ما تحلق الرجال حولهما يسمعون من الزبير ويشاهدون إطراقات ود عموري ويتملكهم الإعجاب والعجب. فجأةً نهض ود عموري وقبل أن يغادر المكان قال:
- يا شيخ الزبير قم بترتيب الأمور وفق ما تراه وتهوى، وهؤلاء رجالك تولى زمام أمرهم. خطوات ود عموري المبتعدة كانت تتبعها أصوات قوية ومزمجرة، أعلاها كان صوت ابن عمه محمد عبد القادر:
- نحنا رجالك يا الزبير، نحنا رجالك يا الزبير.

(٦)

شعر الزبير شعوراً حقيقياً بالسلطة، فقد تنسمها في ذات اللحظة التي فوضه فيها ود عموري بترتيب الأمور وقيادة رجاله، فرأى هيبته في أعينهم وفي ذلك الاحترام العميق الذي بدأوا يعاملونه به، وعندما استقر له الأمر تماماً داخل المعسكر، بدأ الزبير في تطبيق رؤاه وسياسته التي قال بها لود عموري، غير أن الزبير أراد أن تكون بدايته بإخراج ذلك المخزون الذي تنزل في كيانه وعقله من وقائع المعارك التاريخية التي خاضتها قبيلة الجميعاب التي أخذ صورها الحربية من شعر أجداده ونثرهم ومشافهاتهم، وما كان يقرأه دوماً عن أخبار الغزوات والسرايا الإسلامية، كان ذلك أمراً كالحلم، ولكن لا بُدَّ من تحقيقه، فجمع الرجال وخاطبهم قائلاً:

- إن كان الحق معنا فلن يعرف الخوف طريقاً لقلوبنا، وإن كانت قلوبنا مليئة بالإيمان فلن نخشى إلا الله، لقد أوشكت أن تلحق بكم هزيمة نكراء رغم أنكم تمتلكون أسلحة نارية، لأن الحق لم يكن بجانبكم، وأن قلوبكم تفتقر للإيمان، ويجب أن تعلموا من اليوم وصاعداً أننا قد أتينا إلى هنا لا لنقتل أحداً، ولا لنستعبد أحداً، أتينا من أجل التجارة مع أناس لا نعرف لغتهم ولا يعرفون طبيعتنا، ولا من أجل ماذا أتينا، كل ما يعرفون أننا قد أتينا لنهب ثرواتهم واقتناص رجالهم، وعلينا أن نستبدل هذه المفاهيم على أسس العدل والسلام، وأنا على يقين أن بوسع أي شخص أن يتاجر معهم إذا ما توجه إليهم بالموادعة والمسالمة بدلاً من اللجوء إلى فوهة بندقيته. تبدد الهدوء بتصفيق حاد من رجال الزبير، فأحاله ذلك الصخب للصمت، وكان لحديثه بقية، وعندما رفع يده عاد الهدوء

وسكن المكان فقال:
- ما قلته لا يعني أننا لن نذهب إليهم، بل سنذهب إليهم وسنكتشف المكان من حولنا، ولن نقف هنا بل سنتوغل أكثر حتى نضمن إحرازنا للبضائع التي نرغب فيها، سنوضح لهم بهدوء هدفنا ونبسط لهم نوايانا، ولن نبدأ معهم بالشر أبداً، سنقول لهم مثلاً: جئنا لبلادكم تجاراً وليس في نيتنا أن نسلب منكم شيئاً، وكل ما يجري بيننا سيحكمه الاتفاق العادل، نحن مثلكم نمتلك ثروات وبضائع، وما لا نحتاجه تحتاجونه، وبالعكس. مثلاً نحن نملك الخرز خذوه وأعطونا بدلاً منه سن فيل، عندها سيفهمون أن الأمر في مصلحتهم وفي مصلحتنا، ويجب أن يكون التعامل بالحسنى، وأن ندفع لهم ما نعدهم به، عندها سيحضرون لنا كل ما لديهم من الريش والعاج أو الصمغ أو الجلود، ولكننا لو ذهبنا إليهم بغطرسة وبصلف وعنجهية محاولين إخضاعهم باستعمال القوة، فإنهم سيلجأون إلى رماحهم وإلى حرابهم، وقد نفقد وقتها أرواحنا أو نخسر تجارتنا. سكت الزبير لبرهة، فرفع أحد الرجال يده مستأذناً لسؤال قائلاً:
- سيدي الزبير لدينا في معسكرنا وفي مراكبنا بضائع وضعنا مثلها خلفنا في مخازننا، أي نحن أصحاب مال فقد نتعرض لهجمات من الأهالي بغرض سلبها، أليس من الأجدر أن نهاجمهم نحن أولاً حتى نضعفهم، فلا يقوون على مهاجمتنا.
اعتلت وجه الزبير سحابة من الضيق، فرد على الرجل قائلاً:
- اجلس يا رجل ولا تكرر مثل هذا الحديث، نحن لن نهاجم أحداً، ومن يأتي إلى مثل هذه الأدغال يجب أن يعلم أنه يركب المخاطر، عليه أن يعي أنه وسط غابات كثيفة وموحشة تقل فيها الطرق وتتعرج في مسالك لا يعرفها إلا أهلها، عليه يجب

أن نكـون مسـتعدين للدفـاع عـن أنفسـنا، الدفـاع عـن أنفسـنا ضـد الحيوانـات المتوحشـة وضـد الهجـمات المعتديـة، وحتـى عندمـا نذهـب إليهـم يجـب أن يلازمنـا هـذا الاسـتعداد، ويجـب أن يكـون اسـتعدادنا اسـتعداداً عسـكرياً، فالعشـوائية المنتظمـة فيكـم يجـب أن تـزول، فالكثـير منكـم لا يعـرف كيـف يسـتعمل السـلاح النـاري الـذي يحملـه، ولا يجيـد التصويـب بـه، وحمـل السـلاح والذهـاب في الحمـلات التجاريـة يحتاجـان للقـوة والتدريـب، وهـذا مـا سـأبدأ بـه، سـأدربكم تدريبـاً قاسـياً، وأعلمكـم كيـف تسـتعملون السـلاح بطريقـة صائبـة، وسـأقود بنفـسي سراياكـم وحملاتكـم. الأمـر الثـاني والأهـم أن تلتفتـوا لدينكـم وتكرسـوا إيمانكـم بالصـلاة والعبـادة، ومـن هنـا فإننـي أدعـو مـن كان بينكـم ويديـن بغـير الإسـلام أن يدخـل في الإسـلام، لأنـه ديـن الحـق، ويـا أخـي محمـد مـن يقبـل دعـوتي هـذه عليـك أن تعلمـه أركان الإسـلام، وتحفظـه مـا يتيسر مـن القـرآن الكريـم، وهـذه الدعـوة لا تُنفـذ جـبراً إنـما طواعيـةً. هنـا صـاح محمـد:

- الله أكـبر، الله أكـبر، العـزة للإسـلام وصـلى الله عـلى نبينـا محمـد.

الطـير والوحـوش والأشـجار والغابـات والأنهـار في ذلـك المـكان لم تسـمع صيحـة مماثلـة مـن قبل. بـدأ الزبـير عملـه بجديـة في التدريـب الريـاضي لرجالـه الذيـن سـعدوا بعدلـه وهـو يرغـم ود عمـوري فيدفـع لهـم بسـخاء، فأغـرى ذلـك كثـيراً مـن الـلا دينيـين والوثنيـين مـن رجـال ود عمـوري السـود، أن يقبلـوا دعـوة الزبـير للدخـول في الإسـلام، فقـد اعتـبروه قائـداً وقـدوةً ومقدامـاً، خاصـة أنـه اسـتطاع أن يـرد ببسـالة عـلى كل معتـدٍ أثيـم، وكل لص فاجـر.

(٧)

كانـت شـجاعة وإقـدام الزبـير تـسري في كيـان رجالـه، ويقـود السرايـا والحمـلات التجاريـة حازمـاً ومودعـاً ولم يعمـد إلى شـن هجـوم عـلى أحـد، وارتـاد المناطـق واكتشـفها فـذاع صيتـه، فقصده الأهـالي مـن كل حـدب وصـوب يعرضـون عليـه بضائعهـم ليبيعوهـا لهيأتـون إليـه آمنـين ويعـودون منـه سـعداء، ولم يمـضِ وقـت طويـل حتـى أحـب الأهـالي الزبـير وبـدأت القبائـل تطلـق اسـمه عـلى مواليدهـا، ويذهـب إليهـم قويـاً ومسـالماً، ويعـود منهـم ظافـراً، ورغـم جهلهـم وبدائيتهـم، فقـد قـال عنهـم الزبـير إنهـم يفرقـون بـين الصـدق والكـذب، وبـين الخطـأ والصـواب. ونتيجـة لذلـك كانـت مكانتـه ترتفـع لـدى ود عمـوري يومـاً بعـد يـوم، وبعـد خمسـة أشـهر فاجـأه ود عمـوري بقولـه:

- أنـا سـعيد بهـذا النجـاح الـذي مـا كان ليتحقـق لـولا حسـن تدبـرك ومحبـة السـكان المحليـين لـك، كنـا نفتقـد هـذه المحبـة فمن قبـل كنـا نقابـل بالكراهيـة، وعندمـا كنـا نذهـب إليهـم كنـا نحمـل رؤوسـنا فـوق أكفنـا، فشـكراً لـك عـلى كل هـذا، وعلى بسـالتك في الدفـاع عـن بضائعـي وأمـوالي، أنـت الآن رجـلي القـوي وسـاعدي الأيمـن، ولكنـي أريـد أن أكافئـك عـلى كل ذلـك، فأنـا الآن أسـمح لـك أن تكـون شريكـي، لـك النصـف ولي النصـف فيـما نربـح. كان العـرض مغريـاً وغـير متوقـع مـن تاجـر كبـير مثـل ود عمـوري، لرجـل مثـل الزبـير الـذي لم يكـن يسـاوي الكثـير في نظـره قبـل خمسـة أشـهر فقـط، فبـدأ الزبـير يفكـر فيـه بعمـق والـرؤى تنتابـه: إلى متـى سـأظل في هـذا المـكان بعيـداً عـن الأهـل والأحبـة الذيـن فارقتهـم لإعـادة ابـن عمـي، متحمـلاً في ذلـك رهـق البحـث والسـفر، ولم أعـد إليهـم، ومـا رغبـت في العـودة إليهـم إلا وكـف

ابـن عمـي فـوق كفـي حتـى أخـذني الطوفـان عـلى حـين غـرة، ووجـدت نفـسي بـين أمـواج الإهانـة ولطـمات الاسـتفزاز وطبيعـة مـا أقسـاها، أنـا لا أرغـب أن أبقـى كثـيراً في هـذا المـكان، يجـب أن أعـود بابـن عمـي، يجـب أن أفي بوعـدي، أريـد أن أرى مولـودي، لا بـد أنـه قـد ولـد في غيـابي، وإن شـاءت الأقـدار لأبقـى هنـا فلـن أربـط مصـيري بـود عمـوري، أنـا الآن أعلم منـه بدروب وشـعاب هـذه المنطقـة، النـاس هنـا أحبتنـي إن بقيـت سـأعمل لحسـابي وليـس لحسـاب غـيري، ولا شريـكاً لأحـد. بعدهـا رد الزبـير عـلى ود عمـوري رداً لم يكـن يتوقعـه، كان رداً كالصفعـة:

- لا أقبـل أن أكـون شريـكاً لـك، ولـن أحبـس نفـسي معـك، أريـد أن أعـود لأهـلي أو أن آكل مـن خشـخاش هـذه الأرض..!

نظـر إليـه ود عمـوري ودهشـة تتملـك كيانـه ووجهـه وهـو يقـول لـه: عـرضي هـذا يـا شـيخ الزبـير لا يرفضـه إلا مجنـون. قبـل أن تغـادر خطـى الزبـير المـكان، حطـت ابتسـامة هازئـة عـلى وجهـه وهـو يـرد عـلى ود عمـوري قائـلاً: إننـي نفسـه ذلـك المجنـون..!

عندمـا تركـه الزبـير بـدأ ود عمـوري يفكـر واضعـاً رأسـه بـين كفيـه ويقـول لنفسـه:

- ليـس مـن المعقـول أن يرفـض الزبـير عرضـاً كالـذي تقدمـت بـه إليـه، أكـبر التجـار في المنطقـة يحلمـون بمشـاركتي فـما بـال هـذا الرجـل؟ هـل بالفعـل يريـد العـودة إلى أهلـه، أم أن طموحـه تزايـد ويرغـب أن يستقل بنفسـه ويصبـح مثـلي تاجـراً عظيـماً. لـن أتركـه، لـن أتـرك رجـلاً مثلـه يفلـت منـي، سأسـتبقيه معـي مهـما كلفنـي الأمـر إغـراءً أو اسـتجداءً.

(٨)

هــذه الخواطــر ســاقت ود عمــوري للبحــث عــن الزبــير داخــل المعسـكر، فألفـاه داخـل خيمتـه يمسـك بدفـتره يقـرأ منـه ويكتـب فيـه، فأحـس كـم هـو دقيـق ومنظـم هـذا الرجـل، قـال لـه:

- ألم تعدل من رأيك وتقبل بمشاركتي يا شيخ الزبير؟

- بكل أسف لا يا ود عموري.

- سأعطيك ما تريد وأقبل ما تمليه عليَّ من شروط.

- أشـكرك يـا ود عمـوري عـلى هـذه الأريحيـة، ولكنـي أحسُّ بـأني لم أُخلـق لأكـون تاجـراً مشـاركاً، المشـاركة قيـد لا أقبلـه، نحـن بدويـون نحـب الانطـلاق ولا نحـب القيـود، أرجـو أن تفهـم هـذا يـا صديقـي.

- إذن أخرجني من ورطتي.

- أي ورطة تلك التي وجدت نفسك فيها؟

- أريـد العـودة بـما أحرزتـه مـن بضائـع لتصريفهـا في الخرطـوم ثـم العـودة مـرة أخـرى في غضـون أربعـة أشـهر، ولا أرغـب في تـرك محطتـي ومخـازني خلفـي دون أن أجعـل عليهـا رجـلاً أمينـاً مثلـك، لم أعـد أثـق في غـيرك. التوتـر والقلـق بـدآ يطـاردان ود عمـوري عـلى إثـر ذلـك الصمـت الـذي بـدا عـلى وجـه الزبـير، كان صمتـاً لا يوحـي بـشيء، فقـال والمطـاردة ترهقـه وتلـف كلماتـه بآهـات وتنهـدات:

- أهـا يـا شـيخ الزبـير قـول لي، هـل تقبـل أن تبقـى هنـا مـن بعــدي؟

لم يتلـقَ ود عمـوري رداً مـن الزبـير سـوى الصمـت، فاسـتطرد قائـلاً:

- فقـط أربعـة أشـهر وسـأعود، سـأنقدك عنهـا مقدمـاً مبلغ سـتمئة

جنيـه، تكـون بعدهـا حـراً تذهـب حيثـما تريد.
أحـسَّ ود عمـوري بـأن الزبـير يرغـب في الـرد عليـه، فتهيـأ بقلـب خافـق للسـماع وأخـذ الزبـير يقـول لـه:
- مـا كنـت سـأقبل أن أبقـى خلفـك مشرفـاً عـلى محطتـك، إلا بعـد شـعوري بحاجتـك لي، وليـس مـن اللائـق أن أخذلـك ولكـن بعـد عودتـك تهيـأ لوداعـي.
- أنا عاجز عن شكرك يا صديقي.
- لا تشـكرني عـلى واجـب حتمـه عـليَّ نجـدة صديـق، ولكـن هنـاك المزيـد الـذي أود أن أحدثـك بـه.
- تفضل يا شيخ الزبير تفضل.
- عرضـك لا يغرينـي بالبقـاء، يجـب أن تضاعـف مـا سـتدفعه لي كـما يجـب أن تعلـم بـأن سـيكون لي عُـشر مـا سـأحرزه لـك مـن بضائـع في غيابـك.
- عـدل هـذا، عـدل يـا صديقـي، أنـا أوافـق عـلى كل مـا قلتـه لي، والآن سـيصلك مبلـغ ألـف ومئتـي جنيـه.
- إذاً تهيأ للسفر وتأكد أنك استأجرت القوي الأمين.
نهـض ود عمـوري ونهـض الزبـير وتعانـق الرجـلان عناقـاً كأنـه توقيـع عـلى عهـد وعقـد بينهـما. بـدأ العبيـد ومسـاعدو ورجـال ود عمـوري في رفـع البضائـع إلى المراكـب مـن بينهـا العـاج، أو مـا يسـمونه بالذهـب الأبيـض، وقبـل أن تحـرر المراكـب مـن مراسـيها وتفـرد أشرعتهـا كان الزبـير وابـن عمـه محمـد عبـد القـادر ومعهـما نحـو سـتة وثلاثـين رجـلاً ممـن تركهـم خلفـه ود عمـوري مـن رجالـه مـع الزبـير، يلوحـون بأكـف الـوداع، ثـم أبحـرت المراكـب ورويـداً رويـداً اختفـت في الأفـق، لتبـدأ بعـد ذلـك مرحلـة جديدة في حيـاة الزبـير الـذي لم يسـكن لراحـة في فـترة غيـاب ود عمـوري، وبـدأ نشـاطه في ممارسـة سياسـة السـلم وتوسـعت دائـرة صداقاتـه

مـع الأهـالي، وانفتحـت مغاليـق بعـض لهجاتهـم أمامـه، فتعمـق حبـه في قلوبهـم وبـدأت حرابهـم التـي كانـوا يقاتلـون بهـا التجـار ترتفـع عندمـا يظهـر لهـم الزبـير في تناغـم مـع رقصاتهـم الترحيبيـة، وهكـذا اسـتمر الزبـير يحـرز نجاحـاً تلـو نجـاح دون ظلـم ودون سـفك دمـاء.

(٩)

انقضت الأربعة أشهر ولم يعد ود عموري، وانتظره الزبير شهراً خامساً فلم يعد أيضاً، فهمس أحد رجال الزبير في أذنه قائلاً:

- لم يعد ود عموري إلى محطته بعد كما وعدك يا سيدي الزبير، وإن أردت أن تسمع نصيحتي يا سيدي فعليك أن تعود بالبضائع الموجودة إلى الخرطوم وتبيعها هناك لحسابك، فعدم عودة ود عموري إلى الآن تعني أنه قد هلك.

حدجه الزبير بنظرة أطارت لُبّه وقال له منتهراً:

- هل تتحدث إلى لص أو إلى رجل يخون الأمانة، أنت ضعيف الإيمان، هذه البضائع لا أملك إلا عُشرها والباقي أمانة في عنقي، فكيف تريدني أن أخون الأمانة؟ ولو تأكد لنا أن ود عموري مات، فلديه من يرثه، وهذه تركتهم عليه لا مشورة لك عندي بعد اليوم، فقط أدِّ واجبك ولا تجالسني بعد الآن.

بعد ستة أشهر عاد ود عموري، وبعد استقبال رائع اعتذر ود عموري عن فترة غيابه التي استطالت إلى هذا الحد، وقرر أن يدفع للزبير المزيد، بل عبّر عن المزيد من إعجابه بالزبير، خاصة عندما وجده وبحوزته خمسمئة كنتال من الذهب الأبيض. في إباءٍ رفض الزبير أن يأخذ المزيد من المال من ود عموري وقال له:

- يكفي ما دفعته لي سابقاً، كما يكفيني عُشر البضاعة الموجودة حسبما اتفقنا.

- لا يا شيخ الزبير، أنت تستحق نصفها، فقط اقبل عرضي القديم الذي أجدده لك الآن أمام كل هؤلاء الرجال، بأن

تصبح شريكاً لي في كل تجارتي.. ستشعر بالكسب معي وسأشعر بالأمان لجانبك، مراكبي ورجالي ورأسمالي كله تحت تصرفك، فقط اقبل شراكتي.

للمرة الثانية يرفض الزبير عرض الشراكة الذي تقدم به إليه ود عموري وسط دهشة الجميع، فقد كانت أعماقه الطامحة تهتف له بالمجد، وكان أن تبين للزبير طريق المتاجرة المثمرة والمجدية، وقرر أن يشق لنفسه طريقاً في تلك الديار، وفضل أن يعمل مستقلاً بنفسه، وقرر أن يعود للخرطوم بعد غياب دام لأكثر من عام كامل. بوادر الفراق بدأت تلوح في سماء الرجلين الزبير وود عموري، وعندما انتهت مراسم التسليم والتسلم، وبعد أن أخذ الزبير نصيبه البالغ عُشر البضاعة، بدأ ود عموري يستعد للرحيل إلى مجاهل أخرى وفي نفسه حسرة على فراق الزبير، وعندما افترقا ترك الزبير برفقة ابن عمه محمد عبد القادر وغادر برجاله الذين أهلهم الزبير بالتدريب وأدخل الإسلام في نفوس بعضهم. لم يكن محمد عبد القادر يعرف ماذا يدوز في ذهن الزبير في تلك اللحظات، ولكنه كان واثقاً أن الزبير سيتصرف تصرفاً يسعده، وقطعاً لن يبقيا في هذا المكان وحيدين ومعهما نحو خمسين كنتالاً من العاج في معسكر خالٍ من الرجال، وخاوٍ على عروشه، وهنا التفت إليه قائلاً:

– أها يا الزبير شن بتدور تسو بعد كدي، أنا وإنتا نقعد هنا برانا بي بنادقنا حارسين لنا سن فيل؟

– لا يا محمد بإذن الله ستسير الأمور سيراً حسناً، فقط أبقَ ضع سلاحك فوق كتفك واتبعني.

– نان يا الزبير تخلي بضاعتك وراك ونمشي وين؟

– نمشي لي أصحابنا من الأهالي، تراني عرفتا كتير من رطانتم.

- بـس الغابـات دي صعبـة وحيواناتـا متوحشـة وكتـيرة والبضاعـة دي بتتنهـب.

- نتـوكل عـلى الله، ومـن يتـوكل عـلى الله فهـو حسـبه، وإن شـاء الله ربنـا يلطـف علينـا ويحمينـا ويحمـي بضاعتنـا.
- خلاس نتوكل، ووالله يا الزبير البرافقك أصلوا مو خسران.

(١٠)

تحرك الرجلان كل منهما يحمل سلاحه فوق كتفه وعلى ظهريهما يحملان زاداً قليلاً، فكانت تلك مغامرة خطرة ولكنها كانت بداية المجد والسؤدد. غابة موحشة وأدغال خطيرة أخذ الزبير وابن عمه يشقانها وذكريات سيئة تقفز إلى ذهن محمد عبد القادر وتأخذ بتلابيبه، فها هو الآن يتوجه مع ابن عمه الزبير إلى موطن أولئك الذين أسروه وكادوا يذبحونه ويأكلون لحمه لو لا أن أنقذه الزبير.. يا إلهي كيف يستسيغون لحوم البشر؟. زئير أسد طرد تلك الذكريات من مخيلته وهو يرى الزبير يحكم قبضته على سلاحه ويقول:

- ما تكورك ساكت أظهر..!

أي رجل هذا الذي يخاطب أسداً بمثل هذه الكلمات، ملك الغابة الَّذي ترتعد من زئيره فرائص الحيوانات وأوصال المحاربين الأشداء. لم يشعر محمد بالخوف وهو بجوار ابن عمه، كان يشعر معه بالأمان والاطمئنان وعندما برز لهم ذلك الأسد توخى فيه الزبير من سلاحه موضع اللب، فأرداه قتيلاً ثم أخذ يترنم بما قاله بشر بن عَوانة العبدي عندما وصف ملاقاته الأسد وما كان بينهما:

أَفَاطِمُ لَوْ شَهِدْتِ بِبَطْنِ خَبْتٍ ❋❋❋ وَقَدْ لاَقى الهِزَبْرُ أَخَاكِ بِشْـرَا

إِذاً لَـرَأَيْتِ لَـيْثـاً زَارَ لَـيْثـاً ❋❋❋ هزبرا أغلبا لاقى هزبرا

تَبَهْنَسَ ثم أحجم عَنْهُ مُهْـرِي ❋❋❋ مُحَاذَرَةً، فَقُلْتُ: عُقِرْتَ مُهْـرَا

أَنِلْ قَدَمَيَّ ظَهْرَ الأَرْضِ؛ إِنِّـي ❋❋❋ رَأَيْتُ الأَرْضَ أَثْبَتَ مِنْكَ ظَهْرَا

وَقُلْتُ لَهُ وَقَدْ أَبْـدَى نِـصـالاَ ❋❋❋ مُحَدَّدَةً وَوَجْهاً مُـكْـفَـهِـراً

يُكَفْكِفُ غِيلَةً إِحْدَى يَدَيْهِ ❋❋❋ وَيَبْسُطُ لِلْوُثُوبِ عَلىَّ أُخْرَى

يُدِلُّ بِمِخْلَبٍ وَبِحَدِّ نَابٍ ❋❋❋ وَبِاللَّحَظاتِ تَحْسَبُهُنَّ جَمْرَا

وَفي يُمْنَايَ مَاضِي الحَدِّ أَبْقَى ❋❋❋ بِمَضْرِبهِ قِراعُ المَوتِ أُثْرَا

أَلَمْ يَبْلُغْكَ مَا فَعَلَتْ ظُباهُ ❋❋❋ بِكَاظِمَةٍ غَدَاةَ لَقِيتُ عَمْرَا

وَقَلْبِي مِثْلُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَخْشَى ❋❋❋ مُصَاوَلةً فَكَيفَ يَخَافُ ذَعْرَا ؟!

تأصلت بعد ذلك في نفس الزبير هواية صيد الأسود، وله في ذلك حكاية أنقذته من موت محقق.

(١١)

بعـد مشـقة وعنـت وصـل الزبـير برفقـة محمـد إلى أول المناطـق الآهلـة بالسـكان المحليـين، كانـوا يعرفونـه ويعرفهـم، فاسـتقبلوه بالبهجـة والفـرح، وقـال لـه كبيرهـم ويدعـى أتـاورا:

- لقد أسميت آخر مواليدي زبير، وأتمنى أن يصبح مثلك.

- شكراً لك ولكنه سيصير فارساً مثل والده أتاورا.

بعـد أحاديـث الاسـتقبال الرقيقـة ذبـح أتـاورا ثـوراً إكرامـاً لضيفيه ثـم بـدأ الزبـير يفصـح عـن أسـباب مجيئه فقـال لأتـاورا:

- أنتـم أفضـل مـن تاجـرت معهـم، وأريـد الآن أن اسـتقل بتجارتي لـذا أرغـب في صناعـة مركـب، وأن أسـتعين ببعـض رجالـك ليرافقـوني في رحـلاتي التجاريـة، فرجالـك أقويـاء وشـجعان وأنـا أثـق بهـم ليكونـوا حراسـاً لي وسـأكافئهم عـلى عملهـم معـي.

- كم تريد من الرجال.

- أريد ثلاثين رجلاً.

- لك ما تريد.

قفـل الزبـير عائـداً بحراسـه مـن رجـال أتـاورا إلى المعسـكر الـذي خلـف فيـه بضاعتـه مـن العـاج، حـدث ذلـك وعـام ١٨٥٨م يدخـل ربعـه الأخـير، وهنـاك بـدأ العمـل الشـاق في بنـاء مركـب ضخـم كان قـد اشـترى هيكلـه واسـتطاع الزبـير أن يسـتبدل العـاج مـع التجـار العابريـن ببضائـع تـروق سـكان المناطـق التـي ينـوي سـبر أغوارهـا، كـما اشـترى منهـم المزيـد بـما لديـه مـن أمـوال نقديـة، وهـي التـي دفعهـا لـه ود عمـوري. عـدة شـهور والزبـير يعـد نفسـه للانطـلاق، وبعـد أن حمَّـل مركبـه بكافـة البضائـع التـي أحرزهـا، اتجـه صـوب الغـرب مُبحـراً إلى منطقـة يقـال لهـا (النيـام نيـام) الذيـن قـال عنهـم: مـن العسـير عـلى الذهـن الأوروبي أن

يتصـور حالـة معـشر قبائـل (النيـام نيـام)، فقـد كانـوا وثنيـين لا إله لهـم ولا رسـول ولا قانـون، يعبـدون الأشـجار أو النـار أو المـاء أو فـرس البحـر أو الثعبـان، ولم تكـن لهـم أيـة مهنـة يحترفونهـا غـير الصيـد وقتـل بعضهـم بعضـا، كـما كانـوا كلهـم مـن أكلـة لحـوم البـشر..!

(١٢)

تعـرَّف الزبـير هنـاك عـلى ملـك النيـام نيـام، وكان يدعـى (زنقابـور) وظـل يتاجـر مـع تلـك القبائـل بـودٍ ونجـاح، ملتزمـاً بسياسـة المسـالمة، فانضـم إليـه عـدد آخـر مـن الرجـال، وظـلَّ هنـاك لعـام كامـل خلالـه زادت محبـة الملـك زنقابـور لـه ليحـرز الزبـير مكانـة رفيعـة ونفوذاً واسـعاً وقويـاً في بلاطـه، يعيـد للأذهـان حكايـات مـا بلغـه يوسـف مـن منزلـة لـدى فرعـون، غـير أنـه رزء بوفاتـه في نهايـة ذلـك العـام، ولكـن نفـوذه في ذلـك البـلاط ظـل قائـماً رغـم تنصيـب (تكمـة) ملـكاً خلفـاً لوالـده الراحـل (زنقابـور)، إذ تأسـى تكمـة بسياسـة والـده تجـاه الزبـير، فأخـذ يقبـل منـه النصـح ويجالسـه ويتشـاور معـه في شـأن الأمـور التـي تخـص مملكتـه، وتربـص الأعـداء بهـا فوجـد الزبـير خـير مـن يُستشـار، غـير أن الزبـير كان دائـماً تنهـض في ذاتـه قيمـه الإسـلامية في بـلاد لا تعـرف عـن الإسـلام شـيئاً، فقـرر أن ينـزل تلـك القيـم مـا اسـتطاع بـين أولئـك النـاس بحـذر ومناصحـة. كانـت عـادة أكل لحـوم البـشر في قبائـل النيـام نيـام تزعـج الزبـير وتثـير اشـمئزازه، ولكـن مـا مـن سـبيل للقضـاء عـلى عـادة متأصلـة فيهـم لدرجـة أنهـم لا يأكلـون سـوى لحـوم البـشر! فقـد كان الرجـال والنسـاء والأطفـال يقتلـون في السـوق ويقطعـون ليباعـوا كـما تُبـاع شرائـح لحـوم البقـر والضـأن. كل السـجناء وأسرى الحـروب يُؤكلـون، كل مـن بلغـت بـه السـمنة حـداً تجعلـه لا يصلـح لـشيء يُقتـل ويُـؤكل، مـن رأوا فيـه سـوء خُلـق يُقتـل ويُـؤكل، والذيـن يموتـون موتـاً طبيعيـاً يُؤكلـون، غـير أنهـم لا يأكلـون لحـوم أقاربهـم، فلـو احتـضرت والـدة أحدهـم وأشرفـت عـلى المـوت، فـإن ابنهـا يعـرض بيعهـا لأي شـخص مـن قريـة مجـاورة، مثمنـاً جسـدها وتبطـل المبايعـة بنجـاة المحتـضرة مـن المـوت، وإلا صـح العقـد فتنقـل إلى مـن اشـتراها بعـد موتهـا لتُلتهـم في رقـة وفي لطـف ومتعـة بعيـداً عـن أهلهـا وابنهـا..!

(١٣)

هـذه المشـاهدات كانـت تقـع في قلـب الزبـير في موضـع الأسـى وكان يقـول لابـن عمـه محمـد:

- هـذا منكـر وقـد قـال رسـولنا الكريـم: «مـن رأى منكـم منكـراً فليغـيره بيـده، فـإن لم يسـتطع فبلسـانه، وإن لم يسـتطع فبقلبـه، وذلـك أضعـف الإيـمان».

- أي نعـم يـا الزبـير، وحقـو تكلـم تكمـة بالموضـوع ده ويمنـع أكل لحـوم البشر.

- لا يـا محمـد، لازم في الأول النـاس ديـل يعرفـوا الزراعـة أكـتر ويتعلمـوا التجـارة وشـوية شـوية يتعلمـوا. ابتسـم محمـد وقـال للزبـير قبـل أن تسـتحيل ابتسـامته إلى ضحكـة:

- عشان يشبهوا الناس ولا مو كدي يا الزبير أخوي.

بعد انتهاء الضحكة التي جمعت الصديقين قال الزبير:

- الملك تكمة بسمع كلامي وأنا ماشيلو بي خطة.

- ربنا يوفقك معاهو في عمل الخير يا الزبير.

كان الزبـير يـرى أن هنـاك شـباباً أقويـاء يُقتلـون مـن أجـل أن يُؤكلـوا، وكان يحـس مـع ذلـك بالأسـف، وكان يـرى في إقليـم (زنقابـور) أن العـادة الغالبـة أن تُقسـم الأنفـال إلى أسرى وغنائـم، وكانـت الغنائـم تذهـب للملـك ويكـون الأسرى مـن نصيـب الأهـالي، ولما كان الملـك تكمـة يسـتأنس بـآراء الزبـير ويحفـظ لـه مكانتـه في بلاطـه، كـما كان يحفظهـا فقـد آثـر الزبـير وفقـاً لخطتـه أن يقـول لـه:

- سـيدي إنـك تعلـم بأننـي ومثـل مـا كنـت مـع والدكـم أتمنـى لكـم العـزة والقـوة.

- نعلم ذلك، ونحن ممتنون لك وسعداء بوجودك بيننا.
- دي نصيحة أرجو أن تقبلها وتعمل بها، وإن عملت بها فستجد من ورائها خيراً كثيراً.
انتبه تكمة وزاد الفضول وحب الاستطلاع في قلوب حاشيته والزبير يقول:
- أليس من الأجدى والأنفع أن تعطي الأهالي أقمشة الشيت والخرز بدلاً من الاستحواذ على الأسرى من الشباب الأقوياء.
كان الاقتراح مفاجئاً وصادماً للكثير من حاشية الملك، ولكنه كان اقتراحاً له مفعول السحر. كانت عيون الملك تكمة وحاشيته تروح وتغدو طائفة على وجه الزبير ذي الملمح الصلد، وهم يقلبون في أذهانهم رأي الزبير القائل بإعطاء الأهالي أقمشة وخرزاً بدلًا من استيلائهم على الأقوياء من الأسرى، وبدا أن جميعهم بمن فيهم الملك تكمة لم يصلوا لقرار الموافقة على هذا الرأي المفاجئ والصادم، الذي سيصيب الأهالي بأشواق لأكل لحوم البشر، وهذا ما كان يقصده الزبير الذي كان يريد أن يصيب هذه العادة الذميمة في مقتل، وكادت الحاشية بإشاراتها الموحية وامتعاضها الواضح أن تدفع تكمة إلى رفض اقتراح الزبير الذي فطن للأمر، فنهض من مكانه جوار الملك وانتصب واقفاً بعوده الفارع وأخذ يتحدث بلغتهم التي أجادها قائلًا:
ـ لماذا يُؤكل أولئك الشباب الأقوياء؟ لماذا لا نستفيد من قوتهم؟ نعم، هم أسرانا ويمكن لنا أن نقتلهم أو نذبحهم أو نهديهم لشعبنا، ولكني أريد أن يكونوا جنوداً لنا، ندربهم كعساكر وينخرطون في خدمتنا، سيكونون ممتنين لنا وأوفياء بعد أن نبعدهم عن هذا المصير الأسود، سيدافعون عن مملكتنا ببسالة ضد الأعداء، وأنتم تعلمون أن حولكم الكثير من الأعداء الذين يطمعون فيكم وفي لحومكم أيضاً.
عندها سرت همهمة فأيقن الزبير أنه قد هز قناعتهم برأيه، خاصة وأن تكمة لم يكن الإطراق من عاداته، وها هو يطرق الآن ولكن الزبير

استمر في الحديث قائلًا:

ـ للأسرى أهل وقبائل سيعملون على أخذ الثأر أو تخليص أسراهم منكم. عليه أرى قبل تجنيد أي أسير في صفوفنا أن ندفع عنه فدية كاملة. يجب أن تكون هذه هي خطوتنا التالية. بدأت الأنظار تتجه نحو وجه الملك تكمة الذي تخلص من إطراقته بوجهٍ مبتسم، ومن ثم أصدر قراره بقبول اقتراح الزبير والعمل به فوراً. فأخذت الحاشية تحيي الزبير وتهتف بـــاسمه واسم ملكهم تكمة. وفي ركن قصي من أركان ذلك المكان بدا محمد عبد القادر بعين دامعة وهو يرفع كفه للزبير بعلامة النصر.

هذه الواقعة لم تبرح ذهن الزبير قط، فكم هو وفيٍّ ابن عمه وصديقه هذا، ليس له فحسب إنما لابنه سليمان من بعده، فقدبقي محمد مع سليمان الزبير بعد مغادرة الزبير للسودان بعد ذلك بسنوات عديدة ليقع معه في أسر جيسي باشا الضابط الإنجليزي، وفي خسة وغدر قتلهما رمياً بالرصاص. كانت دموع الزبير عصيةً ولكنه وهو في أسره كان يبكي كلما تذكر هذه الحادثة.

(١٤)

عندما بدأ تنفيذ أمر الملك تكمة وبدأت القبائل تأخذ فداياتها عن أسراها، توقفت عن أكل لحوم أسراها مستعيضة عن ذلك بعرضهم للبيع ليصبحوا جنوداً أرقاء. فأيهما أفضل!، أن تكون في بطون من أسروك أم أن تعمل جندياً في جيشهم؟ هكذا بدأت سُنة جديدة تتبع في تلك الأماكن بتكوين جيش من الأرقاء. وبذلك نجح الزبير في الحد من عادة أكل لحوم البشر، وبقي هو يعمل في تجارته مع حراسه القليلين الذين سلحهم ببنادق فرنسية الصنع، كان قد اشتراها من التجار الشماليين الذين يجوبون تلك المناطق يبحثون عن العاج ويقتنصون العبيد. لم تكــن القبائل في تلك المناطق قد أمسكت بعد بأهداب المدنية، كانوا متخلفين كالعناكب تقتل بعضها.

عندما شعر أحد جيران الملك تكمة بأنه قد صار قوياً رغب في غزوه. كان يدعى الزعيم (مريسة)، يتخذ من بلدة كبيرة عاصمة له. ولما وصلت هذه الأخبار للملك تكمة جرد جيشه العظيم واتجه به صوب عاصمة مريسة مصطحباً معه الزبير وحرسه. وبعد معارك شرسة وطويلة امتدت لأربعين يوماً، استطاع تكمة وجيشه الوصول لعاصمة الزعيم مريسة، ولدهشتهم وجدوها خالية تماماً وأبواب بيوتها مفتحة على مصاريعها، فدخلت قوات تكمة تلك البيوت مستبيحين المدينة الخالية يبحثون عن الأكل والشراب، فقد أرهقتهم هذه الحرب الطويلة وأصابتهم بالجوع والعطش، وأبدوا سعادتهم وفرحتهم وهم يرون داخل كل بيت من تلك البيوت كمية معتبرة من شراب (المريسة) المسكر، فهجموا عليه في شراهة واندفعوا إليه بنهم، فعبوا منه ونهلوا كالسوائم العطاش. هذا المشهد أثار شكوك الزبير فحاول منع أولئك القوم من أن يقربوا ذلك الشراب، ولكنه فشل في ذلك، فقد كانوا

فوضويــين لا يلتزمون النظام ولا يتقيدون بالانضباط، واكتفى الزبير بمنع حراسه من الاقتراب من هذا الشراب وهو يقول لهم: أشعر بأن في الأمر مكيدة. عندما طفحت المدينة بأفواج السكارى المترنحين وامتلأت بهم عرصاتها، حدث الأمر الذي توقعه الزبير!

(١٥)

كان انسحاب مريسة وقواته من المدينة انسحاباً تكتيكياً، فقد كمن خارجها، وعندما أبلغته العيون بأن الخمر قد لعبت برؤوس رجال تكمة، كرَّ عليها قافلًا وذبح من وجده ذبح الشياه، وهرب من نجا، غير أن الزبير وحراسه تحلقوا حول تكمة بغية حمايته وإخراجه من تلك المدينة سالماً، فأدار الزبير معركة الانسحاب ببسالة وشجاعة، ونجح في إخراج تكمة وفصيـــلاً من قواته، وقبل انتهاء المعركة وجدت حربة طريقها إلى صدر الزبير ونفذت من فوق رئته اليمنى إلى كتفه، محطمةً عظمه، فأمر بكسر نصلها والإبقاء على سنها ليظل غارزاً في الجرح ليمنع تدفق دمه إلى خارج جسده، واستمر وهو بتلك الحالة يبذل الجهد لسلامة وحماية الملك، وقبل أن يتجاوز به النهر أصيب الزبير مـرة ثانية بجرحٍ في فخذه، ولكن الانسحاب كان قد تم بنجاح، وبعودتهم إلى مقر تكمة بسلام تولى تكمة سحب سنة الحربة بنفسه من جسد الزبير، وكما توقع الزبير اندفع الدم جياشاً بكميات غزيرة من جرحه جعلته يرتمي فاقداً الحس والشعور بين يدي تكمة، فانتابته الحمى. وبينما كان تكمة ورجاله يتولون علاجه، كان محمد عبد القادر ينظر إليه بعطفٍ وإشفاق ويدعو قائلًا: اللهم اشفه شفاءً ليس بعده سقماً، واحرسه بعينك التي لا تنام، واحفظه بعزك الذي لا يضام، يا كاشف الهم، يا مفرج الكرب، يا مجيب دعوة المضطرين. أخضع الملك تكمة الزبير لعلاج مكثف، فأخرجه ذلك من مرحلة الخطورة، ولكن جراحه لم تشفَ تماماً بعد، وقبل ذلك دعا الملك (تكمة) مجلسه لـــلانعقاد وأخذ بيد الزبير وهو مثخنٌ بجراحاته وقال لهم:

لقد فررتم مني حين أحدق بي الخطر، وتركتموني لأموت، لكن هذا الغريب وهبني الحياة مرة أخرى، لقد جُرح من أجلي وأنقذني، إنه الآن ليس منقذي وصديقي فحســب، إنما هو ابني هل فهمتم ذلك؟

قالوا: نعم يا سيدي.
إذاً عليكم الآن الموافقة على تزويج ابنتي له..! امتعض القوم في تلك اللحظة وشعروا بالغيرة والحنق، وقالوا لمليكهم في جُرأةٍ دفعت بهم إليها الغيرة:
ـ كيف تعطي ابنتك لرجل غريب لا تعرف عن مولده ونسبه شيئاً، وأنت لا تدري إن كان في بلده ينحدر من سلالة طيبة أم من أصلٍ رديء؟
فرد عليهم قائلًا:
لقد كشف الرجل عن معدنه وعن طيب عنصره، بأفعاله ووفائه وحكمته ورجاحة عقله، ولولاه للقيت حتفي، من يا ترى يملك شجاعته منكم، دعوه ليهب ابنتي ولداً مثله. لم تكن همهمات القوم تدل على الرضا، ولكن صرخة قوية من الملك أعادتهم إلى سكونهم:

أين ابنتي الحبيبة؟ احضروها الآن.
بعد حين برزت الأميرة ابنة الملك تكمة غادة حوراء سمراء ذات دلالٍ ومرح، زنجية عليها قلائد من جمانٍ، وبينما كان الحياء يدفع بشفق لسانها الأحمر ليداعب صبح أسنانها البيضاء، كان محمد عبد القادر يخفي ابتسامته بكفه ويقول لنفسه: يا حليلك يا بت عمي عاشة بت منصور، الزبير بدور يعرس فوقك..! لم يكن الزبير الذي أُعجب بالأميرة ابنة الملك تكمة وخفق قلبه لها في وضع يمكنه من الزواج بها في تلك الأيام التي أعقبت معركة المدينة الخالية، التي جُرح فيها جروحاً عميقة وخطيرة لا يزال يعاني آثارها ويكابد ويلاتها المستمرة، وظل على مدى أربعين يوماً يخضع للعلاج المكثف الذي كان يشرف عليه الملك تكمة شخصياً. بعد تماثل الزبير للشفاء بدأت مراسم زواجه من الأميرة ابنة

ملك النيام نيام تكمة، فكان الفرح طاغياً وأسطورياً، التأم فيه أفراد القرى المجاورة وعبروا فيه عن بهجتهم بالرقص وقرع الطبول ورفع الأسنة والحراب، وحراس الزبير بقيادة ابن عمه محمد يطلقون أعيرة نارية في الهواء من بنادقهم فرنسية الصنع.

(١٦)

قبل أن تزف الأميرة إلى الزبير طلب أن يعقد قرآنه عليها وفقاً لتعاليم دينه الإسلامي، فوافق تكمة على ذلك، وبذلك اكتمل هذا الزواج وتمت تلك المصاهرة التي كرست مكانة الزبير في أعلى قمة اجتماعية من قمم تلك المملكة، ولم ينكر الزبير أنه قد أحب زوجته الأميرة بنت الملك تكمة ووصفها بأجمل الصفات. كان يقول لها:

- أنت جميلة ومليحة وطيبة.

وترد عليه:

- وأنت فارس شجاع تطفح فحولةً وقوةً.

ولما كان الزبير فتًى اتخذ المجد مبدأً وشعاراً، فلم يكن يثنيه عن بلوغ أمانيه غرام يثور في الأضلاع، فترك خلفه زوجته الحبيبة مع والدها تكمة حاملاً رايته ليغرسها في تلال أخرى من المجد والثراء. لم يكن الزبير في بلاد النيام نيام غريب الوجه أو اليد أو اللسان، فقد صار وجهه فيها مألوفاً وبيده السلاح، ولسانه تعلم كيف ينطق بلهجاتهم المحلية، وقد سعد كثيراً أن انضم إليه نحو خمسين من أبناء الشمال الذين توافدوا إليه، إما من أهله أو من أولئك الذين تخلصوا من خدمة تجار آخرين مفضلين الزبير، الرجل القوي والتاجر العادل. بكل هؤلاء وحراسه وبضاعته ومراكبه ودع الزبير أرض النيام نيام متوخياً جمع المزيد من البضاعة والعودة إلى الخرطوم لبيعها، وعندما أزفت ساعة السفر، ودعه تكمة بعين أسيفة، وكف قوية، وودعته الأميرة بحضن دافئ ودمعة مسفوحة. أطلقت المراكب أشرعتها وأبحرت فوق صفحة نهر شرس ذي مسالك وعرة، قذف بهم إلى المجهول وسط مستنقعات لم يكتشفها أحد من قبل،

وبـدأ التوهـان يأخذهـم إلى جهـة الغـرب، فاسـتحال مجـرى النهـر إلى بحـيرة عظيمـة، فضلُّـوا طريقهـم تمامـاً، ومضـت الأيـام والأسـابيع ونفـذ الـزاد وهـم في مجاهـل ماؤهـا سـمٌّ، وطعامهـا مفقـودٌ، شـدة مـا بعدهـا شـدةالبحارة بـدأوا يفقـدون طاقتهـم واليـأس أطبـق عـلى النفـوس التـي بـدأت تقـاسي مـرارة الحرمانخمسـة وسـبعون يومـاً مـرت ولا يجـدون شـيئاً يقتاتـون بـه، سـماء مظلمـة، ولا شيء تـدب فيـه الحيـاة في هـذه المجاهـل المهلكـة التـي أصابـت بعضهـم بالجنون. وبـدأ المـوت جوعـاً يغزوهـم، فـمات مـن رفـاق الزبـير الكثـيرون، فيدفـع الأحيـاء بجثثهـم إلى النهـر بعـد أن منعهـم الزبـير بحـزم مـن أكلهـا. بعد أن أشرف الزبير ورفاقه على الموت واستبد بهم اليأس، تطلع من فوق سارية المركب فأبصر من بعيد دخانـاً بعـث الأمل في نفوسهم.
صـاح الزبـير القائـد: ابحـروا في اتجـاه ذلـك الدخـان.
استمر الإبحار ووصلت المراكب إلى يابسة قذرة فقال الزبير:
- على الجميع الصبر والهدوء بإذن الله سننجو.
ثـم أمـر ثمانيـة مـن رجالـه أن يتبعـوه فوضـع معهـم رجلـه عـلى تلـك اليابسـة التـي لم تكـن تخلـو مـن مستنقعات آسـنة صغـيرة وحشـائش وأشـجار ولا شيء حـي يتجـول في ذلـك المـكان.

(١٧)

كان الزبير يتظاهر بالقوة رغم أن الجوع قد نال منه، كما نال من الآخرين، فكيف سيكون حال رجاله إن هو أبدى ضعفاً أو انهياراً، وفجأةً رأى شيئاً ضخماً يتحرك، تحركت مشاعر قديمة زمجرت دواخله بذكرى سحيقة ومؤلمة واندفعت فيه دماء الثأر، تُؤججها مشاعر الجوع القاتل. إنه حفيد ذلك التمساح الذي اختطف شاتي العزيزة من شاطئ جزيرتنا القديمة واوسي، لن أسمح لك أيها الحفيد أن تعيش أكثر مما عشت. وبدقة تصويباته اندفع الرصاص من فوهة بندقية الزبير وأصابت رأس التمساح فمات، وعندها اندفع الرجال وأوقدوا النار من حطب ذلك المكان بعد أن قطعوا التمساح إلى شرائح وشووها وجبةً بعثت فيهم قوةً جديدةً، ليأمرهم الزبير بحمل ما تبقى من لحم التمساح، وكان كثيراً، والعودة به إلى المركب، وعندما وصلوا إليها وجدوا أن ستة آخرين ماتوا جوعاً، فوضعوا للبقية ما معهم من تلك الشرائح ليأمر الزبير رجاله الثمانية بالعودة لليابسة من جديد للبحث عن مصدر ذلك الدخان، وهو يقول لهم: يتحتم علينا الآن أن نجد مصدر ذلك الدخان أياً كان أو نموت، ولن نعود إلى هنا أبداً إلا ومعنا الطعام الكافي. بدأت رحلة البحث عن مصدر الدخان. الأرجل تسير وتسعة كتوف تحمل البنادق وزاداً قليلاً من لحم التمساح بين أعطافهم. أربعة أيام بلياليها يخوضون مستنقعات وغابات ويتوهون والدخان يبدو ويختفي والنفوس تتأرجح ما بين اليأس والأمل، حتى اكتشفوا أن الدخان كان منبعثاً من جزيرة كبيرة، جزيرة بكر وأرض عذراء لم تطأها أقدام الأوروبيين ولا التجار من قبل، ولا تعرفها أي

خريطـة. وصلوهـا بمشـقة ومشـوا عـلى أرضهـا بحـذر، وعندمـا وقعـت عليهـم أعـين بعـض أهلهـا توجسـوا منهـم، إنهـم أغـراب، ملابسـهم مضحكـة. فأحاطـوا بهـم إحاطـة السـوار بالمعصـم، بشـعور عدائـي وبأحاسـيس الحـرب والقتـال وهـم يصرخـون: غربـاء في جزيرتنـا (بوهـول)، هلمـوا يـا بقيـة أهـل جزيرتنـا لنقتـل الغربـاء.

التفـت الزبـير إلى أحـد أقـرب رفاقـه وقـال لهـم: هـذه الجزيـرة اسـمها بوهـول وأهلهـا يريـدون قتلنـا. فسـأله: وكيـف عرفـت يـا سـيدي الزبـير؟

- أعـرف اللهجـة التـي يتحدثـون بهـا، بـل سـمعت مـن قبـل بهـذه الجزيـرة وأعـرف اسـم ملكهـا..!

- وكيف سنخرج من هذه الورطة وننجو بأنفسنا؟

- اتبعني أنت فقط والبقية يلتزمون أماكنهم صامتين، ولا تتحرك يد أحد منكم ناحية سلاحه.

(١٨)

لم يكـن الزبـير خائفـاً إنـما الدهشـة كانـت مسـتولية عليـه، فهـو يذكـر قبـل عـام لقـاءه ببعـض الأهـالي الذيـن استجاروا بالزعيـم أتـاورا الـذي سـمى مولـوده زبـير، تيمنـاً بـه، تعلـم لهجتهـم وعـرف أنهـم مـن جزيـرة كبـيرة تقـع ناحيـة الغـرب، وأن عليهـا ملـكاً شرسـاً يدعـى (كوريـام). اتجـه الزبـير برفيقـه الـذي اختـاره بعـد أن وضعـا سـلاحيهما عـلى الأرض إلى ناحيـة الأهـالي الذيـن يحاصرونهـم، سـائلاً الله أن تكـون هـذه الجزيـرة هـي نفسـها جزيـرة الملـك كوريـام، وعندمـا اقـترب منهـم قـال لـه زعيمهـم وهـو يوجـه حربتـه إلى صـدر الزبـير: مـن أيـن أتيـت؟ هـل هبطـت مـن السـماء أم انشـقت عنـك الأرض أم خرجـت مـن المـاء؟

ابتسـم الزبـير في وجـه ذلـك الزعيـم المتحفـز، ورد عليـه بلهجتـه رداً مـا كان يعـرف إن كان فيـه هلاكـه أم نجاتـه:

- جـاءت بي شـهرة ملككـم العظيـم كوريـام، إنـه محبـوب في كل الأماكـن التـي زرتهـا، أنـا تاجـر وأجـوب بمراكبـي أماكـن كثـيرة. عندهـا رفـع الرجـل حاجـب الدهشـة وأنـزل حربتـه وغرسـها في الأرض. تنفـس الزبـير الصعـداء، وأيقـن أن حدسـه لم يخنـه، وأشرقـت ابتسـامته أكثـر عندمـا التفـت الرجـل إلى أهلـه وهـو يقـول لهـم بفرحـة:

- إنـه يعـرف لغتنـا ويعـرف ملكنـا، وقـال عنـه إنـه رجـل عظيـم ومشـهور في كل الأرض.

هتفوا:

- كوريام العظيم.. يحيا ملكنا كوريام العظيم..!

عاد زعيمهم بنظره من جديد للزبير وسأله قائلاً:

- وماذا تريد من ملكنا أيها الغريب؟

- جئتُ لأزوره وأعطيه بعض الهدايا، فهو رجل عظيم، كما أود أن أشتري من بلده طعاماً لرجالي.
تبددت بعد ذلك مشاعر العِداء، وحلت مكانها مظاهر الترحيب والمودة، غير أن الأمر لم يبقَ على هذا المنوال!
نظر زعيم الأهالي الذين كانوا يحاصرون الزبير ورجاله الثمانية في جزيرة بوهول نظرة فاحصة لهؤلاء الغرباء فاكتشف الزبير في تلك النظرة سلاماً وترحيباً، ولم يخنه تقديره، إذ قال له ذلك الزعيم:
- وجوهكم مرهقة بفعل الجوع أليس كذلك؟
- نعم، أيها الرجل الكريم.
عندها التفت الرجل إلى قومه وقال لهم:
- ضيوفنا جياع اذبحوا لهم بقرة، لن يقابلوا ملكنا العظيم في عرشه وهم جياع.
تهلل وجه الزبير ووجوه رجاله بالبشر، ولم يمضِ كثير من الوقت حتى استحالت تلك البقرة إلى قطع مجزأة من اللحم، وبدا المكان يأخذ شكل الاحتفاء. اللحم يتلوى بين نيران الحطب الجزل، ولا تني حراب القوم ترفعه للضيوف، فبدأت المأدبة العظيمة، قُدم خلالها مع اللحم الماء والخبز المحلي واللبن الخاثر، واستمتع الزبير ورجاله أيما استمتاع بهذه الوجبة، والزبير في الأثناء يسأل رجاله:
- أرجو أن تكونوا محتفظين بطريقة جيدة بين أعطافكم بالخرز كما أمرتكم.
- نعم، يا سيدي الزبير.
- هذا جيد، فأنا أعلم أن الخرز يمثل شيئاً أعظم من المال في مثل هذه المناحي.
- نعم، سيدي فقد علمتنا ذلك.
- ما يهمني الآن بعد شكرنا لله سبحانه وتعالى على لطفه ونعمته أن يعود بعضنا بالطعام إلى رفاقنا في المراكب، وأن نأخذ من هنا زاداً

كافياً يسمح لنا بالتحرك، إذ سألحق ومن يبقى معي بكم بعد أن نقابل الملك كوريام. حمل الزبير بعض الخرز داخل خرقة واقترب من زعيم الأهالي، فألفاه يضع ابتسامة ضاعت إشراقتها في وجهه المظلم غير الوسيم، وقال له :

- أشكرك يا أخي على هذا الكرم، ولكني أطمع في شراء طعام لرفاقنا الذين ينتظروننا في المراكب.

الصمت الذي بدا على وجه الزعيم أصاب الزبير بــشيءٍ من القلق، فامتدت يده إلى داخل الخرقة وأخرج منها بعض الخرز وقال:

- سأعطي ثلاث خرزات مقابل كل بقرة.

فغر الزعيم فاهه وهو يرى ذلك الخرز، وبفرحته الممزوجة بدهشته التفت بوجهه إلى قومه وقال:

- الغريب سيعطينا ثلاث خرزات مقابل كل بقرة، إنه يريد أبقاراً لذبحها والعودة بها لحوماً إلى رفاقه.

(١٩)

في تلك اللحظات ذهب من الأهالي من ذهب، وعادوا بأبقار كثيرة اشتراها الزبير بعرضه السخي، وقد كان لهذا السعر مفعول كمفعول السحر في نفوسهم، لتدهش بعد ذلك مظاهر السرور الزبير ورجاله، فقد عبّر القوم عن فرحتهم وابتهاجهم بالرقص والمسح على بطونهم، وبإشارات وتعبيرات جنونية صارخة، شاركهم فيها بعض رجال الزبير بطريقة بدت لهم في غاية الطرافة:

- أبشروا يا ناس أبشروا..!

بعدها أمر الزبير خمسةً من رجاله بحمـل الطعام والزاد إلى المراكب، بعد أن أفادهم بأقصر الطرق إلى هناك، مستفيداً من إجابة الزعيم على سؤاله، فقد علم منه أنهم قبل أن يصلوا إلى هنا كانوا يدورون، فالدخان خادع تحمله السماء من مكان إلى مكان، لذا قضوا كل تلك الأيام في البحث عن مصدره. طلب الزبير من ذلك الزعيم مقابلة الملك العظيم كوريام، مضيفاً أنه يحمل له هدية عبارة عن كمية من الخرز، فرد عليه قائلًا:

- سنصحبكم حالًا إلى عرش مليكنا المفدى كوريام.

تبع الزبير مصطحباً رجاله الثلاثة الباقين ذلك الزعيم الذي سار أمامهم في ثلة من الأهالي لمقابلة الملك، وفي الطريق قال أحد رجال الزبير:

- يبدو أننا يا سيدي الزبير نسير إلى قصر به الكثير من المدهشات.

بالفعل كان الأمر مدهشاً بوصولهم لمقر الملك، فقد كان القصر الذي يرومونه عبارة عن عشة منخفضة متدنية بداخلها يستلقي الملك العظيم كوريام، وهو عاري الجسد تماماً، واضعاً جسده على فراش. دعونا نقول إنه فراش، فهو فراش من روث البقر المحروق عليه وسادة عبارة عن قطعتين مـــن الحطب، يضع عليهما الملك رأسه بـــاستمتاع..! لا شيء عدا ذلك، فقد كانت تلك المؤسسة الملكية وذلك المقر الرسمي المرموق يخلو حتى من قطعة أثاث واحدة. بدا الملك متوجساً بعينين تسافران على

أوجه أولئك الغرباء الأربعة، وكان من اليسير أن يتعرف على قائدهم، إنه الزبير بلا شك، فأخذ يسأله:
- هذه الجزيرة لا يعرفها أحد فكيف وصلت إليها؟
- أنا تاجر يا فخامة الملك، وكان بي شوق أن أزورك، فقد سمعت أنك رجل عظيم.

أيقن الزبير أن رده قد ضاع سدًى، فلا سمات ولا اختلاجات على وجه الملك تدل على الامتنان أو الرضى أو القبول، كان لا بُدَّ للزبير أن يلجأ في تلك اللحظات إلى الخرز، سلاحه الماضي والمغري، فقال وهو يبحث داخل تلك الخرقة الكبيرة متخيراً أكبر الخرز حجماً:
- فخامة الملك أحضرت لك معي هدية.
منح كوريام الزبير التفاتة ملكية، فوضع الزبير الخرز فوق كفيه وقدمه للملك بـــاحترام وهو يقول له:
- هذه هدية الملك العظيم.
تخلص الملك من استلقاءته بالجلوس فوق عرشه المصنوع من روث الأبقار مصطحباً معه ابتسامة، وبعد أن سلمه الزبير الخرز قال له:
- قومك أكرمونا وقبلوا أن يبيعوا لنا الطعام وأمامنا سفر طويل، فهل تكرمتم بالسماح لنا بالمغادرة.
- لا لن تغادروا إلا بعد إكرامي لكم، ويمكنكم قضاء الليلة معنا، بعدها لكم ما شئتم.

- أمرك سيدي الملك.
التفت الملك إلى أعوانه قائلًا لهم:
- تخيروا لضيوفي عُشة ليقضوا بها ليلتهم وأكرموهم بالطعام واللبن.
لم تكن عُشة الضيوف بعيدة عن المقر الرسمي للملك، وفيها وصلهم الطعام واللبن، غير أن تجمع الأهالي خارج تلك العشة بعث في نفس

الزبير شكاً عظيماً بأن شراً سيلحق بهم في هذه الليلة، وتأكدت شكوك الزبير عندما وصل إليه أحد الأهالي من الذين اشترى منه من قبل بقرة، وقال له جاثياً على ركبتيه:
- إن زعماء القبيلة يا ضيفنا العزيز نجحوا في إقناع الملك بقتلكم، بدعوى أنكم عرفتم هذا المكان، وبعد مغادرتكم ستعودون بأعداد غفيرة لتحتلوا الجزيرة.
شكر الزبير الرجل وقبل أن يغادره متسللًا أعطاه خرزتين ثم تقلد سلاحه وخرج وحيداً من العشة التي خُصصت لهم. فوجئ الزبير بالملك كوريام يجلس خارج مقره وزعماء القبيلة يتحلقون حوله بعد أن شق جموع الأهالي الذين كانوا يجلسون القرفصاء متقاربين على الأرض في كل مكان من حوله، وبيد كل منهم حربة فلم يهتم، وبوصوله للملك قال له بقوةٍ:
- قومك يقولون دعنا نقتل هؤلاء الغرباء، ودُهشت أنك قد وافقتهم على هذا الأمر، فلماذا ونحن أتينا لكم مسالمين ولم نضركم بشيءٍ؟
- لكنكم رأيتم بلادي.
- أمن أجل هذا تريد قتلنا؟
- نعم، ومن أجل ذلك أصدرنا حكماً بالإعدام عليك وعلى رفاقك.
- إذاً استعد فخلفنا أصحاب سيأتون إليكم وسيأخذون بثأرنا ويستولون على بلدكم ويقذفون بكم إلى خارج هذه الدنيا، عليه أنصحك بتركنا أحياء.
صمت الملك كوريام قليلًا ثم قال:
- أنت وجماعتك آمنون طالما أنتم في كنفي، ولكني لن أعدك بسلامتكم بعد أن تغادروني.

- إذن أخبر قومك إذا ما تعرضوا لنا في الغدِ ونحن في الطريق للمراكب، بأننا قبل أن نموت سنقتل الكثيرين جداً منهم.

(٢٠)

قبل أن يسمع الزبير رداً من كوريام، غادر إلى عشته حيث رفاقه وقال لهم:

- بلا شك سيكتب القتل والقتال علينا، ولكن لدينا الآن الطعام لمن هم في المراكب من رفاقنا، ومن الخير أن يموت منا من يموت ليجد الباقون القوت، فعليكم أن تكونوا رجالًا شجعاناً والآن دعونا لننام، قبل أن تمضي تلك الليلة العصيبة انطلقت رصاصتان قلبتـا الأحداث ظهراً على عقب.

لم يبعث حديث الزبير الاطمئنان لرفاقه في تلك العشة فسألوه:

- كيف سننام يا سيدي الزبير وأنت تقول لنا إن القتل والقتال مكتوب علينا؟

- وعدني الملك كوريام بالأمان طالما نحن هنا، ولكنه لا يضمن سلامتنا في الصباح ونحن نغادر إلى مراكبنا.

قال أحدهم:

- إن بريق الخرز وجماله هو هدف القوم، وقطعاً يا سيدي سيهاجموننا هنا ليسلبوا منا ما بقي لنا من خرز.

ثم بدأ المتحدث ينظر إلى العشة التي بدت له كقبر كبير.

فهم الزبير تلك النظرة وقال:

- أرجو ألا يتملككم الخوف، فأنا أثق في وعد الملك كوريام، فنحن آمنون حتى موعد مغادرتنا لهذه العشة والاتجاه صوب النهر، وعندما طلبت منكم أن تناموا طلبت ذلك لأنكم متعبون، فقد كان يومنا مرهقاً فلا بُدَّ أن تناموا لتكتسبوا راحة وطاقة تستعدون بها للقتال، فيقيني أن الأهالي سيهاجموننا ونحن في الطريق.

أذعن الجميع لحديث الزبير وأبقوا بنادقهم إلى جانبهم قبل أن يداعب

الوسن أجفانهم وينامو نوماً لا يخلو من قلق واضطراب، غير أن الزبير لم يغمض له جفن، فقد كان مستعداً لكل الاحتمالات بما في ذلك مهاجمتهم داخل هذه العشة، فبدأ يفكر في بدء السير خلال هذه الليلة دون انتظار الفجر، وقبل أن يوقظ رفاقه لتنفيذ فكرته بالمغادرة نهض وأخذ يراقب مدخل العشة ثم خرج ووقف أمام ذلك المدخل مستطلعاً المكان من حوله. كان الليل هادئاً والقمر يغازل السحب الداكنة، فتمنع ضوءه تارةً وتسمح به طوراً، فبدا الطريق خالياً وآمناً، غير أن الزبير ومع تلك البروق الخاطفة التي بدت تنتظم السماء يتبعها الرعد، رأى شيئاً فوق الأشجار، فتبين له أنهم ثلة من أشرار القوم كامنون فوق الأشجار بأسلحتهم البيضاء، فأيقن أن خروجهم في هذه اللحظة سيكون مغامرة غير محسوبة العواقب، وفضل أن يتم التحرك صباحاً لتتضح الأهداف وتستقر رصاصاتهم في رؤوس من تستقر، ومرحى بعد ذلك بالموت.

(٢١)

قبل أن يعود الزبير إلى داخل الكوخ بدت له دهمة سوداء تتحرك بـاتجاهه، فظن أنهم مجموعة من الأهالي أو فرقة الإعدام التي تريد تنفيذ الحكم، غير أن سحابة سوداء أطلقت سراح القمر، وعلى ضوئه تبين له أن تلك الدهمة السوداء لم تكن سوى أسد ضخم تقوده حاسة شمه القوية إلى من بداخل الكوخ وأمامه، فابتسم الزبير صائد الأسود، وقال وهو يحكم قبضته على بندقيته:

– أيها الليث لقد اخترت نفسك لتكون ضحيتنا الأولى، فلا بأس أن نبدأ بك..!

الأسد يتقدم وهمهمات خائفة يصدرها الأشرار من فوق الأشجار والزبير يصوب فوهة بندقيته ناحية الأسد، واضعاً أصبعه على الزناد، مترقباً اقتراب الأسد الذي بدأت خطواته تسرع، ثم حانت اللحظة والقلوب يزداد نبضها والغدد الكظرية تدفع للأجساد مزيداً من هرمون الأدرينالين، وقد أيقن ساكنو الأشجار أن الأسد سيفيهم مغبة قتل الزبير ورجاله، فهم يعرفون هذا الأسد ويخافونه، فقد قتل الكثيرين منهم من قبل، ويستطيع بسهولة أن يفعل بالزبير ورجاله ما فعله بهم من قبل، وبعدها سيسلبون ما في ملابس الضحايا من خرز. بدأ الأسد يقفز والزبير واقف وصامد في مكانه، وعندما شرع الأسد في قفزته الثانية أطلق الزبير من بندقيته الرصاصة الأولى، فأصابه بجرح جوار أذنه، فزأر الأسد الجريح وأكمل قفزته الثانية، وعندما شرع في قفزته الثالثة كان الزبير قد أطلق عليه رصاصة ثانية بين العينين، فخر ساقطاً قريباً منه، وقريباً من عتبة الكوخ، فوضع الزبير رجله فوق جسد الأسد بعد أن استحال زئيره إلى حشرجة وشخير همد بعدها، وقبّل الزبير بندقيته ونفخ الدخان المنبعث من فوهتها، وخاطب صريعه قائلًا بزهوٍ وفخرٍ:

– الجابك لي شنو..وللا رفاقتك ما كلموك؟!

(٢٢)

من فراشه هبَّ الملك كوريام مذعوراً بعد أن غشي صوت الرصاصتين أذنيه، وانطلق يعدو ورجاله نحو مبعث الصوت، وما أن رأى الكامنين فوق الأشجار مليكهم يعدو حتى هبطوا من تلك الأشجار وانضموا إليه، وعندما أبصر الملك الأسد صريعاً تحت حذاء الزبير حتى تقدم نحوه وأخذ يطوق عنقه بيديه ويحتضنه بقوة، معبّراً عن فرحته الكبرى، وتبعه في ذلك كل من كان معه وهم جذلى مبتهجين وينظرون إلى الزبير نظرات إعجاب كبير. عندها خرج رفاق الزبير الثلاثة من داخل الكوخ، كل منهم ممسكاً ببندقيته في وضع استعداد كامل للقتال، غير أن الزبير الذي تخلص من عناق الملك كوريام رفع لهم كفه وأمرهم بخفض أسلتحهم. أخذ الملك كوريام برأس الزبير بين كفيه وبأنفاس متهدجة ووجه مبتسم قال له:

- لقد ظل هذا الأسد قرابة ثلاثين عاماً سوط عذاب على هذه الجزيرة، في كل ليلة يقتنص منا شيئاً، وقضى على أكثر من مئتي ضحية من الأهالي بخلاف الأطفال والماشية، وقد بذلنا العديد من المحاولات للقضاء عليه ففشلنا أن نتخلص منه، ومن شروره، والآن يا زبير قدمت لنا خدمة عظيمة بقتلك لهذا الأسد اللعين، عليه لن يمسك أحد أو يمس رجالك سوء أبداً.

ثم التفت الملك وأمر أحد رجاله بإحضار لبن ورماد حالًا. بعد تنفيذ الأمر أخذ كوريام يصب اللبن فوق الزبير وينثر عليه الرماد وكذلك فعل زعماء القبيلة، وبينما كانوا يصفونه بعبارات التجلة والتشريف، كانت الشمس تشرق وترسل من نورها إشراقات السلام والمحبة، وكوريام يستأنف حديثه قائلًا:

- الآن صرت يا زبير أخاً وواحداً من أفراد جزيرتي، ولن يجرؤ أحد أن يلحق بك أو برفاقك أي أذى أو ضرر، فقد عرفنا لأي أنواع الرجال

تنتمي، ورأينا أنك تملك أسلحة أمضى وأشد فتكاً من أسلحتنا، ونرغب في استبقائك بيننا بصفة دائمة، ونجعل منك زعيماً كبيراً معظماً فينا، وسنعاملك بكل تشريف وتوقير وتكريم، ولكنك لن تذهب عنا إطلاقاً، بل ستبقى معنا أبد الدهر، لتقتل لنا أعداءنا كما قتلت هذا الأسد، وستكون ابنتي الشابة زوجةً لك. كان الزبير في تلك اللحظات مشغول الفكر برجاله الجوعى في المراكب، فقال:

- رفاقي لا يزالون جوعى في المراكب، ولن أستطيع أن أفكر في أي شيء آخر قبل إمدادهم بالطعام.

على إثر ذلك أرسل الملك الأبقار للمراكب وعبر الأهالي عن امتنانهم بتقديم سلال من السعف مملوءة بالحنطة وقراباً مملوءة باللبن الخاثر، فتم تزويد المراكب بكل هذا الزاد، غير أن الزبير بقي محفوفاً ومطوقاً من قبل حراسه الجدد والمعجبين به حد الافتتان. وزف الملك ابنته إلى الكوخ الذي خصص للزبير، كانت في عمر الزهور تلفها الوسامة وتعتورها المودة، فظلت في ذلك الكوخ لثلاثين يوماً دون أن يقربها الزبير، الذي لم يكن ينوي البقاء مع هذه القبيلة، ولا أن يخلّف له ولداً لا يراه بعد ذلك.

(٢٣)

في ذات ليلةٍ، وبعد أن هيأت له الطعام دنت الفتاة من الزبير وركعت إلى جواره جاثيةً على قدميها، وابتدرته قائلة:

- هل أنا دميمة بشعة وقبيحة الخلق، وهل بدر مني ما يعكر صفوك، أو لا يسرك ويرضيك حتى تنصرف عني هكذا ولا تبتغيني ألا أعجبك..؟!، قبل أن يرد عليها الزبير قفزت إلى رأسه خطة ربما تخلصه من أهالي جزيرة بوهول المتمسكين به كالمعتقل. كان على الزبير أن يمازج بين رده على ابنة الملك كوريام وبين خطته الهادفة للتخلص من جزيرة بوهول ومغادرتها للأبد، فهو يرغب في ذلك رغم إعجاب أهلها به واحترامهم وتقديرهم له، ولكن في الواقع كان قيد الإقامة الجبرية داخل الجزيرة وغير مسموح له بالوصول إلى شاطئ النهر، حيث ترسو هناك مراكبه وبها جميع رجاله، وكل ما جمعه من بضائع ثمينة كسن الفيل والجلود والصمغ، تعب في جمعها ويرغب في تصريفها بالخرطوم، وليفي بوعده بإعادة ابن عمه محمد لأهله بالجيلي، فهو الآن ساعده الأيمن ينتظره مع بقية الرجال على شاطئ النهر داخل المراكب التي صارت لهم سكناً لمدة استطالت لأسابيع كثيرة. نظر إليها فخفق قلبها وقال لها:

- أشهد أيتها الأميرة بأنك جميلة وعطوفة وودودة.

- أنا أحبك حباً ملك عليَّ شغاف قلبي.

- وأنا أحبك كثيراً أيتها الأميرة.

- إذن لماذا لا تفعل معي ما يجري بين الأزواج.

- حتماً سأفعل ولكن ليس الآن.

- لماذا يا حبيبي؟

صمت الزبير صمتاً جعل وجه الأميرة يتماوج ويختلج ولم يهدأ إلا عندما بدأ يتحدث إليها قائلاً:
- قد لا تفهمين ولكن عليك أن تفهمي ما سأقوله لك.
- أنا أسمعك وسأفهم كل حرف تقوله يا حبيبي.
من فتائل ذكائه وحنكته، بدأ الزبير ينسج خيوط خطته وهو يقول للأميرة ابنة الملك كوريام التي عصفت بها الأشواق:
- قد تعتبرين نفسك زوجةً لي وهذا ما يظنه والدك وأهلك وبقية قومك، ولكن الأمر عندي مختلف.
- كيف ذلك يا حبيبي، فقد اكتملت مراسم زواجنا وزفني والدي بنفسه إلى هنا.
- نعم، هذا صحيح ولا اعتراض لي على ما تم، ولكن عليك أيضاً أن تفهمي أن المراسم التي اكتملت كانت وفقاً لتقاليدكم واعتقاداتكم، التي تختلف عن ديني وعن تقاليدنا، فأنا أُدين بالإسلام ولنا تقاليد لازمة الاتباع.
- كيف ذلك وكيف يكتمل حتى أكون زوجةً لك في نظرك.

- المسلمون لا يتزوجون بالطريقة التي يتزوج بها قومك.
- وكيف تتزوجون؟

- أهم ما في أمر زواجنا كمسلمين أن يتم العقد بواسطة أحد الفقهاء المسلمين، كما يجب على الزوج أن يقدم هدايا لزوجته.

- ومن أين تأتي بهذه الهدايا وكيف ستجلب ذلك الفقيه المسلم.

- الأمـر بسـيط وسـهل، فالهدايـا موجـودة داخـل مراكبـي الراسـية علـى شـاطئ النهـر، ويوجـد فقيـه هنـاك بـين رجـالي ويمكننـي أن أنجـز الأمـر سريعـاً لـولا العقبـة الـكأداء التـي وضعهـا والـدك وقومـك في طريقـي، بعـدم السـماح لي بالمغـادرة إلى حيـث توجـد مراكبـي ويوجـد رجـالي.
أيقـن الزبـير مـع تلـك الابتسـامة التـي دفعتهـا الفرحـة إلى وجـه الأمـيرة، أن خطتـه في طريقهـا للنجـاح، فمـن خلـف ابتسـامتها قالـت لـه:

- مـع بـزوغ الفجـر سـأذهب لوالـدي وأقنعـه بالسـماح لـك بالذهـاب لتـأتي بالهدايـا والفقيـه.

- إن نجحتِ في ذلك سنصير في الغد زوجين.

لم تسعها الفرحة وهي تقول:

- يـا إلهـي ويـا فرحتـي، غـداً سـأكون زوجـةً لأعظـم وأشـجع رجـل رأتـه عينـاي.

- الليـل أليـل يـا حبيبتـي نامـي في حفـظ الله ورعايتـه وفي الفجـر اذهبـي لوالـدك.

قالت له وهي ترمقه بنظرة حب:

- أريـد بعـد أن تتزوجنـي أن أصبـح مسـلمةً مثلـك، ولكنـي خائفة

مــن أبي وقومي.

صمــت الزبــير وكاد أن يعــدل مــن خطتــه بالمغــادرة، فهنــاك مــن يريــد أن يدخــل الإســلام ولكنــه وازن بــين هــذه المصلحــة ومصالــح أخــرى في ذهنــه وقــال لهــا:
- نامــي الآن ودعينــا في مــا بعــد نفكــر في الأمــر.
- أريــد أن أنــام إلى جــوارك وبــين أحضانــك..!
- لا هــذا لا يجــوز الآن، ســنفعل ذلــك كثــيراً ابتــداءً مــن الغــد.
- إذاً لــن أنــام، فقــط نــم أنــت ودعنــي أنظــر إليــك وأتمــلاك إلى أن يــأتي بيــاض الصبــح، فقــط أنظــر إليــك..!
ابتسم الزبير وأغمض عينيه.

(٢٤)

كان الزبير في دوامة من التفكير وهو مغمض العينين فرحاً بخطته التي أيقن أنها ستنجح، وأنه عندما يصل مراكبه لن يعود إلى هنا مطلقاً مهما كلفه الأمر، لقد اشتاق لمراكبه ولرجاله، وفجأة أطل وجه إبراهيم الدنقلاوي مساعد ود عموري الذي قُتل في تلك المعركة، لقد كان صديقه وحزن كثيراً لموته المأساوي، كانت تجري بينهما مسامرات وأحاديث ويملكه أسراراً ومعلوماتٍ، فعندما كان الزبير يرى أولئك السود من عبيد ود عموري في مركبه، ويرى كيف كان يعاملهم بغلظة وقسوة ويضربهم بالسياط، كان ينكر الأمر ويستهجنه ويسأل إبراهيم الدنقلاوي عن كل هذا، ويذكر في واحدة من تلك المرات قال له:

- بدأت ظاهرة الرق في منطقة السودان في أوائل القرن الخامس عشر بنفس الكيفية التي انتشرت بها في العالم عن طريق الغزو والأسر وغيرها، وذلك في عهود دولة الممالك كمملكة الفونج وسلطنة دارفور والمشيخات الأخرى، واستمرت حتى عهد الحكم التركي ودولة المهدية وفترة الحكم الثنائي، وشاركت فيه مجموعة من زعامات المناطق وشيوخها في تلك الفترة بنفس الصورة البغيضة في معاملتهم. وبرزت الظاهرة في مملكة الفونج بكل عنفوانها، حتى إنه قد قدر عدد الرقيق في القرن السابع عشر بقرابة الأربعة عشر ألفاً، استُخدموا جميعاً كسُخرة في شتى المجالات وبشكل خاص في جيش الملك وقصره.

- إن كان أمر الرق أمراً واقعاً، فلا بُدَّ من معاملتهم معاملة إنسانية والاستفادة منهم بطريقة لائقة.

يذكر الزبير أن إبراهيم الدنقلاوي دفع إلى وجهه ابتسامة

هازئة، وقال له قبل أن تستحيل ابتسامته إلى ضحكة متهكمة:
- لا تقل لي يا عزيزي إنك ستفعل هذا؟
صمت الزبير وقال لنفسه:

- سأفعل ذلك بمشيئة الله.
تلك الذكريات دفعت بالنوم إلى أجفان الزبير، وعندما استيقظ لصلاة الفجر لم يجد ابنة كوريام في الكوخ، وعقب الصلاة كانت الأميرة تدفع بيدها باب الكوخ وهي تصرخ:
- لقد وافق أبي، نعم وافق وأرسل معي ثلاثين من رجاله ليصحبونك إلى المراكب، تعجَّل يا حبيبي إنهم بانتظارك، وعُدْ لي بهداياك وبالفقيه.
خاطب الزبير نفسه:

- ثلاثون رجلاً..؟!

من باب الكوخ أخذت ابنة كوريام تلوح بكفها للزبير، وقد تحلق من حوله ثلاثون رجلاً من المحاربين الأشداء المسلحين والزبير يفكر في الخلاص، وهو بينهم فهم ومليكهم لن يتركوه يذهب، يريدون إبقاءه هنا للأبد. بعد مسيرة شاقة وصل الزبير وحراسه إلى المراكب، فاستقبله رجاله وابن عمه محمد عبد القادر استقبالاً رائعاً، وفرحوا بعودته فرحاً كبيراً، بعضهم أدمع وبعضهم بكى قال لهم:
- هل لديكم ما يكفي من الطعام؟

- نعم، لدينا منه الكثير.

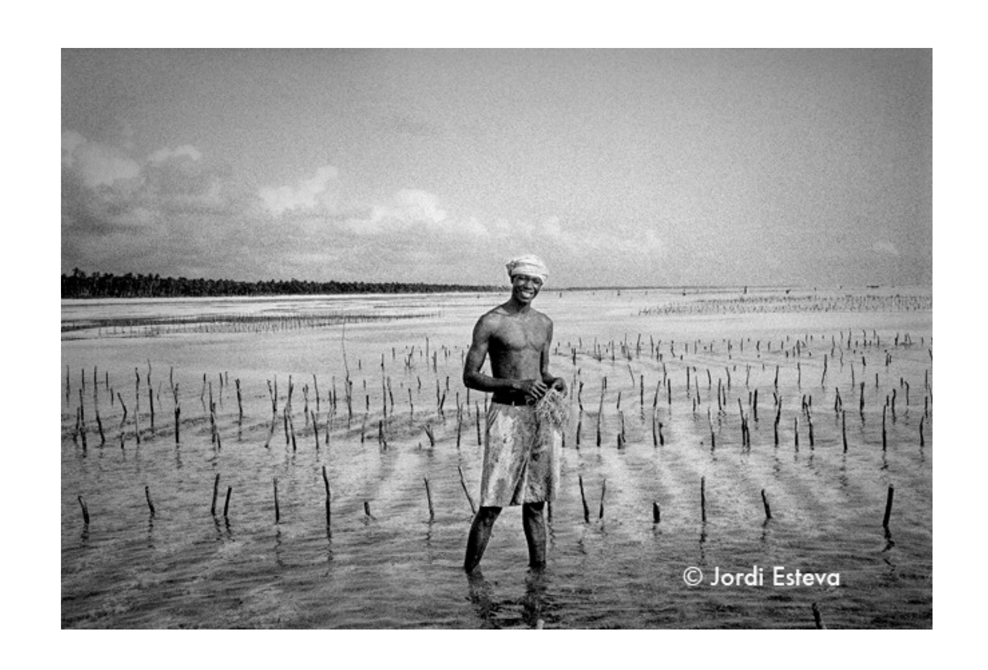
- كل البضائع سليمة؟

- نعم، كلها سليمة.

- هل المراكب جاهزة للإبحار؟

- نعم، يا سيدي الزبير، ولكن هل ستبحر معنا أم سنبحر دونك؟

عندها التفت الزبير لحراسه الثلاثين المتحفزين، الذين كانوا يستعجلونه لإنهاء مهمته والعودة معهم. تلك الالتفاتة عنت لرجال الزبير أنه معتقل ولا بُدَّ من فعل شيء لإنهاء حالة الاعتقال هذه..!



الفصل الثالث

البطل رابح ينضم للزبير
وتكمة يغدر بصهره

(١)

الزبـير الـذي وصـل إلى رجالـه ومراكبـه المكدسـة بالبضائـع والمـزودة بالمؤن،امتـلأت نفسـه بمشـاعر التـوق للأهـل والإبحـار وإكـمال مسـيرته نحـو الخرطـوم، وهـي مشـاعر كدرهـا وجـود رجـال الملـك كوريـام الذيـن لـن يتركـوه ليذهـب. فهـم حراسـه الذيـن اعتقلـوه حباً.نظـر إليهـم وقـال:

- إني أبادلكـم حبـا بحـب وأقـدر ملككـم كوريـام وابنتـه، ولكنـي تاجـر تـرك خلفـه زوجـة وفي أحشـائها ولد،وأنـا لم أر أهـلي لمـدة طويلة، فليـس مـن العـدل أن تسـتبقوني بينكـم إلى الأبـد.. دعـوني أرحـل.

- لا لـن ندعـك ترحـل يـا زبـير، فنحـن نحبـك ونحتـاج لمسـاعدتك، وقـد وهـب لـك ملكنـا ابنتـه وبنـى لـك كوخـاً جميـلاً، ونحـن لا نسـتطيع أن نخالـف أمـر ملكنـا الـذي أمرنـا أن نعـود بـك حـال أن تنهـي مهمتـك.

وعندمـا ترجـم الزبـير حديثهـم لرجالـه انفجـر ابـن عمـه محمـد عبـد القـادر بحديـث غاضـب، فطلـب قائـد الحـراس مـن الزبـير أن يوضـح لهـم مـا قالـه محمـد فقـال لهـم:

- هـذا الرجـل الشـجاع يقـول لكـم: نحـن أيضـا نحـب الزبـير، وقـد أحببنـاه مـن قبلكـم وهـو كبيرنـا وزعيمنـا ومـن أتـى بنـا إلى هـذه الأصقـاع النائيـة، وعـبر هـذه الأنهـار، وإذا حـاول أن يهجرنـا ويتركنـا بعـد أن سـاعدناه ورافقنـاه طويـلاً وانتظرنـاه هنـا كثـيراً، ويعـود معكـم ليقيـم معكـم، ولأجـل أن يتـزوج بابنـة ملككـم، فسيسـتحيل في نظرنـا إلى رجـل تافـه لا أخـلاق لـه ولا خـير فيـه، وسـنقتله حـالاً ببنادقنـا، فنحـن نملـك الأسـلحة الناريـة التـي سـتقضي عليـه وعليكـم أجمعـين، فعليكـم أن تخلـوا سـبيله وأن تدعـوه ليمـضي معنـا، فبذلـك وحـده تبقـون عـلى حياتكـم وعـلى حياتـه.

(٢)

الخبرة التي اكتسبها الزبير في المعارك والمفاوضات السلمية والتعامل الآمن مع الأهالي في هذه الأصقاع البدائية والمجهولة مكنته من معرفة الأثر الذي وضعه هذا القول التهديدي في كيانهم فقال يخاطب قائد الحراس:

- أيرضيك أن أموت برصاص أصدقائي الذين أحبهم كما أحببتكم، وهل تريدون أن تتحولوا إلى جثث تطفو فوق سطح النهر ملطخة بالدماء؟ لماذا لا نعمل على أن تكون في أذهاننا ذكريات جميلة عن لقائنا نركن إليها كلما جن الليل أو أصابنا الشجن. دعوني أرحل بسلام فربما تكتب لنا الأقدار لقاءً آخر. غرس قائد الحراس حربته في الأرض والتفت لرجاله وتحدث معهم حديثاً قصيراً، ومن ثم اتجه بهم جميعا ناحية الزبير وأخذوا يعانقونه وفي قلوبهم حزن وأسى وتعتلق بأعماقهم قسوة الفراق، ولكنهم لم ينصرفوا إلا عندما تخلصت المراكب من مراسيها وأطلقت أشرعتها للرحيل، فلوحوا للزبير بأكف الوداع والزبير يقول لهم:

- أحبكم جميعاً. وداعاً ولا تنسوا أن تبلغوا ملككم العظيم كوريام وابنته الجميلة تحياتي ومحبتي. ثم أخذ ينظر إليهم حتى غابوا في الأفق. فيا ترى ما الذي أحدثته الأميرة من بعده؟ فالزبير لم يرها بعد ذلك اليوم مرة أخرى وفي خاطره تختال أطياف غابرة وشوق يهز الرواسي للأم والأب والزوجة والولد.

الأفق يقع في نظر الزبيرا وأشجانه العميقة تجلس فوق وجهه الصلدا وتتماوج مع صوت المراكب وهي تضرب سطح النهر وتأخذ من صلابته، فتتمازج فوقه قوة وضعف أزالتهما كف

صديقه وابن عمه محمد عبد القادر وهي تهبط فوق كتفه:
- الزبير أخويخلاس إنجلت الغمة وبإذن الله نصل سالمين غانمين ونلقى كل الأهل سالمين.
رد عليه باقتضاب:
- إن شاء الله. ثم واصل نظره إلى الأفق البعيد.

(٣)

لم تكـن رحلـة العـودة سـهلة، فقـد جابـه الزبـير ورجالـه فيهـا متاعـب جمـة ومشـاق عديـدة، فقـد جابـوا عـلى غـير هـدى تلـك الأنهـار التـي تغـذي بحـر العـرب. تاهـوا فيهـا لشـهور عديـدة أصيـب فيهـا كثـير مـن رجـال الزبـير بالمـرض والجنـون، وتناقـص الـزاد ومـات الكثـير مـن الرجـال المـرضى والجوعـى، والزبـير ومحمـد يصمـدان، والقليلـون الذيـن تمسـكوا بالحيـاة قادتهـم إرادتهـم للبقـاء، ثـم لاحـت لهـم مـن بعيـد قريـة تقطنهـا قبيلـة مـن صائـدي الأسـماك، وعندمـا أدركوهـم سـاعدوهم ببعـض خـبراء المسـالك. فدلوهـم إلى الطريـق الصحيـح، ولمـا كان الزبـير بحاجـة للمزيـد مـن الرجـال بعـد أن فقـد جـل رجالـه قـام باسـتئجار الكثيريـن، واسـتمرت الرحلـة بـكل مشـاقها حتـى وصلـت المراكـب وهـي تحمـل أثمـن وأقيـم مـا شـحن بهـا مـن بضاعـة، وأصبـح كل شيء بعـد ذلـك واضحـاً وممهـداً أمـام الزبـير، وأصبـح يشـعر في نفسـه وكـما جـاء عـلى لسـانه: إن تلـك هـي الإرهاصـات الأولى لبدايـة الرجـل العظيـم الـذي سـوف يكونـه.

لا يـزال رحمـة قـادراً عـلى حمـل المعـول والذهـاب للإتجـار في السـوق، وشـمة يكسـو وجههـا الحـزن. وفاطمـة وعائشـة يطـوف مـن حواليهـما أطفالهـما. وبطـران يمـلأ المطامـير وينظـر بفـرح لأبقـاره وأغنامـه. وعائشـة بنـت منصـور ترضـع طفـلاً.

هكـذا وجـد الزبـير أسرتـه عندمـا دخـل إلى الجيلي في موكـب مهيـب مـن الرجـال بينهـم ابـن عمـه محمـد عبـد القـادر، يحملـون الهدايـا. وعندمـا تعرفـوا عليـه بغـير عنـاء انطلقـت الزغاريد،وأعلاهـا صوتـاً وترديـداً كان صـوت زغـرودتي شـقيقتيه فاطمـة وعائشـة. بكـت والدتـه شـمة التـي وضعتـه كثـيراً بـين أحضانهـا وكانـت تقـول لـه:

- كنت خايفة أموت قبال ما أشوفك يا جناي ويا ود حشاي.
ثم أخد الزبير يمسح دموعا غزيرة بللت وجه أمه شمة. كان والده رحمة وشقيقه بطران ينظران إليه بفخر وإعزاز، وعمه عبد القادر يضرب كفه بقوة ويقول:
- أنا كلمتهم كلهم إنو حدباي بجيب لينا محمد كان طال الزمان ولا قصر. حيا الزبير زوجته الست عائشة بت منصور بمودة، ثم أخذت مشاعر الأبوة تغزوه للمرة الأولى وهو يرفع ابنه الرضيع الذي ولد في غيابه ويحتضنه وهو يقول:
- شن سميتوه يا عائشة؟
- سليمان. سميناهو سليمان.
نظر الزبير مليا إلى طفله وقال:
- سيكون خليفتي وقائداً لجيشي.
- إنتا مرقتا مننا بى جلابيتك ومصحفكجيش شنو الداير تسويهو؟
ضحك الزبير وخرج ليلتقي بالذين توافدوا للترحيب به ولينظر إلى أرض الطفولة والنشأة.نظر الزبير إلى قريته وتنتابه مشاعر ذلك الشاعر الذي قال:

إلى قريتي قد عدت يا قلب ثانيا ❋❋ وهذا محياها يطل أماميا

أحدق فيه والرؤى تستثيرني ❋❋ فأنظر ظمآنا إلى الأهل صاديا

أعود إلى أهلي و مثوى أحبتي ❋❋ ونبع صباباتي وماضي شبابيا

وفي خاطري تختال أطياف غابري ❋❋ وفي خافقي شوق يهز الرواسيا

وتنظر عيناي الربوع و تنثني ❋❋ يمين بها تسعى وأخرى شماليا

وهاتيك أمي هدم الشوق عمرها ❋❋ فغاضت أساريراً و شابت نواصيا

تقبلني في الخد والنحر والحشا ❋❋ وتذرو على صدري الدموع الغواليا

وجد الزبير نفسه بين أصحابه ورفاقه فقالوا له:

- هل ستعود للجنوب مرة أخرى؟
- نعم سأعود.
- لكن يا الزبير ما قالوا الجنوب ده فيهو تماسيح صعبة وحشرات مسممة وموية وسخة وما بعيشو فيهو إلا الجهامات والبعيوات وكلهم كفار لا بعرفون الله ولا الرسول. وقالوا الحيوانات الكبيرة والمتوحشة ما تديك الدرب يعني الموت هناك راقد.
ضحك الزبير ورد قائلاً:
- وكمان فيهو ناس بياكلو الناس. وبياكلو بعضم.
- أعوذ بالله..!
- بس لازم أرجع. والبدور منكم يمشي معاي بسوقوا.
لم يكن أحداً يدري بأن العودة كانت وعداً بالفتح والملك والمجد الأثيل.

(٤)

عرف الناس بالجيلي أي نوع من الرجال هو الزبير بعد زيارته لهم عائداً للمرة الأولى من أدغال الجنوب. نعم كانوا يعرفونه فارساً شجاعاً وفقيهاً متعلماً وخلوقاً مهذباً وتاجراً صغيراً أميناً. ولكنهم عندما علموا من رجاله بما فعله في الجنوب وكيف خاض المعارك وركب الأهوال دنت من وجدانهم من جديد تلك النبوءة وتجددت في أعماقهم وفي وجدانهم. فلابد أن الزبير سيصير ملكاً. وعندما حانت لحظة وداعه لهم ليسافر إلى الخرطوم لتصريف بضاعته قالت له والدته شمة:

- الزبير يا ولدي ما تغيب عني كتير. بدور أشوفك تاني قبال ما أموت. ولالا خلاس أقعد معانا ومع أولادك.

تولى زوجها رحمة الرد فقال لها:

- الزبير يا شمة بجينا راجع. بس لازم يمشي. عندو بضاعة في الخرطوم وماشي يجيب غيرا من الجنوب. وبجي راجع. ولدك يا شمة بجيك ملك. ولالا ماك مصدقا شيخي ود البشير.

- رضي الله عنه كيفن ما بصدقو؟

انصرف الزبير بعد وداع والديه إلى وداع أصدقائه فقال لهم:

- أنا بمش الخرطوم.. والداير يمشي معاي يلحقني هناك.

قال له محمد عبد القادر:

- أنا يا ودعمي ما مفارقك تب. حتى كان أكلوني النيام نيام العرستا منهم الأميرة رانبوة بت الملك تكمة. ولالا دسيت خبرها من أهلك؟

- أفـو يـا محمـد. إت مـا بتعـرف ود عمـك ولـلا شـنو. مـرة شـنو البـدس خـبرا؟ أبـوي وأمـي ومـرتي عائشـة كلهـم كلمتهـم. وكمان عرفـوا إني خليتـا حامـل.

- هـلا هـلا يـا الزبـير. إت زي بندقيتـك. ضربـك بصيـب ومـا بختـى..!

بعـد الضحكـة التـي جمعـت الأصدقـاء ذهـب الزبـير وطبـع قبلـة عميقـة عـلى جبـين ابنـه سـليمان وخاطبـه بلغـة لـن يفهمهـا ذلـك الرضيـع: يـا بطـل أبـوك راجيـك في شـان تخلفـو بـإذن الله. بجـي اليـوم البسـوقك فيهـو. ودع بعدهـا زوجتـه عائشـة بـت منصـور وداعـاً ودوداً لم تتحمـل ويلاتـه وقالـت دافعـة إليـه بأمنيـة جديـدة:

- إن شاء الله زراعتك تبتق يا أبو سليمان..!

- بـإذن الله ويـا عاشـة. والمـرة دي كان جـا ولـد سـموه عـلى أبـوي رحمـة. وكان بـت ياهـا شـمة.

سـار عنهـا الزبـير وهـي ترفـع لـه كـف الـوداع. ومـن خلـف خبائهـا أخـذت عائشـة بنـت منصـور تنظـر إليـه بعـين دامعـة وهـو في موكبـه الـذي ضـم معـه رجالـه وبعـض أصدقائـه الذيـن فضلـوا أن يرافقـوه فـوراً. وعندمـا حانـت مـن الزبـير التفاتـة رأى خطـين أسـودين يرتسـمان عـلى وجـه زوجتـه فأخـذ يـردد مـا قالـه ذلـك الشـاعر القديـم:

لما تنـــادت للرحيـــل جمالنا ** وجدَّ بنا سيرٌ وفاضت مدامعُ

تبدت لنا مذعورة مـن خبائــهـا ❋❋ وناظِرها باللؤلؤ الرطب دامـعُ

أشارت بأطـراف البنان وودعــت ❋❋ وأومت بعينها متى أنت راجعُ

فقلت لها ما من مسافرٍ يسيرُ ❋❋ ويدري مـا بـه اللهُ صانــعُ

فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها ❋❋ فسالت من الطرف الكحيل مدامعُ

وقالت إلهي كـن عليه خليفــةً ❋❋ ويارب ما خابــت لديك الودائعُ

(٥)

في الخرطـوم بـدأ الزبـير عملـه الكبـير في التجـارة. يكابـد ويجاهـد ويعمـل لحسـابه الخـاص. وانضـم إليـه مـن انضـم مـن أترابـه وأصدقائـه وزملائـه الذيـن درسـوا معـه في الخـلاوي بالخرطـوم وخـلاوي الغبـش بالنيـل الأبيـض. ومـن أهلـه وقبيلـة الجميعـاب والجموعيـة والناعـماب. واسـتطاع بمعاونتهـم أن يـصرِّف بنجـاح مـا غنمـه مـن تجـارة رابحـة. وبـدأ يشـتري الخـرز والـودع والقصدير والدمـور. وهـي البضائـع التـى يهواهـا أهـل الجنـوب ويمكـن مقايضتهـا بسـن الفيـل وريـش النعـام والخرتيـت والجلود. وعندمـا امتـلأت المراكـب بـدأ الزبـير في اسـتئجار مئتـي رجـل ليعملـوا كحـراس لـه. فهـو يعلـم أن التجـارة في الجنـوب بهـا مـا بهـا مـن المخاطـر. لـذا سـلح حراسـه. وعـلى الرغـم مـن أن رجـال الزبـير كانـوا مسـلحين تسـليحاً جيـداً فقـد ظـل حريصـاً عـلى أن يسـتمر السـلام سـائداً. إلا أنـه كان شـديد الحيطـة والحـذر. قبـل أن يأمـر الزبـير مراكبـه بالتحـرك عـاد إلى الجيـلي في زيـارة سريعـة كـما اعتـاد خـلال تواجـده بالخرطـوم. ليجـد في الجيـلي ابنـاً آخـر. إنـه رحمـة كـما أمـر أن يسـمى. كان مولـوداً بـه ضعـف وهـزال. ومـا لبـث أن مـات. فحـزن عليـه. فواسـاه والـده رحمـة قائـلاً:

- يـا الزبـير لا تحـزن. أنـا قبالـك دفنـت أخـوك عبـد الرسـول وربنـا عوضنـي بيـك. وإن شـاء الله ربنـا بعوضـك.

لم يمكـث الزبـير بعدهـا كثـيراً بالجيـلي. وفي طريـق عودتـه إلى الخرطـوم كانـت النـاس تسـتقبله بتجلـة واحـترام. وفي منطقـة الحلفايـة دعـاه محمـود ملـك الحلفايـة فلبـى دعوتـه. حيـث لقـي معـه شـخصاً يحتاجـه. كان الزبـير يرغـب في ضـم المزيـد مـن الرجـال الأشـداء أصحـاب الخـبرة العسـكرية. وشـاءت

الأقـدار أن يلتقـي في الحلفايـة بأحدهـم الـذي صـار فيـما بعـد قائـداً مـن قـواد جيشـه العظيـم. في تلـك الدعـوة طلـب الزبـير مـن الملـك محمـود أن يمـده بمجموعـة مـن الشـباب أصحـاب الخـبرة العسـكرية في السـلاح والقتـال. فأجابـه الملـك لطلبـه. وكان بينهـم شـاب طويـل القامـة بشرتـه سـوداء نحاسـية ترتسـم عـلى خديـه الشـلوخ التـي تميـز أبنـاء قبيلـة الشـايقية. ولكـن الزبـير سـمعه يتحـدث بلهجـة الدناقلـة. فأثـاره الأمـر وذكـره بصديقـه المرحـوم إبراهيـم الدنقـلاوي فاسـتدعاه وسـأله:

- إسمك منو؟
- إسمي النور الملك محمد عبد الله أبو سوار.
- وجنسك شايقي مش؟
- لا لا ياسيدي.. الزبير أنا بديري دهمشي.
- وشـلوخ الشـايقية الفـي وشـك ديـل شـنو؟ ورطانـة الدناقلـة دي شـنو؟
- سـيدي أنـا مولـود بدنقـلا واتربيـت في بيت الملك طمبل ادريس ملك أرقو ببلاد النوبة والمناطـق الشـمالية دي كلهـا متداخلـة. شـلخونا شـوايقة واتعلمـت لهجـة الدناقلـة.
- طيب شن بتعرف عن العسكرية وضرب النار؟
- أنـا عسـكري تدربـت في مـصر واشـتغلت في الخيالـة مـع الجيـش التركـي في الـشرق، ولمـا سـمعتا بيـك قتـا أخـلي الجيـش التركـي وأجـي أشـتغل معـاك. والحمـد لله الملـك محمـود بـشرني بـى جيتك وربنـا يسـوي الفيهـا الخـير.
- خـلاس يـا النـور. قبلنـاك مـع رفاقتـك ديـل يـلا نظمهـم عشـان نترافـق عـلى الخرطـوم. قتـا لي إسـمك النـور منـو؟
- أنا النور الملك. بس بقولو لي النور عنقرة.

(٦)

بوصول الزبير إلى مراكبه ورجاله يتبعه النور عنقرة وآخرون، بدأت الرحلة التجارية التي تعاون معه فيها ابن عم له يدعى عبد الرحمن، فقصدا بحر الغزال ومشرع الرق،ثم عادا للخرطوم مرة أخرى، ثم عاودا الكرة، وقد لاحظ الزبير في هذه الرحلات براعة النور عنقرة في التصويب وقتل الحيوانات المفترسة، فعزم أن يخلق منه قائداً لرجاله في واحدة من المراكب التي توجه بها هذه المرة إلى مدينة يقال لها (مندقبا) في بلاد (البونقو). وفي ذلك الزمان كانت المناطق التي تقع جنوب النيل الأبيض لها في نفوس شباب الشمال الذين ترافقوا مع الزبير كالنور عنقرة نفس الجاذبية التي استهوت بعض الشباب الإنجليز ودفعت بهم في أوقات مختلفة لارتياد مجاهل أمريكا وأستراليا المتوحشة تقودهم إليها حملات تجارية تتوغل بهم إلى المغامرات والاستكشاف. فقد كانت تلك البلاد في العديد من أنحائها مجهولة لم يتم استكشافها بعد. وكانت القصص التي تروى عنها تثير التعجب والاستغراب. غير أن الزبير الذي ألم بطبيعة الجنوب وأهله كان يعلم أن سلوك التجار الذين سبقوه إلى مندقبا كان قاسياً مع المواطنين المحليين وأحدثوا هناك قلاقل. ولأنه يحمل في عقله سياسة سلمية ويتوخى أهدافاً سامية فقد كان موقناً من أنه سينجح ويتاجر في أمان مع الأهالي. لذا عندما وصلت قافلته إلى مدينة مندقبا طلب مقابلة الملك (أدوشكو) الذي يعتبر من أعظم الملوك المحليين،إذامتدت رقعة إقليمه لتحتل مساحة واسعة جداً. غير أن الملك رفض مقابلة الزبير وأصدر أوامره بأن يغادر أرضه فوراً.

طلب الزبير من حاشية الملك أدوشكوا التي أرادت تنفيذ أمر الطرد الذي صدر بحقه أن يسمحوا له بتحية الملك وتسليمه بعض الهدايا وأن يودعه ثم يغادر، وبعد رفض وتعنت سمحوا له بما يريد، فدخل عليه الزبير بكم من الهدايا. وبلطف واحترام قال له الزبير وهو يستشعر ذلك الارتياح الذي نجم عن الهدايا التي قدمها له:

ـ إنني يا فخامة الملك لم آتك غازياً إنما تاجراً.

– تقولون ذلك أيها التجار ثم تسومون العذاب لقومي. تنهبوهم وتسترقونهم. إنكم أشرار لا أقبل أن تبقوا في بلادي.

– أنا يا سيدي أختلف عن أولئك التجار وسياستي هي العدل والسلم والعملالتجاري رضاءً واختياراً.

– ومن يضمن لي هذا الأمر؟ وقد قالوا لي إن مراكبك مليئة بالرجال المسلحين. لماذا أتيت بهم إلى بلادي إن لم تكن تستبطن شراً؟

– لا يا فخامة الملك فأنا أعلم أن بلادك بلاد سلم ولكننا في رحلتنا نمر بكثير من البلاد ولدينا بضائع نخشى عليها من السلب لذا لابد أن نكون مستعدين للدفاع عن أنفسنا وأموالنا.

– أسألك للمرة الثانية ما الذي يضمن لي هذا؟

– اسمي يا فخامة الملك.

– وما اسمك أيها الغريب؟

– إسمي الزبير. عندما سمع الملك الاسم رفع حاجب الدهشة ونهض. وقبل أن يقف قبالة الزبير قال له:

– ياه هل حقيقة أنت الزبير؟

– نعم أنا الزبير.

– قالوا إنك كنت في مناحي من الأنهار ثم غادرت ببضائعك.

يقولـون إنـك رجـل غـير قـاس وعـادل ومسـالم وشـجاع. وقـد أنقـذت الملـك تكمـة وزوجـك ابنتـه. ولكـن مـا هـو الدليـل أنـك الزبـير ربـما كنـت محتـالاً تنتحـل شـخصيته.
خلع الزبير قميصه وقال للملك أدوشكو:
- أنظـر. هـذه هـي آثـار الحربـة التـي اخترقـت صـدري ونفـذت إلى كتفـي عندمـا كنـت أحـارب مـع الملـك تكمـة.
بدا الملك أدوشكو مصدقاً وقال للزبير:
- لـك ابنـة لم ترهـا يـا زبـير. رانبـوة أنجبـت لـك طفلـة. وقالـوا لي أن الملـك تكمـة سـعيد بحفيدتـه.
- سيدي لقد أسعدني هذا الحديث وقذف بالبهجة إلى روحي.
- ماذا تريد الآن يا زبير؟
- أريد أن أتاجر. ولن أعمد إلى القوة لأخذ أي شيء قسراً.
- لماذا لا تذهب حيث ابنتك؟
- حسنا سـأذهب. ولكنـي سـأكون سـعيداً ومـسروراً إذا منحتنـي إذنـك بالإقامـة إلى مـا بعـد نهايـة موسـم الأمطـار والخريـف فقـط.
صمـت الملـك أدوشـكو قليـلاً ثـم مـد يـده للزبـير للمـرة الأولى وقـال لـه:
- أسمح لك بالبقاء لمدة ستة أشهر فقط بعدها تغادر بلادي.
- شـكرا يـا فخامـة الملـك. فهـذه المـدة تكفينـي وأعـدك أننـي سـأتاجر بسـلام.
- لا تظـن أننـي أمنحـك هـذه الإقامـة هنـا في مدينتـي مندقبـا. بـل عليك أن تقيـم خـارج المدينـة وسـأحدد لـك المـكان الـذي سـتقيم فيه.
- حسنا سأقبل بذلك.
ودع الزبير الملك أدوشكو الذي قال له:
- هداياك جميلة وقد سررت بها جداً.
- لن تخلو يداي من الهدايا كلما قدمت إليك.

(٧)

خصص للزبير مكانا يبعد نحو أربعة ساعات خارج مدينة مندقبا. وهناك أنشأ الزبير معسكراً وأقام محطة أحسن تحصينها وبنى بها عدداً من المخازن. وظل طيلة الفترة التي حددت له وفياً لمبادئه السلمية ملتزماً بها. وكان يتعامل مع الأهالي بمودة وبعدالة. وكان يقدم الهدايا للملك وأعوانه ومستشاريه كلما قدم لزيارتهم. واستطاع أن يكون صداقات داخل مؤسسة أدوشكو الملكية وأنيبث بينهم العيون تحسباً لأي شر قد يستبطن ضده. وكان الزبير في ذات الوقت يفرض الانضباط الحازم على رجاله ويحذرهم تحذيراً شديداً من المشاجرة مع أي مواطن بأية ذريعة أو لأي سبب من الأسباب. ويقول لهم إن أخذ أي شيء دون دفع ثمنه سيكون مدعاة للعقاب ولو كان ذلك قصبة سكر واحدة. ووضع الزبير قاعدة ثابتة لدفع الأسعار محددة لكل ما يشترى من البضائع. وكانت نتيجة ذلك أن هرع إليه الأهالي بالعاج وبغيره من بضائعهم ومنتجاتهم. كان الأهالي يحتفلون به ومنحوه حبهم ومودتهم وذاع اسم الزبير من جديد في تلك المناطق يسبقه لقب الرجل الشجاع العادل.
لم يستمر الحال هكذا. فقد هبت رياح عنيفة عندما همس أحد مساعدي الملك أدشكو في أذنه قائلا:
- يجب أن تعلم يا سيدي أن التاجر المدعو الزبير قد أنشأ استحكامات وأقام تحصينات حول معسكره بشكل كبير كما بنى العديد من المخازن.
- هذا أمر مقلق سأذهب إليه الآن حيث هو.
عندما وصل الملك أدشكو إلى معسكر الزبير كان غاضب الوجه رغم أن الزبير استقبله بتجلة واحترام:

- لماذا تقيم يا زبير كل هذه الأبنية وتنشئ كل هذه التحصينات في مكان ستغادره قريباً. فأنا لن أسمح لك بالبقاء هنا بعد أن تنتهي الفترة التي منحتها لك ويجب أن تعلم أنني لن أمنحك ولو يوماً إضافياً واحداً.
- أعلم ذلك يا فخامة الملك.
- ثم ما هذه الثكنات العسكرية هل أنت تاجر أم قائد حربي؟
- أرجو أن تعلم يا فخامة الملك أنني أفعل كل ذلك بسبب قرب موسم هطول الأمطار.فمن الضروري أن توقى البضائع وأن يوقى الرجال على حد سواء. ولعل كل ذلك سيكون الخير فيه لك لأنني عندما أرحل سيؤول كل شيء هنا لك.. لأنني فقط سأرحل ببضائعي وبرجالي.
بعد سماع الملك أدشكو لحديث الزبير سر كثيراً وقال له قبل أن يغادره:
- إذا لك أن تنشئ ما تشاء من الأبنية.
بعدها دعم الزبير معسكره ومحطته التجارية بموضع دفاعي قوي وكدس بداخله المؤن والعتاد، وظل في نفس الوقت متمسكاً بسياسته السلمية وأن يتاجر تجارة ناجحة وأن يجعل نفسه مميزاً ومعروفاً ومحبباً لدى أدشكو وقومه. غير أن حادثاً دامياً وقع. فقد قتل أحد رجال الزبير وسرقت بندقيته. فلم يلجأ الزبير للانتقام. وبدلاً عن ذلك حمل جثة الرجل القتيل إلى الملك وقال له:
- أنظر إلى ما حدث. والآن إذا كنت ملكاً عظيماً فإنك ستقضي بالعدل. وكل ما أطلبه منك الآن أن يعاد سلاح قتيلنا وسأترك أمر عقوبة الجاني والقصاص منه إليك. أمر الملك أن يدفن القتيل في أرضه وأعاد للزبير سلاح قتيله وعاقب الجاني. غير أن الملك أرسل بعدها رسولاً الزبير ليرحل لانتهاء الفترة

المحـددة. فطلـب الزبـير مهلـة للجـلاء. فرفـض الملـك طلبـه. فأرسـل لـه الزبـير خمسةرسـل ليقنعـوه بالمهلـة المطلوبـة. وبـدلاً عـن ذلـك قتـل الملـك أدشـكو رسـل الزبـير الخمسـة وقـرر مهاجمة معسـكره وأن يسـتولي عـلى مـا فيـه. وكان الزبـير يتوقـع مثـل هـذا الهجـوم إذ كان لـه أصدقـاء سـبق أن حـذروه مـن ذلـك.

(٨)

لم يكـن الزبـير يطلـب عـداء أحـد ولا يسـعى للدمـاء أو الانتقـام. فعـلى الرغـم مـن أن رجـال الملـك أدشـكو قـد قتلـوا مـن رجالـه رجـلاً وسـلبوه سـلاحه وقتلـوا رجـلا آخـر مـن رجالـه بـذات الكيفيـة إلا أن الزبـير آثـر أن يضـع الحكمـة بديـلاً عن إثارة أسـباب الحـرب ونجـح في ذلـك. مـا يـدل أنـه رجـل سـلام وأفصـح عـن شـخصية تملؤهـا العقلانيـة والاتـزان وتفيـض بالتسـامح. ولمـا رأى الزبـير أن مخازنـه في أرض الملـك أدشـكو قـد اتسـعت وأضحـت ذات أهميـة كـبرى وقيمـة عظيمـة وجـد نفسـه في ورطـة. فهـو لـن يسـتطيع أن يحمـل جميـع مـا اكتسـبه مـن تجـارة إلا بعـد اسـتقدام واسـتجلاب المزيـد مـن الرجـال ليسـاعدوه عـلى الجـلاء فقـد انتهـت المهلـة التـي سـمح لـه بهـا الملـك وكان مـن الـضروري أن يمـلأ مراكبـه بالـزاد. ولأجـل كل ذلـك أرسـل رسـله للملـك أدوشـكو ملتمسـا لديـه أن يمـده عـن طريـق البيـع بمؤونـة مـن الحنطـة وأن يمهلـه قليـلاً ليغـادر. ولكـن الملـك أدوشـكو لم يكتـف بالرفـض إنـما قتـل رسـل الزبـير. بـل أعلـن الحـرب عـلى الزبـير ولسـان حـال الزبـير يقـول:

نِحْنَا المَا بْسَمُّـونَا العِرَيبْ وَين جيتو
نِحْنَـا البِنَرْكَبْ الدُّرْشِي البجَابِدْخيتو
نِحْنَا عَشِيرْنَا مَا بنُخُونُو ونَخَربْبيتو
نِحْنَـا عَدُونَا بِنَعَصْرُو وَنَطَلِّعْ زَيْتُو..!

لـو كان الملـك أدشـكو يعلـم مـدى دهـاء الزبـير وأنـه كان رجـلاً يعـرف جيـداً كيـف يدافـع عـن نفسـه ويدفـع أعـداءه، لمـا أقـدم عـلى حربـه، غـير أن الأعـداد الهائلـة مـن مواطنيـه المحاربـين التـي كانـت تتجـاوز وتفـوق كل النسـب إذا مـا قيسـت بقـوات الزبـير

أغرتـه بهـذه الحـرب. لكـن معسـكر الزبـير المحصـن تحصينـاً شـديداً برجالـه المائتـين جيـدي التسـليح والتدريـب، كان مسـتعداً لهـذه الحـرب التـي فرضـت عليهـم.. فاشـتعلت الهمـم. وكان النـور عنقـرة يـرى كالأسـد الهصـور والرجـال أمسـكوا ببنادقهـم جيـداً والقائـد الزبـير يـروح ويغـدو بينهـم يرفدهـم بالنصائـح ويغمرهـم بالأوامـر:

- لا تبـددوا ذخيرتكـم سـدى في الإطـلاق العشـوائي، أحسـنوا التصويـب، تعقبـوا زعـماء جيـش العـدو واجعلوهـم أهدافـا لرميكـم.

كان الزبـير يقـول كل ذلـك بكيـان استقوى بخـبرة المعـارك التـي خاضهـا مـن قبـل وبالثقافـة التـي اسـتقاها مـن قراءاتـه لأخبـار الحـروب التاريخيـة ومشـافهة آبائـه وأجـداده الذيـن مـلأوا وجدانـه حماسـة وهـم يحكـون لـه مـا دارت مـن معـارك أسـلافه الجعليـين. تـرددت عـلى جنبـات المعسـكر صرخـات الحـرب الداويـة كالرعـود التـي انتظمـت السـماء فلـم يحاذرهـا رجـال الزبـير الصناديـد ولم ترعبهـم. رغـم أن قـوات العـدو بـدت كالنمـل يقذفـون بحرابهـم ويطلقـون سـهامهم وهـم يزحفـون نحـو المعسـكر مـن كل الجهـات. واسـتمر هجومهـم لثلاثـة أيـام بلياليهـا والزبـير ورجالـه يعملـون عـلى صدهـم.

كان مهـر إيقـاف زحـف أعـداء الزبـير عـلى معسـكره عـدداً مـن الجرحـى والقتـلى وجـرح لم يهتـم بـه الزبـير إنـما اهتمـت بـه خرقـة لفـت عـلى سـاقه. الجانبـان صامـدان والحـرب تـدور والأعـداء يفقـدون اثنـي عشر زعيـما مـن زعمائهـم. وفي يـوم الحـرب الرابـع اعتـلى الزبـير رابيـة وأخـذ يجـول نناظـره عـلى حشـود الأعـداء. كانـوا يزمجـرون ويطلقـون صيحـات الحـرب بـلا توقـف والملـك أدوشـكو كان أعلاهـم صراخـاً وزمجـرة واندفاعـاً. فنظـر إليـه الزبير

كـما كان ينظـر لذلـك الأسـد ووضـع إصبعـه عـلى الزنـاد وصـوب ناحيتـه وهـو يقـول:

- فخامة الملك.. لن تزمجر ولن تصرخ بعد هذه أبداً.

عندمـا انطلقـت الرصاصـة وأصابـت رأس الملـك وجـد الأهـالي المحاربـين أنفســهم بــلا رأس بــلا قائــد ففـل عزمهـم واختـل نظامهـم واستشـعروا الهزيمـة ورصـاص رجـال الزبـير يطاردهـم كالمطـر. فسـقطت الجثـث واختلطـت الدمـاء بالوحـل والسـماء أرعدت.والصقـور الجائعـة تزاحـم السـحب السـوداء في السـماء. وتوخـى القـوم الفـرار يقودهـم في الانسـحاب الأمـير (شـايدا) ملكهـم المرتقـب وابـن الملـك القتيـل (أدوشـكو). ليلتفـت الزبـير إلى رجالــه قائــلاً:

- مــاذا تنتظـرون. هيــا اتبعــوني. ســنطاردهم ولــو دخلــوا في أصــداف البحــر وجحــور الفئــران.

(٩)

بـدأت المطـاردة بقيـادة الزبـير واسـتحال دفـاع الزبـير إلى هجـوم. ووصـل الزبـير ورجالـه للمدينـة وباتـت النتيجـة نـصراً عظيـماً مـؤزراً خضعـت بموجبـه مدينـة مندقبـا بالتسـليم للزبـير وفـر شـايدا ومعـه الآلاف مـن رجالـه مسـتعصمين بجبـال يقـال لهـا سـاروقا محيطـة بالمدينـة عـلى مسـافة غـير بعيـدة.

بـدا الطريـق ممهـدا للزبـير للدخـول إلى مؤسسـة الملـك القتيـل وأن يجلـس فـوق عرشـه. وعندمـا انتـشرت أخبـار وقـوع مندقبـا في يـد الزبـير أخـذت القبائـل المجـاورة تفـد إليـه بزعمائهـا وتعلـن خضوعهـا واستسـلامها لـه تباعـاً. وهكـذا انتقـل الزبـير مـن تاجـر ليصـير ملـكاً. هـي ذات اللحظـة التـي أصابـت فيهـا رحمـة وخـزة وهـو يسـتيقظ إثـر حلـم رأى فيـه شـيخه الشـيخ الطيـب مبتسـماً وهـو يقـول لـه: ألم أقـل ذلـك ألم أقـل إنـه سـيصير ملـكاً؟ هبطـت كفـه سريعـاً عـلى صـدر زوجتـه شـمة فصحـت مذعـورة فقـال لهـا:

- كان إنتي بنت الملوكأنا أبو الملك. الزبير بقى ملك يا شمة.
- الحدسك منو؟
- حدسني شيخي أحمد الطيب في رؤيا.
- كان كدي النزغرد.
- زغردي زي ما دايرة تزغردي.
- أيوي يوي يوي يوييييا..!

اندفعـت النسـاء في الجيـلي وهـرع الرجـال إلى منـزل رحمـة وشـمة وهـم يسـتغربون هـذه الزغاريـد في زمـن كانـت الأحـزان تغطيهـم. فبعـد ولادة إبـن الزبـير الثالـث محمـود مـن زوجتـه عائشـة بنـت منصـور تـوفي ولحـق بشـقيقه رحمـة. فخافـت بـت منصـور عـلى

وليدهـا الوحيـد المتبقـي سـليمان فدعـت الفقيـه المدعـو الحـاج أن يدعـوا الله لابنهـا سـليمان بطـول العمـر. ومنـذ ذلـك اليـوم التصـق اسـم الحـاج بسـليمان فصـار يدعـى سـليمان الحـاج الزبـير. ولم تتوقـف أحزانهـم بعـد ذلـك فقـد توفيـت عائشـة بنـت منصـور نفسـها بعـد حـين فأمسـك والدهـا منصـور بيـد أختهـا ابنتـه زينـب وقـال لهـا:

- حا نعوض الزبير بيك يا زينب حا أعقد ليك على الزبير.

- الزبير ما بتاباهو إلا واحدة مجنونة..!

مـن كـذّب تلـك الرؤيـا صدقهـا بعـد أن حمـل التجـار العائـدون أخبـار الزبـير وذاعـت في كل الشـمال.

(١٠)

بعـد عشريـن يومـاً مـن دخولـه إليهـا اسـتطاع الزبـير أن يسـيطر تمامـاً عـلى مندقبـا وأن يسـكت فيهـا الأصـوات. فاسـتتب لـه الأمـر فيهـا وبـدأ إجراءاتـه الإصلاحيـة بدعـوة الأهـالي إلى الإنتـاج فجمـع زعـماء القبائـل وخاطبهـم قائـلا:

- نحـن الآن في زمـن الحصـاد. فدعونـا نوقـع تعهـداً عـلى السـلام. فانصرفـوا لجنـي حنطتكـم وحصادهـا فلابـد أن تأمنـوا شر الجـوع. فـإذا حـل الشـتاء فسـتكون هنـاك مجاعـة. عليكـم أن تعملـوا وأن تنتجـوا ولـن يمسـكم أحـد بسـوء. وحتـى الذيـن رفعـوا السـلاح ضـدي فأنـا أعفـو عنهـم. الآن أريـد أن يسـود السـلم في هـذه البـلاد. أريدكـم أن تسـتمتعوا ببلادكـم الرائعـة ذات الأمـواه الجاريـة والفاكهـة الدانيـة والخضرة الجميلـة والطقـس العليـل. سر القـوم بحديـث الزبـير أيـما سرور وقالـوا لـه:

- أنـت ملكنـا ولـن نـرضى بغـيرك ملـكاً فأنـت العـادل وأنـت العاقـل.

فرد عليهم الزبير قائلا:

- أنـا لم آت لأحكمكـم ولكنكـم جميعـا قـد رأيتـم الأحـداث التـي وقعـت وفرضـت هـذه الظـروف التـي جعلتنـي عـلى رأسـكم. وإن كنتـم بالفعـل تريـدون منـي أن أحكمكـم وإن كنـت بالفعـل في نظركـم العـادل والعاقـل فعليكـم أن تدركـوا أن شـايدا ابـن الملـك القتيـل أدشـكو لا يـزال يعتقـد أنـه الأولى بعـرش أبيـه ولـن يقبـل أبـداً أن يتـولى حكـم البـلاد شـخص مثـلي. وهـو الآن بـين رجالـه مسـتعصماً بالجبـال ولابـد أنـه سـيعود ويحـدث قلاقـل وخسـائر. فهـل أنتـم مسـتعدون لتقفـوا خلفـي لإخضـاع شـايدا ورجالـه حتـى يـزول عنـا جميعـا الخطـر؟

ألقى الزبير بسؤاله وبدأ يترقب الرد وأخذ ينظر إلى الوجوه التي أخذ التردد يجلس عليها.
لم يستحسن الزبير ذلك الصمت الذي بدا فوق وجوه الأهالي فقال لهم:
- إن كنتم لا ترغبون في الانضمام إلى صفي لمحاربة شايدا فأنا غير مستعد لأحكمكم وسأعود بتجارتي إلى بلدي في الشمال. إنها لا تقل جمالا عن بلادكم وسأدعكم لشايدا ليعود من تلك الجبال التي يستعصم بها ويحكمكم.
ارتفعت حينها أصوات الرجال وأخذوا يقولون:
- سنكون في صفك يا زبير. أنت ملكنا ونحن جنودك.
ابتسم الزبير فهذا يعني أن هنالك الآلاف سينضمون إليه فقال لهم :
- حسنا ولكني أعذر كل من يخذله قلبه أو لا تطاوعه نفسه. وعليه أن يمضي إلى بيته آمنا أو أن يقوم بحصاد الحنطة ولن يمسه أحد لا في نفسه ولا في ماله ولا في عرضه. ثم التفت الزبير وأخذ يسأل:
- أين النور عنقرة؟
فصاح النور من بين الحشود بصوت جهور:
- أنا هنا سيدي فخامة الملك.
- اختر من بين القوم المحاربين الأشداء أصحاب الجلد على المشقات والمخاطر ودربهم وعلمهم أصول القتال الصحيحة وحذرهم من مخالفة الأوامر.
- حاضر يا سيدي. فقط أسمح لي بالاقتراب منك فلدي ما أقوله لك.
- تفضل.
عندما اقترب النور من الزبير قال له:

- سـيدي الزبـير إن هـذه الأعـداد كبـيرة ولابـد مـن أن أجـد مـن يسـاعدني عـلى تنظيـم صفـوف مـن نختارهـم، فعلينـا أن نعلمهـم كيـف يسـتعملون السـلاح النـاري وأن ندربهـم.
- مثل من؟
- بيننا رابح ود فضل اللهفتى قوي الشكيمة.
- يا إلهي كيف نسيت رابحدعه يحضر لي على الفور.
قبـل أن يصـل رابـح إلى الزبـير بـدأ الزبـير يسـترجع تفاصيـل قصـة رابـح المثـيرة.

(١١)

جاءه رابح ذات مرة بالميناء النهري بود شلعي حيث كانت مراكب الزبير ترسو هناك. وبرغم سمته القوي وإطلالته الدالة على الشجاعة قال له:

- أنا في عرضك يا سر التجار.
- من أنت يا فتى؟
- إسمي رابح ود فضل الله ود الحسن ود شاور.
- ومن وين إنتا يا رابح وماذا تريد؟
- أنا من قبيلة الهمج أولاد عم الفور.
- وأبوك فضل الله ده قاعد وين؟
- في بلد بقولو لا الكوة مي بعيدة من ود شلعي دي.
- طيب بتدور شنو؟
- بدور الحماية منك يا سيدي الزبير.
- حماية من شنو؟
- فضل الله وناسو متعقبني وبدورو يكتلوني.
- يعني أبوك وأهل أبوك بدور يكتلوك؟ فى أبو بكتل ولدو؟

صمت رابح قليلا ولا يني يتلفت خلفه ثم قال:

- سيدي الزبير فضل الله ماهو أبوي عدل.. أنا واحد من رقيقو ومسمى عليهو.
- ولماذا يريد وقومه أن يقتلوك؟

أطرق رابح برأسه إلى الأرض وقال بحزن:

- فى زول يا سيدي برضى في عرضو؟آي أنا رقيق بس نفسي كبيرة وما بقبل المهانة والذلة.

أعجب الزبير بحديث رابح وقال له:

- البقبل المهانة والذلة زولا هوين ونفسو ضعيفة. بس الحصل

شنو ؟
- فى ولـدا لى فضـل الله كان بحـوم عـلى مـرتي. ولمـن كـتر حوامتـو كلمتـو قلتلـو:
- أبعـد يـا جنـا وخـلي عنـدك أصـل. الجنـا نهـرني يـا سـيدي الزبـير و قال:
- شـــن قايـــل نفســـك؟ إنتـــا ومرتـــك رقيقنـــا والبـــدورو فيكـــم بســـويهو.
- لا تلعب بالنار يا جنا.
في اليـوم التـاني سـمعتا مـرتي بتكـورك. شـلتا لي عـكاز ومشـيت عـلى القطيـة لقيـت ود فضـل الله بـلاوي فوقـا. قمتـا لقطتـو بـى عـكازي. قـام عـلى حيلـو. بـس عاينتلـو سـمح وخبتـو في نـص راسـو ووقـع ميـت. بـس بعـد دا مـا قدرتـا أقعـد في الحلـة عشـان فضـل الله وأهلـوا حلفـوا يكتلـوني. وهسـع هـم وراي بقصـوا في دربي. عشـان كـده قتـا أجيـك. وعـارف إنـو مـا بتجينـى عوجـة عنـدك. ومسـتعد أسـافر معـاك وأكـون مـن حراسـك. أصـلي كنتـا عسـكري في الحكومـة قبـال يسرحـوني.
- خـلاس يـا رابـح خشـلك في واحـدة مـن مراكبـي ديـل وفـد عوجـة مـا بتجيـك.
لم يمـر وقـت طويـل حتـى بـدت كلاب شرسـة وقصاصـو أثـر يتبعهـم قـوم مسـلحون يقتربـون مـن مراكـب الزبـير. وعندمـا أدركـوه قـال كبيرهـم:
- الأثر بتاع رابح إنقطع هنا. والرقيق ده نحنا بندورو.
سألهم الزبير:
- إنتو ناس فضل الله ود الحسن؟
- أيوه بالحيل يا شيخ الزبير.
- ودايرين رابح.

- أيوه بندورو. وكيفن ما بندور الزول الكتل جنانا.
- بس هو إستجار بي وأنا أديتو الأمان.
- ده كلام شنو يا شيخ الزبير. كدا ماك ظلمتنا. المعنى دم ولدنا يروح ساكت.
- لا لا ما بروح ساكت. أنا بديكم دية المكتول. وعشان عارفكم أسيادو كمان بديكم الفدية بتاعتو ويكون معتوق ومن الليلة إسمو رابح الزبير. مو رابح فضل الله.
رجع فضل الله وقومه بالدية والفدية وهم راضون تماماً. عندها خرج رابح وقال للزبير:
- من الليلة أنا عبدك يا سيدي الزبير.
- لا لا يا رابح أنا خلاس عتقتك ومن الليلة إنتا ماك رقيق. إنتا ولدي رابح الزبير. تسافر معاي وتعمل معاي وتحرسني عشان النخوة وعزة النفس الفيك ماها عند ناس كتار.
- روحي فداك يا الزبير أبوي.

(١٢)

هكـذا انخـرط رابـح في خدمـة الزبـير ولم يكـن يـدري أن الأقـدار تخبـئ لـه ملـكاً عظيـماً.

هـذه الذكـرى وغيرهـا مـن الذكريـات بقيـت في ذهـن الزبـير حتـى آخـر العمـر. وكان يقلبهـا جميعـاً عندمـا تـم أسره في جبـل طـارق المحميـة البريطانيـة المتاخمـة لـلأراضي الإسـبانية. فقـال هنـاك ذات يـوم لمحدثتـه البريطانيـة بمشـاعر يمازجهـا الإيـمان العميـق:

ـ كل رغبتـي كانـت أن أتاجـر وأن أعمـل عـلى نـشر المدنيـة والتحـضر. ولكنـي لم أكـن أملـك مـن أمـر نفـسي شـيئاً. وقـد كنـت آنـذاك هنـاك كـما أنـا الآن هناأصنـع مـا أراد الله بي. سُـلطاناً او سـجيناً. فـإن ذلـك لا يهمنـي كثـيراً بقـدر مـا وضعـت مصـيري وأمـري كلـه بـين يـدي الله.

– نعم يا أبي أنا بين يديك.

جملة قالها رابح فأخرجت الزبير من صمته فقال:

– يـا رابـح كـما سـمعت فإننـا نريـد أن نخضـع شـايدا ونزيـل خطـره عنـا. وهـو كـما تعلـم يسـتعصم بالجبـال وحربـه صعبـة وخطـيرة. فعليـك أن تضـع يـدك في يـد أخيـك النـور عنقـرة وتنظمـوا الصفـوف بطريقـة جيـدة حتـى نغـزو بهـم تلـك الجبـال. فأنـا أعلـم أنـك كالنـور تمتلـك خـبرة عسـكرية. عليكـما بتدريـب مـن تختارونـه مـن الأهـالي. يجـب أن يكـون لدينـا جيـش مـدرب ومسـلح. فأنـا لم أعـد تاجـرا فحسـب إنـما صرت ملـكا. وأنـا أعلـم طبيعـة أهـل الممالـك التـي حوالينـا. سـيطمعون ذات يـوم في أموالنا ورجالنـا فيجـب أن نكـون مسـتعدين.

– سـأحمل اللـواء يـا أبتـي وسـأدافع عنـك وعـن ملـكك حتـى آخـر قطـرة مـن دمـي.

- إذن فأكملوا الاستعداد لنتحرك.
بعد اكتمال الاستعدادات أمر الزبير القائدين النور عنقرة ورابح بأن يستعينا في القيادة ببني عمومته محمد عبد القادر وصباحي محمد حمد وحماد محمد الكديم. ثم أخذ يقود قواته بنفسه متجها بهم نحو جبال ساروقا التي يستعصم بها شايدا. ليواجه الزبير وقواته طبيعة جبلية قاسية منعتهم لمرتين من التمكن للصعود والاحتلال. وكان رجال شايدا متمرسين تمام التمرس على حرب الجبال واستطاعوا أن يحدثوا خسائر في قوات الزبير الذي آثر خطة ثانية وهي فرض الحصار. فقد تبين له أن موقع شايدا أقوى وأعتى بكثير من أن ينال عن طريق الهجوم. لذا ضرب حصاراً محكماً حول تلك الجبال لا فكاك منه. وكانت قوات الزبير تقتل كل من يحاول أن يتخلص من ذلك الحصار بالنزول لإحضار مؤونة أو غذاء. وعندما استمر الحصار لثمانية عشرة يوما ضاقت السبل على شايدا واستشعر الخطورة والضعف. غير أنه قرر أن يكون صامداً. وعند بزوغ فجر اليوم التاسع عشر أبصرت قوات الزبير ثلة تتقدم نحو خيمهم في قيادة معسكر الحصار. فأرادوا إبادتهم. وعندما لاحظوا أنهم عزل أحجموا عن ذلك. ومع اقترابهم وسطوع الشمس صاح فرد من قوات الزبير،من الذين انضم إليه في زمرة أهالي مندقبا:
- إنه شايدا يا فخامة الملك الزبير..إنه شايدا..إنه شايدا يا إلهي ومعه زعماؤه.
أدرك الزبير بحسه الحربي وبخبرته التي اكتسبها في خوض المعارك أن شايدا قد جاءه مستسلماً.
أراد البعض أن يتحرش بشايدا وزعمائه إلا أن الزبير زجرهم زجراً شديداً وقال له:

- أهلاً بالأمير ابن الملك.
صمت شايدا فأردف الزبير قائلا:
- الحروب لا داعي لها والسلم أفضل منها كثيراً.
فقال شايدا:
- لا أنكر أن والدي قد أخطأ بحقك وشن عليك حرباً لا داعي لها وما كنا نستطيع أن نعصى له أمراً، وأنا حزين وآسف لأنه قتل رسلك فالرسل لا يقتلون. هكذا علمنا أسلافنا. وأنا الآن هنا ومعي زعمائي الستة عشرة وجميع أفراد عائلاتنا نعلن خضوعنا لك واستسلامنا لقيادتك استسلاماً كاملا واضعين حياتنا بين يديك. وسيتبعني إليك بعد قليل كل رجالي الموجودين في هذه الجبال. لم يكن أحد يتوقع أو يتصور أبداً التصرف الذي أقدم عليه الزبير بعد هذا الخضوع والإذعان. فقد كانوا يتصورن أن الزبير سيلجأ للقسوة والعقاب والانتقام. ولكن الزبير أدهش الجميع وهو يقول لشايدا:
- سأعود بك إلى ماندقبا ليتم تنصيبك فيها خليفة لوالدك وملكاً عليها. فأنا لا أرغب في الحكم ولا من شيمي القتل والانتقام. ولكن يجب أن تعلم جيداً بأن عليك أن تكون عادلاً. وأنتم أيها الزعماء تستحقون مني الخلع والكساوي ويمكنكم أن تعودوا وجميع من في إمرتكم إلى منازلكم آمنين فاذهبوا فأنتم طلقاء. وسأصدر أوامر مشددة بأن لا يمس أي من نسائكم أو أطفالكم.

(١٣)

تبادل الجميع التحايا وتم إرسال الرسل إلى أعلى الجبال فهبط رجال شايدا مطمئنين وهم يستشرفون من الزبير صنيعاً متسامحاً ورأفة ورحمة لا حدود لها ما خطرت على بالهم فقد وضع الزبير الدهشة في عيونهم والأمن في كيانهم وهدأ من روعهم. عاد الجميع متحابين إلى ماندقبا وأعادوا زوجاتهم وأطفالهم إلى المنازل التي هجروها أو أخلتهم منها الحرب. ولما ذاع هذا الأمر في مقاطعات إقليم أدشكو أعلنت جميعها ولاءها وخضوعها للزبير واتفقت جميعها على اختياره ملكا عليهم. فنزل الزبير عند رغبتهم وظل شايدا يتمتع بلقب والده ورتبته الاسمية وبدأ الزبير الذي عينته القبائل سلطانا وملكا عليهم يحيا بمندقبا حياة بلاط ملوكية فبنى له داراً وعرشا يليق بملك حقيقي. ولم تكن كل هذه الأخبار لتغيب عن أسماع الملك تكمة. فقرر أن يرسل ابنته رانبوة زوجة الزبير إليه في مندقبا هامساً لها في أذنها بأمر حزين قبل أن يضعها وطفلتها داخل هودج على ظهر ثور قوي يحرسه ويقوده رجال أشداء. بعد حين أبصر الزبير الثور يقوده بعض الرجال الأقوياء وكان يحمل فوقه الأميرة رانبوه ابنة الملك تكمة وزوجته وهي تحمل طفلته الجميلة. فخفق قلبه وهي تتقدم وتجثو فرفعها عن الأرض وقبل طفلته وهو يقول لها: لا تفعلي هذا فأنت الآن ملكة وزوجة ملك عظيم. كان لهذا وقع مثير لدى الأهالي في ماندقبا الذين صاروا شعب الزبير. فقد رأوا أن تاجراً كبيراً من الشمال يصاهرهم ويتناسل. فكبر في نظرهم وسمقت مكانته لديهم أكثر.

(١٤)

كانت رانبوه امرأة جميلة ومرحة أحبت الزبير بكل كيانها وأحبها بعمق. وكان هذا هو سر حزن الزبير عليها عندما ماتت بعد عشرة أعوام بعدما أنجبت له طفلة ثانية. وعندما سافر إلى مصر اصطحبها معه. بدت رانبوه فرحة وهي تدخل إلى ديار الملك. ديار ليست كديار والدها ولم تحظ بمشاهدة مثيلها من قبل. ولم يمر وقت طويل حتى أسعفها ذكاؤها على فهم كل شيء في بلاط زوجها. ذات ليلة جلست بروحها المرحة على الأرض قبالة الزبير وهي تقول له: أنا جاريتك رانبوه يا سيدي التي اخترتها لنفسك من بين آلاف الجواري. حبيبة أحبتك وذابت في محبتك. سأغني لك أيها الحبيب والقائد المنتصر. وبصوتها العذب أخذت تغني أغنيات النصر البديعة فطرب لها الزبير ثم تقول:

– مرني بما شئت يا سيدي. المخدع يستقر الآن على أجمل هيئة. المساند محشوة بريش النعام. والفرش أرجواني عليه لطائف من حرير. وقوائم أريكتنا الذهبية تمت تجليتها. ورائحة البخور تعبق المخدع. والطفلة نائمة. فهلا صحبتني يا مولاي؟! آه نسيت يا ملكي ومالكي شيئاً مهماً فهناك من حضر المعارك وحدثني وأسعدني بأخبار انتصاراتك. إنه يقول يا سيدي إن جنود الأعداء فرت من جنودك البواسل وبعضهم جاء خاضعاً مستسلماً والملوك والسلاطين سلموك أمرهم. إنهم مستسلمين لك كما أنا الآن. ثم يضحكان. أنهى بكاء الطفلة المفاجئ مرح رانبوه. وعندما هدأت الطفلة أصابتها وخزة دفعت بها لتفصح للزبير عن أمر حزين:

– حزينة أنا أيها الحبيب.

– وما الذي يحزنك يا رانبوه؟

- أبي الملـك تكمـة في ورطـة وهـو خائـف عـلى ملكـه وعـلى حياتـه ويريـد مسـاعدتك.
- ماذا به هل حدث شيء.
- هنالـك أعـداء يهاجمونـه كل ليلـة وعندمـا يطاردهـم يختفـون وكأنـما الأرض تنشـق بهـم.

- حسنا سنرى كيف نساعده.
- أرجوك يا زوجي العزيز تعجل الأمر والدي يريد الحماية.
- يكفي أنه والدك.
- أشـكرك يـا حبيبـي. كـما أشـكرك عـلى كل الهدايـا التـي كانـت تصلنـي منـك في غيابـك. لـن أنسـى مـا حييـت قوافـل هدايـاك التـي كانـت تحمـل العسـل والأقمشـة والخـرز والحنطـة التـي كنـت ترسـلها لي.
عـلى رأس قـوة قوامهـا ألفـي رجـل خـرج الزبـير في اليـوم التـالي قاصـداً حـدود مملكـة تكمـة. ولدهشـته رآه في الطريـق متعبـاً مـع رجالـه فـاراً مـن بلـده فبـادره قائـلاً:
- ما الذي حل بك يا فخامة الملك تكمة؟
- الحمـد لله عـلى وصولـك يـا الزبـير. لقـد أرهقنـي الأعـداء. إنهـم يأتـون في حشـود كبـيرة. هيئتهـم لا تشـبه أحـداً. وكأنهـم يخرجـون مـن باطـن الأرض ويعـودون إليهـا.
ـ حسناً يا تكمة سأقضي عليهم ولو كانوا شياطين أو أبالسة.
لم يكـن الزبـير يـدري وهـو يطـارد أعـداء والـد زوجتـه الحبيبـة أنـه سـيقع عـلى سرٍ رهيـب ومُدهـش لم يكـن يسـمح بـه خيالـه أبـداً.

(١٥)

دفـع حضـور الزبـير في نفـس تكمـة مشـاعر لا توصـف بالأمـان فتخلـص مـن خوفـه واسـتعاد مـا فقـده مـن أحاسـيس ملكيـة وقـال للزبـير:

- إذا اتبعنـي بقواتـك إلى الأماكـن التـي كان يتجـه إليهـا هـؤلاء الأشرار ويختفـون فيهـا. إننـي يـا صهـري العزيـز أراهـم تـارة في تجمعـات وحشـود وتـارة لا أرى منهـم أحـداً حتـى بـت لا أشـعر بالاسـتقرار ولا أطمئـن عـلى مملكتـي خوفـاً منهـم.

- هيـا بنـا يـا فخامـة الملـك فقـد قلـت لـك سـأقضي عليهـم ولـو كانـوا شـياطين أو أبالسـة. بـدأت القـوات تسـير بقيـادة الزبـير، وتكمـة يرشـدهم إلى اتجاهـات الأعـداء الأشرار، وبعـد أن أوغلـوا في المسـير توقـف تكمـة وقـال:

- من هذه الأماكن كانت تخرج حشود أعدائي.

تعجـب الزبـير فهـو لا يـرى شـيئاً غـير الأجمـة والحشـائش. فقـرر أن يستكشـف المكان بنفسـه. وبعـد بحـث مضـن اكتشـف مدخـلاً يقـود إلى كهـوف بـدت متسـعة ومرتفعـة. فأيقـن أن أعـداء تكمـة يخرجـون مـن هـذه الكهـوف وبعـد إكـمال غاراتهـم يعـودون إليهـا. فبـدأ الـسر الرهيـب يتكشـف. غـير أن الزبـير قـرر ألا يغامـر بقواتـه ويدخـل إلى تلـك الكهـوف التـي لم تتبـين لـه تحصيناتهـا أو طبيعتهـا فآثـر أن يبتعـد بقواتـه قليـلاً ويكمـن بهـم خلف الأشـجار والحشـائش وأن يراقـب مدخـل تلـك الكهـوف. فأصـدر أوامـر بهـذا المعنـى. ولم يلبـث حتـى رأى الزبـير حشـود أعـداء الملـك تكمـة تخـرج مـن ذلـك النفـق فـكان الأمـر عجيبـاً ومذهـلاً وأخـذ تكمـة يـصرخ:

- هؤلاء هم أعدائي اقض عليهم يا زبير.
نظر الزبير إلى الملك تكمة وقال له:
- هـون عليـك يـا فخامـة الملـك ودعنـي أتـصرف بخطـة وبحكمـة فقـط ابـق هادئـاً. ثـم التفـت إلى قـواد قواتـه وقـال لهـم:
- عندمـا يكتمـل خـروج حشـود الأعـداء توزعـوا عـلى أنحـاء المـكان وسـأقود البعـض إلى مدخـل نفـق الكهـوف وسـننتظر عودتهـم. وعندمـا يعـودون سـيجدوننا وقـد قطعنـا عليهـم خـط الرجعـة وداخـل حصـار مـن قواتنـا.
نفـذت أوامـر الزبـير بدقـة وخرجت حشـود سـاكني تلـك المغارات باطمئنـان ولم تكـن عودتهـم كخروجهـم. فقـد كان الزبـير وقواتـه يحولـون بينهـم وبـين مدخـل كهوفهـم. وبـدأت قـوات الزبـير تطوقهـم مـن كل جانـب. فأصابهـم الفـزع وأعياهـم المهـرب. ثـم حصـل الزبـير عـلى النتيجـة التـي خطـط لهـا. الاستسـلام التـام دون إراقـة دمـاء. فتقـدم قائدهـم وأعلـن استسـلامه للزبـير الـذي كان يـردد دائـماً: ليـس هنـاك أي شيء إطلاقـاً يمكـن أن يسـتفاد منـه عـن طريـق الحـرب. فأنـت إنـما تدمـر البـلاد وتخربهـا وتخيـف بهـا النـاس وترعـب بهـا الرعيـة. وقـال لـه:
- لـن أقبـل استسـلامك ولـن أترككـم في أمـان مـالم تقبلـوا بـكل الـشروط التـي سـأمليها عليكـم.
- قل ما تريد وسنقبل ما ستقوله إن كان في ذلك نجاتنا.
- عليكـم أن تلتزمـوا بالسـلام وتعـدوني بالمحافظـة عليـه ومراعاتـه في المسـتقبل وعـدم شـن غـارات عـلى جيرانكـم خاصـة الملـك تكمـة. وأخـيراً أن تمكنـوني مـن الوقـوف عـلى كهوفكـم والإطـلاع عـلى مسـاكنكم فيهـا التـي تحجبونهـا عـن الأنظـار وتعرفـوني عـلى أنفسـكم.
بـدا القائـد المستسـلم راضيـا بـشروط الزبـير سـعيداً بنجاتـه وقومـه

فقال للزبير دون أن يخفي ابتهاجه:
- نقبل يا سيدي بكل شروطك وسأفرضها على قومي من القروندي. إننا يا سيدي نطلق على أنفسنا قروندي. ولدنا وعشنا في هذه الكهوف بعيداً عن بقية الأقوام ولم نكن في يوم من الأيام مصدر إزعاج لأحد ولم نتحرش بأحد. ولكن أعيننا حذرتنا من سطوة المملكة المجاورة فخفنا على أنفسنا وبادرنا بالهجمات لحماية أنفسنا. ونعدك أن لا نسبب لتكمة أو غيره متاعب بعد الآن.
- أريد أن أرى كهوفكم.
- تفضل سيدي تفضل.

(١٦)

امتلأ الزبير بعد ذلك تعجباً وإعجاباً بما شاهده. لقد شاهد شيئاً لا يسمح به خياله. فقد كانت تلك الكهوف طبيعية التكوين غاية في الاتساع والعلو يأتيها الضوء من فوقها وأعلاها وتتخللها أنسام عطرة ويجري خلالها غدير نهر صغير وتناثرت في أجوافها أكواخ صغيرة بنيت من القش بطريقة رائعة. وقد بدا للزبير أن إنسان هذه الكهوف قد أعمل يده فيها بتشييد فني آية في الروعة والجمال. ولولا استحالة ذلك لكان هذا المكان مسروقا من الجنة. قال لهم الزبير بإعجاب:

- أنتم حقا قوم عظماء وأمة من المهندسين المعماريين الأكفاء من ناحتي وقاطعي الأحجار والصخور.

- هذه أعمال بدأها أسلافنا بعد أن اهتدوا لهذا المكان في الماضي البعيد فاختاروا العيش فيه وتناسلوا هنا وتزايدت أعدادهم عبر الأجيال.

لاحظ الزبير أن القروندي يعتمدون في معيشتهم على الحنطة واللوبيا والعدس التي كانت تنمو على مقربة منهم فحمد الله أنهم ليسوا من آكلي البشر وقال لهم وهو يودعهم:

- حافظوا على جنتكم هذه ولا تضيعوها بالحروب، فأنتم الآن في أمان ودعوا غيركم يعيشون أيضا في أمان.

بعبارات مليئة بالثناء والمودة ودعوا الزبير وتكمة ورجالهما وفي طريق العودة قال الزبير لتكمة:

- أرجو أن تكون سعيداً بما فعلته لأجلك.

- أنا في غاية السعادة وأشعر بالاطمئنان الكامل وسأعود لشعبي وكلي ثقة بأنهم سيكونون آمنين بعد اليوم. أشكرك يا زبير على كل هذا فقد أثبت لي أنك قائد حكيم ومحنك وليس

مجـرد تاجـر.

- إذا وداعاً. أنا في طريق عودتي لمندقبا.

- بلـغ تحيـاتي لابنتـي العزيـزة رانبـوه وطفلتهـا حفيـدتي الجميلـة وسـوف لن تنقطـع هداياي لهـما أبداً ولكـن قبل أن نفترق سـأهديك خمسـمائة رجـل اخترهـم مـن بـين رجـالي وتوخيـت فيهـم الأقويـاء الأذكيـاء الذين يصلحـون للانضمام لجيشـك ليحموك مثلـما حميتني.

(١٧)

قبل أن تفترق خطى الزبير وتكمة أمر الزبير قواده رابح والنور عنقرة وثلة أخرى من القواد باختيار الرجال الخمسمائة. وعندما عاد الزبير لمندقبا استقبل استقبال الفاتحين المنتصرين وسعدت رانبوه بعودة الملك منتصراً وابتهجت بسلامة وأمن والدها الملك تكمة وأسرت له بخبر عودة ابن عمه بمفاجأة لم تكن في حسبانه. قالت له والابتسامة لا تفارق شفتيها:

- في غيابك وصل ابن عمك عبد الرحمن بمراكب مليئة بالبضائع الجميلة وقال إنه قد نجح في تصريف البضائع التي كلفته ببيعها في الشمال.

- هذا خبر جميل. أين ابن عمي أريد أن أراه الآن.

- رويدك يا ملكي ومالكي لا تتعجل الأمر قبل أن أطلعك على مفاجأة ستسرك كثيرا فقط اتبعني.

بالفعل كانت المفاجأة حقيقة. فقد قادته رانبوه إلى مخدع آخر في ذلك المقر الملكي ليجد بداخله زينب بنت منصور. زوجته التي زوجه إياها والدها في أعقاب وفاة زوجته أختها عائشة بنت منصور فكادت الدهشة تلجمه فقال لرانبوه:

- ألا تشعرين بالغيرة؟!

- لا. فأنت ملك ولك أن تتزوج بمن تشاء. وبأي عدد تريد من النساء. وأنت تعلم أن والدي الملك تكمة قد تزوج بأربعمائة من النسوة..!

- نعم أعلم ذلك.

- إذا فنحن معتادون على مثل هذه الأشياء. وعندما أتت زوجتك مع ابن عمك أكرمتها وخصصت لها هذا المخدع. إنك يا زبير تستحق أن تنال السعادة بكل أشكالها.

بعبارات ودودة استقبل الزبير زوجته زينب بنت منصور وسألها عن أخبار الأهل وابنه سليمان فأخبرته بأنهم جميعاً بخير وأن سليمان يعيش في كنف جده رحمة وجدته شمة. بعدها طلب الزبير أن يدخل إليه ابن عمه عبد الرحمن. غير أن الزبير لاحظ على وجهه شيء من الحزن فقال له:
- أخبروني أنك قد نجحت في تصريف البضائع التي كلفتك ببيعها في الخرطوم وأنك قد نجحت أيضا في إحضار بضائع أخرى جيدة.
- نعم يا ابن عمي.
- إذا لم أراك حزينا؟
اقترب عبد الرحمن من الزبير وهمس في أذنه همساً طويلاً فأطرق الزبير برأسه إلى الأرض وهو يقول:
- يا إلهي رحماك. إلى متى تكتب علينا الحروب ولم تشدنا الأقدار دوما إلى القتال.
كان الزبير تاجراً مستنيراً قبل أن يكون ملكاً عظيماً، وكان يؤمن بأن التجارة هي الوسيط المثالي للتمدن في مجتمعات لم تخط كثيراً أو قليلاً نحو هذه الغاية التي ستتحقق تدريجياً في كل دفقة تجارية آمنة وحرة يتبعها النظام والمعرفة ومعها تنساب الإلفة والمحبة. لذا درج على إرسال قوافل تجارية تجوب تلك المناطق التي تمدد فيها نفوذه أو تلك الأخرى البكر التي لم تطالها يد المكتشفين أو التجار. لذلك أوفد ابن عم له يدعى منصور إلى إقليم يدعى (أنداقو) وقبل أن يتحرك منصور على رأس القافلة مترئساً مرافقيه كانت مركبه محملة بالأقمشة والخرز والقصدير. وكان الزبير يزوده بالنصائح قائلاً له:
- إن الهدايا يا ابن عمي هي مفتاح القلوب. وإن إظهار المودة والاحترام لمن تتاجر معهم تبعث في نفوسهم الطمأنينة والسلام.

فـلا تلجـأ إلى فوهـة بندقيتـك أو إلى حـد سـيفك إلا عندمـا تكـن في موقـف يدعـوك للدفـاع عـن مالـك أو عـن نفسـك. لـذا عندمـا تصـل إلى إقليـم أنداقـو اسـأل عـن ملكهـم ويدعـى (موتـو) وحينـما تدركـه بـادره بهداياك واطلـب منـه الإذن للاتجـار في إقليمـه. وإذا أذن لـك لا تأخـذ شـيئاً قـسراً. فعندمـا يعطونـك ريـش النعـام والعسـل والعـاج والصمـغ اعطهـم مـا عنـدك مـن أقمشـة وخـرز وقصديـر. فسـيفرحون بذلـك ويصادقونـك ويتمنـون عودتـك إليهـم مـرة أخـرى. أسـتودعك الله يـا ابـن عمـي ودعـواتي لـك أن تعـود إلينـا سـالماً غانـماً. تعانـق الرجـلان وسـار منصـور في درب الـرزق العسـير.
لم يـزل الزبـير في تلـك الإطراقـة الآسـية الحزينـة وهـو يـردد بعـد همسـة العائـد ابـن عمـه عبـد الرحمـن الطويلـة: يـا إلهـي رحمـاك إلى متـى تكتـب علينـا الحـروب ولم تشـدنا الأقـدار دومـا للقتـال. كان يـردد جملتـه هـذه وفي أغـواره تتـماوج بعنـف تفاصيـل تلـك الهمسـة التـي أنبـأه فيهـا عبـد الرحمـن بـما حـدث:
- يـا ابـن عمـي لم يكـن ملـك أنداقـو رجـل سـلم. فقـد كان همجيـاً متوحشـاً. لقـد ذبـح ابـن عمنـا منصـور وجميـع مـن معـه وسـلب مـا معهـم مـن البضائـع بعـد غـارة ليليـة مباغتـة وغـادرة. دعنـا نثـأر لمقتلـه وأن نسـتعيد مـن هـذا الملـك مـا سـلبه منـه.
تخلـص الزبـير مـن إطراقتـه مدعيـا تخلصـه مـن أحزانـه وأسـاه. فقـد كان يـرى أنـه غـير لائـق أن يبـدو حزينـاً مكتئبـاً عابـس الوجـه وهـو لا يـزال في خضـم مراسـم اسـتقباله وترحيبـه بزينـب زوجتـه وابنـة عمـه منصـور وأخـت زوجتـه الراحلـة عائشـة. فترحـم عـلى منصـور ورفاقـه وقـال:
- يمكنـك الذهـاب الآن يـا عبـد الرحمـن. فـلا شـك أن لديـك مـا تفعلـه الآن بمخـازن البضائـع.
- لينصرك الله يا بن عمي ويقويك على أعدائك.

(١٨)

عـاد الزبـير بوجـه إلى زوجتيـه زينـب ورانبـوة التـي كانـت حصيفـة وهـي تسـتأذنها في الانـصراف. فتولـت زينـب محـو أسـاه وهـي تحدثـه عـن الأهـل وعـن ذلـك الأثـر الـذي تركـه فيهـم بزيارتـه لهـم وهدايـاه وعطايـاه وكرمهـم معهـم:

- والله يـا ود عمـي شـاكرنك كتـير وحـالم إتغـير. إن شـاء الله تـدي مـن كتـيرك.

بخروجـه مـن مخـدع زوجتـه زينـب إلى مجلـس قـواده وحاشـيته في الصبـاح لاحـظ الزبـير بينهـم وجهـا غريبـاً شـدته إليـه ملامحـه القويـة فأحـس تجاهـه بإلفـة غامـرة فسـأل عنـه ثـم اسـتدعاه:

- بشوفك غريب ما شفتك قبال كده.

- إسـمي محمـد مـن الدناقلـة الجابريـة مـن القطينـة. سـمعت بيـك وسـيرتك ملـت الدنيـا. تابعتـك لامـن وصلـت لى هنـا وبـدور أشـتغل معـاك.

- أهـلا وسـهلا بيـك يـا محمـد. فيـك ريحـة صديقـي المرحـوم إبراهيـم الدنقـلاوي. بـس تاريخـك شـنو؟

- أنـا كنتـا بشـتغل مـلاح في أسـطول شركـة السـيد أحمـد العقـاد المـصري في الإسـتوائية واشـتغلت في بحـر الغـزال.

- أها إن شاء الله بتكون خبرتك في العسكرية كويسة؟

- أي نعم يا شيخنا الزبير.

التفت الزبير منادياً رابح قائلا له:

- اللخو ده خلوهو معاكم وضمو على اخوانك.

- حاضر يا والدي.

سأل رابح محمد:

- اللخو محمد منو؟

- أنا محمد عثمان أبو قرجة.

رحب بأبو قرجة كل من كان في مجلس الزبير الذي كان يضم حاشيته وقواده الذين التفت إليهم الزبير ناقلا لهم الخبر المحزن:

- الملك موتو ملك أنداقو سلب أخوكم منصور وكتلو هو ورفاقتو. أها الراي شنو؟

بعد أن ترحم من كان في المجلس على أرواح من فقدوا شاب الحذر المكان. فقد كان الملك موتو زعيماً مرعباً ومهيباً ولكن ليس على الزبير وقواده الشجعان. فانبرى البطل رابح قائلاً:

- أنا له يا أبتاه. آذن لي أن أقود فيلقاً واذهب له وأدمره. ثم أخذ يردد قول عنترة ابن شداد:

حكّمْ سيُوفَكَ فِي رقابِ العُذَّلِ ❋❋ واذا نزلتْ بدار ذلَّ فارحل

وإذا بُليتَ بظالمٍ كُنْ ظالماً ❋❋ واذا لِقيتِ ذوي الجهالة فاجهل

وإذا الجبانُ نهاكَ يوْمَ كريهة ❋❋ خوفاً عليكَ من ازدحام الجحفل

فاعْصِ مقالَتهُ ولاِ تَحْفلْ بها ❋❋ واقدمْ إذا حَقَّ اللِّقا فِي الَأوَّل

واختَرْ لِنفسكِ منزلًا تعْلو به ❋❋ أَوْ مُتْ كريماً تَحْتَ ظلِّ القسْطَل

فالموتُ لاَ يُنْجيك منْ آفاتِه ❋❋ حصنٌ ولو شيدتهُ بالجندل

موتُ الفتى في عزهِ خيرٌ لَهَ ❋❋ منْ أن يبيت أسير طرف أكحل

إنْ كُنتُ في عددِ العبيدِ فهمَّتي ❋❋ فوق الثريا والسماكِ الأعزل

أو أنكرتْ فرسانُ عبسٍ نسبتي ❋❋ فسنان رمحي والحسام يقرُّ لي

وبذابلي ومهندي نلتُ العلا ❋❋ لا بالقرابة والعديدِ الَأجزل

ورميتُ مهري في العجاجِ فخاضهُ ❋❋ والنَّارُ تقدحُ مِنْ شفَار الَأنْصُل

خاضَ العجاجَ محجلاً حتى إذا ❋❋ شهدَ الوقعية عاد غير محجل

ولقدْ نكبت بني حريقةِ نكْبة ❋❋ لما طعِنتُ صميم قلب الأخيل

وقتلتُ فارِسَهمْ ربيعةَ عَنْوَة ❋❋ والهيْذُبانِ وجابرَ بْنَ مُهلهِل

وابني ربيعة والحريس ومالِكا ❋❋ والزِّبْرِقانُ غدا طريحَ الجَنْدل

وأَنا ابْنُ سوْداءِ الجبين كأَنَّها ❋❋ ضَبعٌ ترعْرَع في رُسوم المنْزلِ

الساق منها مثل ساق نعامة ❋❋ والشَّعرُ منها مثْل حَبِّ الفلْفل

والثغر من تحتِ اللثام كأنه ❋❋ برْقٌ تلألأ في الظِّلامَ المُسدَل

يا نازلين على الحِمَى ودِيارِه ❋❋ هلاّ رأيتُمْ في الدِّيار تقلْقلي

قد طال عزُّكُم وذُلِّي في الهوَى ** ومن العَجائبِ عزُّكم وتذَلُّلي
لا تسقيني ماءَ الحَياة بذلةٍ ** بل فاسقني بالعزَّ كاس الحنظل
ماءُ الحياةِ بذلةٍ كجهنم ** وجهنم بالعزَّ أطيبُ منزل

(١٩)

ألهب رابح حماس الحاضرين وابتسم الزبير الذي بقدر ما كان يرغب في السلم فقد وجد أن الحرب هي التي كانت تفرض نفسها عليه وخاض في سنوات حكمه الأولى معارك عديدة ومختلفة ضد زعماء المناطق الممتدة إلى الجنوب والشرق ضمنهم الملك موتو. قال لمجلسه:

ـ أقدر حماسكم ولكني أحذر من الاندفاع وأوصيكم دائماً بأن تضعوا نصب أعينكم أننا لا نخوض الحروب لظلم أحد إنما لفرض السلام وتأمين التجارة، وعلينا أولاً أن نعرف من هو عدونا موتو وقوته لنتعامل وفقاً للمعلومات لا أن ننساق وراء حماسنا فقط.

لم يكن الملك موتو في ذلك الوقت مطمئناً. فقد أخبروه بأن الذي قتله هو ابن عم الملك الزبير ولابد أنه سينتقم. لذا إتخذ الملك بوتو قراراً بشن حرب على الزبير للقضاء عليه. ومن ثم بدأ يغير على أطراف مملكة الزبير ويسبب إزعاجاً كبيراً له. وصار من ألد خصومه وأعدائه. ولكن الزبير بسابق خبرته وتجاربه فضل التريث وأن يستعد استعداداً كاملاً ليواجه موتو ويقضي عليه. ولم يترك الزبير رجاله كثيراً ليكتووا بنيران غلهم وحماسهم إذ خرج عليهم ذات يوم بلباسه الحربي معلناً الحرب على الملك موتو.

بدأ الزبير يقود جيشه نحو مملكة أنداقو وملكها موتو. وكان الجيش يمتلئ حماسة وقوة وبدا يأخذ شكلا نظاميا بفضل خبرات قياداته أمثال رابح والنور عنقرة وأبو قرجة. ورغم عظمة موتو وقوة أفراده إلا أنه لم يصمد كثيراً أمام الزبير وجيشه. لتنجلي المعارك عن هزيمة نكراء لموتو وتفرق أتباعه

أيـدي سـبأ وآثـر موتـو الهـرب والنجـاة بحياتـه. وأبـدت الممالـك التـي كانـت تجـاور مملكـة أنداقـو إعجابهـا بقـوة الزبـير وجيشـه المنظـم والمـزود بالأسـلحة الناريـة. وبلـغ بهـم الإعجـاب حـداً جعلهـم ينضمـون للزبـير ضاربـين بعـرض الحائـط منـاداة موتـو لمسـاعدته ونجدتـه وتركـوه لمصـيره هاربـاً ولاجئـاً دون نصـير. وحتـى أتباعـه تخلـو عنـه ورفضـوا أن يكـون ملـكاً عليهـم فظـل يتنقـل مـن زعيـم إلى آخـر دون أن يسـتدر رحمـة أو شـفقة أي أحـد منهـم ودون أن يقبـل أي منهـم إخفـاءه عنـده مـن الزبـير. قـال عبـد الرحمـن للزبـير:

- دعني أبحث عن موتو وسآتيك به وفي رقبته شِعبة.

- لا يـا ابـن عمـي. نحـن لا نحـارب أو نطـارد الضعفـاء. إن الانتقـام ليـس مـن شـيمي وهمـي فتـح طـرق آمنـة وأسـواق يعمهـا الرخـاء.

عندمـا اسـتتب الأمـر للزبـير في مملكـة أنداقـو ومـا جاورهـا مـن ممالـك وأضحـت امتـداداً لمملكتـه التـي اتخـذ لهـا مندقبـا عاصمـة. فاجـأ الملـك المهـزوم موتـو الجميـع وجـاء للزبـير وحالـه كحـال النابغـة الذبيـاني حينـما قـال:

فإنك كالليل الذي هو مـدركـي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع..!

جاء موتو مصطحبا ولديه وأخوه مستكيناً فقال له الزبير:

- هل الذي أراه أمامي هو موتو؟

- نعم وهذا أخي وهذين ولداي.

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- لقـد أصبحـت بـلادي كلهـا في قبضـة الآخريـن وأصبحـت مـشرداً بعـد أن كنـت ملـكاً عظيـماً. المـوت أهـون عنـدي مـن أن أعيـش مـشرداً.

- هل تعلم سبب ذلك يا موتو.

- إنها الحرب يا سيدي.
- ولم تأتي هكذا وتدخل معسكري أعزل ودون حراس؟
- إني أعلم ما أصنع ولديّ لذلك أسباب يا سيدي. إذ لم أجد من بين أصدقائي جميعاً من يقبلني لقد كانوا أصدقائي فقط حينما كنت ملكاً عظيماً والآن يتجنبونني وكأني حيوان أجرب هكذا فعلت بي الحرب.
- ولكن أنت الذي افتعلتها بغرورك وظلمك.. لقد ضايقتني وآذيتني وأعلنت علي الحرب وقبلها قتلت ابن عمي ورفاقه أليس كذلك؟
طأطأ موتو رأسه وقال:
- نعم وكانت هذه ذنوب اقترفتها وأطلب صفحك وعفوك وإلا فأنا راض بالموت أو أن تفعل بي وبمن معي ما تشاء ويمكنك أن تسترقنا.
نظر إليه الزبير تلك النظرة الحليمة التي عرفها عنه كل أعدائه.. نظرة العفو عند المقدرة وقال له:
- موتو إنك ملك عظيم ولست عبداً ولن أعمد مطلقاً إلى ما يشينك أو ما لا يليق بك.
رفع موتو حاجبه دهشة وأراد أن يقترب من الزبير ولكن إشارة حاسمة من الزبير أوقفته في مكانه ثم التفت إلى أقرب مساعديه وقال له:
- خذ موتو ومن معه إلى خيمة. وعاملوا موتو معاملة الملوك ومدوه بالطعام والملابس وأعيدوه لي في الصباح.
في خيمته أخذ موتو يسترجع أحاديث الزبير معه ثم يقول لمن معه وهو يرفل في ثياب جديدة ويستمتع بأطعمة شهية:
- يا له من رجل عظيم. ياله من ملك حقيقي عادل ومسامح وكريم.

في صباح اليوم التالي مثل موتو بين يدي الزبير قال له:
- أنـا لسـت بالرجـل المنتقـم. ومـا جـرى يقـوم في نفـسي مقـام الثـأر. وأشـعر الآن بأنـه يمكـن أن أصافحـك فقـد عفـوت عنـك بالفعـل.
هرع موتو وقبل يدي الزبير جاثياً فقال له:
- لا تفعل هذا ثانية فأنت ملك.
- لا لم أعد ملكاً بل واحدا من رعاياك.
- ولكنـي قـررت أن تكـون ملـكاً عـلى بـلادك وتعـود عظيـماً في عيـون قومـك.
- يـا إلهـي. هـل يمكـن. هـذا هـل هـذا صحيـح يـا سـيدي أم أننـي في حلـم جميل؟.
- سـيتحقق حلمـك الجميـل يـا موتـو فقـط إذا التزمـت بالـشروط التـي سـأمليها عليـك.
- كل ما ستقوله يا سيدي سأنفذه تماماً.
- أولا عليـك أن تحكـم قومـك بالحكمـة والعـدل والحـق. وألا يكـون حكمـك لقومـك بأسـنة الحـراب. ثانيـاً أن تحافـظ عـلى سـلامة الطـرق حتـى تكـون سـالكة وآمنـة للمسـافرين. وثالثـاً أن تعلـم قومـك الزراعـة والتجـارة. وبعـد مـضي ثـلاث سـنوات عليـك أن تبـدأ في دفـع الجزيـة لي حنطـة.
كان من عادة الزبير أن يمنح كل من يخضعهم في حروبه ومناوشاته الصغيرة فترة ثلاث سنوات يستعيدوا فيها تطبيع أحوالهم قبل أن يفرض عليهم أية جزية.
خـرج موتـو مـن عنـد الزبـير ملتزمـاً بكافـة شروطـه وظـل يحكـم قومـه وفقـاً لأسـس العدالـة والحكمـة طليـة ثـماني سـنوات إلى أن توفـاه الله.

(٢٠)

عـرف الكثـيرون بعـد ذلـك أن الزبـير يسـعى دومـاً لأن يكـون محبوبـاً لـدى الأهـالي وأن يحيـط نفسـه بقـرى مزدهـرة مـن حولـه يسـتطيع أن يتاجـر معهـا عـلى أسـاس المصلحـة المشـتركة. بـدل أن يواجـه بأنـاس مسـحوقين ومحرومـين ومهزومـين وربـما يدفـع بهـم الكـرب والفاقـة والعـوز لإقلاقـه بتجريـد حمـلات وغـارات دائمـة عليـه. تـرك الزبـير تلك المناحـي وعـاد بجيشـه إلى مندقبـا. واسـتقبل البطـل هنـاك بأشـياء مختلفـة. فقـد صدحـت الموسـيقى عـن طريـق الطبـول وكل الآلات الموسـيقية التقليديـة. ولمـا رأى مـا تفعلـه تلـك الموسـيقى في الأنفـس والوجـدان أنشـأ في جيشـه فرقـة الموسـيقى العسـكرية وأسـماها فرقـة (الزنقـران) وبعـد أن جلـب لهـا الآلات النحاسـية وبـدأت فرقـة الزنقـران تعنـى بتطويـر المعزوفـات والنغـمات الشـعبية التـي تجسـد الإرث القبـلي لمختلـف الإثنيـات التـي تشـكل الجيـش مـن أفرادهـا. إنـه الجيـش الـذي أطلـق عليـه اسـم جيـش (البازنقـر) الـذي أخـذ يسـتخدم الألعـاب الناريـة ويطلقهـا أثنـاء احتفالاتـه بالانتصـارات التـي يحققهـا حتـى أن الضابـط الإيطـالي «رومولـو جيسي» صنيعـة غـردون باشـا تحـدث عـن كيـف قـضى إحـدى الليـالي مسـهداً حزينـاً وهـو يسـتمع إلى موسـيقى النـصر ويـرى الألعـاب الناريـة التـي تعـزف وتطلـق مـن داخـل معسـكر جيـش سـليمان الزبـير يـوم انتـصر عليـه.

عقـب عودتـه الظافـرة بجيشـه البازنقـر لمندقبـا لاحـظ الزبـير حزنـاً عـلى وجـه زوجتـه رانبـوه فسـألها عـن السـبب فقالـت لـه:

- والـدي الملـك تكمـة لم يعـد يرسـل لي هدايـاه. فقـد كانـت هدايـاه تخـبرني أنـه بخـير. ابنتـك وحفيدتـه آمنـة تشـتاق لجدهـا الملـك تكمة.ابعثنـا إليـه يـا ملكـي ومالكـي.

صمت الزبير فأعادت رانبوه طلبها بشكل مختلف:
- لا تؤجل زيارتي لوالدي فإن مرت شهور أخرى لن أستطيع السير. فأنا حامل يا سيدي.
- إذا فلنحمل هدايا لوالدك ونزوره سوياً في موكب مهيب.
- أعلم أنك سترضيني ولكني لا أعلم كيف أكافئك.
تحرك موكب الزبير إلى بلاد النيام نيام وهو يحمل الهدايا وضمنها حمار. وهو حيوان لا تعرفه تلك البلاد. وعندما رأى الملك تكمة ذلك الحمار تعجب وظن أنه رجل (مسخوت)..!
خُصص للزبير مكان في دار الملك تكمة. حيث ركن الزبير فيه إلى ذكرياته ودفء زوجته رانبوه وابنته آمنة.
كان الملك تكمة في ذلك الوقت قد قويت شوكته وأمن شر أعدائه وصار ملكه أعظم وهو يحتفي بمقدم ابنته وصهره الزبير. ليجيء بعد ذلك أحد كهنته ويهمس له:
- إن لم تقض على الزبير الآن فإنه سيستولى على بلادك ويضمها إلى ملكه كما فعل مع الآخرين..!
كان وجه كبير الكهنة مخيفاً وهو يحدث الملك تكمة. وقد كان (تاكنو) هذا الكاهن من القلائل الذين يصغي إليهم تكمة باهتمام بل ينفذ ما يمليه عليه ويصدق رؤاه. وكانوا يسمونه وأمثاله (الكجر) أو (الكجور) وهم طبقة متفوقة في ذلك المجتمع ومحترمة من قبل الحاكم والمحكومين. فهو ممثل المعبود والقريب منه أيا كان ثعباناً كان أم دجاجة أو شجرة وخلافه. وهم من يباركون الزيجات ويأمرون بالطلاق. وقد امتد نفوذهم حتى إلى الذين أسلموا على يد الزبير. وكانت هذه من الأمور التي كانت تقلق الزبير. عرف الكجر كسحرة وأدباء وشعراء وكان الملوك يضمونهم لمجالسهم ويقربونهم ويغدقون عليهم إغداقاً كبيراً ليدفعوا عنهم الشر ويجلبوا لهم الخير بوساطتهم الروحية. ومن العجيب أن جثة الكجور في بلاد النيام نيام كانت تثير منافسة شرسة

على أكلها رغم أن الزبير قد أصاب عادة أكل لحوم البشر في تلك الأنحاء في مقتل. أضاف الكاهن تاكنو للملك تكمة قوله:
- منعتك من قبل من إرسال الهدايا لابنتك رانبوه زوجة الزبير وحسناً فعلت يا جلالة الملك وقد صدقت نبوءتي بأن عدم إرسال تلك الهدايا سيعيد إليك ابنتك وحفيدتك الحبيبة. وها هو الزبير قد أتى معهما فاقتله واذهب واستول على مملكته. إنها مملكة ممتدة وثرية. مليئة بالبضائع.. وعندها ستكون أعظم ملك وسيهابك الجميع خاصة عندما يرون غنائمك من أسلحة الزبير ورجاله ولا تتأخر في هذا الأمر.
قبل أن يترك الكاهن تانكو الملك تكمة لخواطره كان طريقه قد امتلأ بالهدايا والعطايا. وبأمر مباغت دعا تكمة قواده ليجتمعوا لديه. وبينهم كان أهمهم عمه (مغبوه) فأخطرهم برؤية كبير الكهنة تاكنو فأقرها الجميع ووضعوا خطة لقتل الزبير:
- إنه يصلي الفجر خارج مخدع رانبوه ويؤم وفده والمسلمين من قومنا. وهذه سانحة لنقتلهم جميعا.
قال مغبوه:
- بعد ذلك يا جلالة الملك علينا أن نجرد جيشاً كبيراً ونزحف به صوب مملكته. وأنا موقن أن جيشه سينهار بمجرد سماعهم خبر مقتل ملكهم وقائدهم الزبير.
ابتسم الملك تكمة وقد وقر الغدر في نفسه تماماً وقال:
- إذا هيا أيها الشجعان وهلموا إليّ صباحاً بالأخبار السارة.
أحد القواد سار إلى داره وهناك طلب من زوجته (أساروا)أن تعد له أدوات القتال فقالت له:
- إلى أين أنتم ذاهبون وإلى قتال من؟
- سنقتل الزبير فجراً وسنغير على مملكته ونستولى عليهاهكذا أمرنا الملك تكمة وهو فرح برؤى الكاهن تاكنو.

(٢١)

صمتت الزوجة وتناومت فنام زوجهاوعندما نهضت وفي أعماقها مودتها وصداقتها لرانبوه وهي تعلم أي حب تكنه للزبير قالت لنفسها:

- يا إلهيصديقتي ستفجع كثيراً بموت زوجها الحبيب لابد أن أذهب إليها الآن.

تخلصت أساروا بهدوء من جوار زوجها وتسللت إلى خارج دارها وامتطت ظلام تلك الليلة في حذر وخوف إلى أن أدركت مقر صديقتها رانبوهواقتربت من المخدع وهي تنادي بصوت خفيض:

- رانبوه رانبوهأريدك لأمر مهمأنا صديقتك أساروا.

- إنك تأتيني في وقت غير ملائمكيف سأنزع نفسي الآن..؟!ولكن لا بأس سأستقبلك فأنت صديقتي وعلى حبيبي الزبير أن ينتظر قليلا..!

- تعجلي يا رانبوه.

- سآتي حالا.

عندما أخبرت أساروا صديقتها رانبوه بتفاصيل المؤامرة ضد زوجها الزبير بدت غير مصدقة:

- لا لاوالدي يحب الزبير ولا يمكن أن يقدم على قتله.

- صدقيني يا رانبوههذا ما سيحدث فجراً سيقتلونه واقفاً أو ساجداً مع رفاقه في الصلاة إنها أوامر الكاهن تاكنو.

عندها صدقتها رانبوه وقالت لها:

- قاتل الله أولئك الكهنة الأوغاد وشكراً يا أساروا إنك صديقة رائعةمع السلامة اذهبي لزوجك قبل أن يفتقدك.

عادت رانبوه للزبير وأخبرته بما نقلته لها أساورا ونصحته

بالرحيـل فـوراً:
- إرحل فورا يا حبيبي لن أعيش إن رأيت دماءك تسيل.
- لم أتعـود الهـرب يـا حبيبتيسـأدافع عـن نفـسي وأقاتلهـم بمـن معـي مـن الرجـال.
- عهدتـك حكيـماً دائـما يـا حبيبيرجـال والـدي في غايـة الكثـرة والرجـال الذيـن معـك قليلونإنهـا حـرب وأنـت أعلـم النـاس بـأن الحـرب كـر وفـر اسـمع نصيحتـي وارحـل قبـل الفجـر.
- إذا سترحلين معي وابنتنا.
- لا يـا حبيبـي أتركنـا هنـا فذهابنـا معـك سـيعيق رحيلـك وسـيفضحنيعندها سـيعتقد أبي أننـي قـد نصحتـك بالرحيلدعنـي الآن أذهـب إلى رجالـك في الجـوار وأنقـل لهـم أمـرك بالاسـتعداد للرحيـل فـوراً.
بعد أدائها للمهمة عادت رانبوه للزبير وقالت له:
- هيا تعجل يا الزبير رجالك في انتظارك.
- ادني مني لأودعك.
- لا يـا حبيبيأعلـم أنـك سـتعود لي ذات يوم وسأسـتقبلك بمشـاعر مختلفةبالمشـاعر التـي تعودنـا عليهـاوالآن اصفعنـي يـا حبيبـي صفعـة داميـة..!
- ماذا تقولين؟
- قلت لك اصفعني الآنفخلف صفعتك يختبئ أمني وأماني.
فهـم الزبـير قصدهـا فصفعهـا عـلى وجههـا صفعـة قويـة فسـقطت دون صراخ والـدم يسـيل مـن بـين أسـنانها البيضاءوخـرج ولحـق برجالـه في ليلـة ظلـماء غـاب عنهـا القمـر. عندمـا أذن الزمـان لفجـر يـوم جديـد بالانبثـاق لم يجـد رجـال الملـك تكمـة المسـلحون الزبـير ورجالـه في موضـع الصلاةفاقتحم بعضهـم مخدعـه بحثـاً عنـه فوجـدوا رانبـوه سـاقطة عـلى الأرض

والدماء متجمدة فوق شفتيهاوعلى صدرها تبكي طفلتها آمنة. حملوهما للملك فسألها:
- من الذي فعل بك هذا؟
- إنه الزبير يا والدي ولا أدري السبب. أين هو؟
- لا أدري لا بد أنه قد هرب. ولكني سألحقه وأحاربه وأهزمه وأحتل مملكته.

في ذلك الوقت كان الزبير ورجاله قد أوغلوا بعيداً صوب ماندقبا وصاروا عصيين على اللحاق. وهناك صدم الجميع بغدر الملك تكمة لصهره الزبير الذي ناصره وهزم له أعداءه وساعده في توطيد أركان ملكه.

(٢٢)

بدأ الملك تكمة يرسل الرسل للزبير وهم يحملون رسائل تهديدية تقول: عليك يا الزبير أن تعود تاجراً وتترك الملك لي فأنا لن أسمح لك بتأسيس مملكة بجوار مملكتي. وما كنت سأرسل لك لولا ما بيننا من مصاهرة عليه عد تاجرا وإلا انتزعت منك الملك بالقوة. قال الزبير لرسل تكمة:

- قولو لمليككم الزبير يقول لك لن أتنازل عن ملك أسسته بحد السيف نزولاً على تهديد منكوعليه إن أراد أن يجرب قوته معي. ما أن سمع تكمة رد الزبير حتى جرد جيوشاً لا يحصى لها عد تحت قيادته وقيادة عمه مغبوهلتبدأ حرب طويلة ذات وقائع عنيفة بين الطرفين انتهت بعد عام كامل بمقتل الملك تكمة وعمه مغبوهفدانت ممالك كافة النيام نيام لسلطان الزبيروقد كان ملوكهم في حروب مستمرة ضد بعضهم البعضبل كانوا يصيدون بعضهم صيد الطيرفأخذ الزبير يؤلف بينهم ويقبح أفعالهم ويبسط الأمن بين ربوعهم فصاروا يتعاملون بالبيع والشراء ويتصاهرون.

وفي الديار التي انتصر فيها الزبير التقى زوجته رانبوه فقالت له وهي تستقبله بالبشر والترحاب وابنتها آمنة تقبض على مرطها:

- ألم أقل لك إنك ستأتيني ذات يوم وسأستقبلك بمشاعر مختلفة بالمشاعر التي تعودنا عليهافرحتي بك تساوي أضعاف أضعاف حزني على أبيفأنت ملكي ومالكي ولن أرضى بسواك لي أباً.

لم تنتقص من مشاعر فرحة الزبير بنصره سوى تلك الأخبار التي تواترت بعزم المدعو الحاج محمد البلالي احتلال بحر الغزال وهو يحمل فرماناً من الحكومة بتسميته مديراً على بحر الغزال..!



الفصل الرابع

الزبير يقتل البلالي ويهزم سلاطين دار فور ويأمر بإعدام عبد الله التعايشي

(١)

لم يكـن الزبـير في قـرارة نفسـه يطمـح في مُلـكٍ أو سـلطانٍ، ولكنـه كان تاجـراً اسـتثنائياً، فشـاءت الأقـدار أن يـمارس تجارتـه في مناطـق مجهولـة وموغلـة في البـداوة، تحفهـا المخاطـر ويلزمهـا الدهـاء السـياسي والحكمـة، فصـارت تجارتـه وسـلطانه كوجهـين لعملـة واحـدة، وكان لا بُـدَّ لـه أن يفتـح الطـرق، وأن يعلِّـم النـاس خاصةً أن في قلبـه عقيـدة، وفي ذهنـه فكـر، وكان مـن الطبيعـي أن يصحـب فتـح الطـرق إصـلاحٌ آخـر، وهـو اسـتحداث مؤسسـة منظمـة لإقامـة العـدل لتحـل في بعـض جوانبهـا مـكان فـوضى الأخـذ بالثـأر الفـردي، الـذي كان شـائعاً بـين الأهـالي. فقـد كان كل رجـل يثـأر لنفسـه ويأخـذ ثـأره بيديـه، وكان لا بُـدَّ لمشروعـه الفكـري والحضـاري أن يسـتمر بترغيـب الأهـالي في الإسـلام والأخـذ بيدهـم نحـو التمديـن والتحـضر بالاتجـار والزراعـة والتعمـير، وكانـت نفسـه تحمـل الـولاء للخلافـة الإسـلامية بحكـم عقيدتـه وثقافتـه، وهـو يعلـم أن ولايـة مـصر هـي التـي تخلـف وتنـوب عن البـاب العـالي، وأن حاكـم السـودان في ذلـك الوقـت جعفـر باشـا مظهـر هـو مـن ينـوب عـن خديـوي مـصر والخلافـة الإسـلامية، وعندمـا تواتـرت لديـه تلـك الأخبـار بعـزم المدعـو الحـاج محمـد البـلالي احتـلال بحـر الغـزال وهـو يحمـل فرمانـاً مـن الحكومـة بتسـميته مديـراً عـلى بحـر الغـزال، بـدأ يفكـر في الأمـر ويقلبـه ويقيسـه عـلى عقيدتـه ومبادئـه عـلى ضـوء انتصاراتـه وسـلطانه. مـا تلقـاه الزبـير مـن معلومـات عـن البـلالي أقلقتـه، فهـو رجـل مـن متخلفـي حجـاج الغـرب، اسـتعمل الحيلـة في إقنـاع الحاكـم جعفـر باشـا مظهـر ليـأذن لـه باحتـلال وضـم بحـر الغـزال، بالتزامـن مـع

قــرار الخديوي إسماعيل باشا بانتداب اليهودي البريطاني صموئيل بيكر بمأمورية فتح خـط الاستواء، وهــي الحملـة التـي صُرفت فيها ملايين الجنيهات، إضافة لراتب صموئيل بيكر الذي كان يصل إلى عــشرة آلاف جنيه سنوياً، وهو راتب خرافي في ذلك الوقت الــذي كانــت فيــه مــصر تعــاني ثقــل الديــون، فأصــاب طلــب البــلالي هــوًى في نفــس جعفــر باشــا، فقــد كان بالفعــل يرغــب في السيطرة على بحر الغزال وضمها لنفوذ الحكومة، غـير أن البــلالي كانــت لــه طموحــات شــخصية، وأنــه عندمــا بــدأ حملتــه دس الســم لقائــد القــوات المرســلة لــه مــن قبــل الحكومــة المصريــة لمســاعدته في ضــم بحــر الغــزال، وبــات معروفــاً أن القائــد «كرشــك» قــد مــات مــن أثــر ذلــك الســم، فقــد كان البــلالي لا يثــق فيــه، وعــده عائقــاً يحــول بينــه وبــين طموحاتــه الشــخصية، ومنهــا ادعــاء المهديــة بعــد أن يســتتب لــه الأمــر، لــذا بــدا الزبــير حــذراً مــن شــخص يتســم بالغــدر وهــو يقــرر لقــاءه ليســتفسره عــن أمــره، وبالفعــل التقــاه بمــشرع الــرق فأوقفــه عــلى أمــر الحاكــم بضــم دارفــور مــروراً ببحــر الغــزال.

(٢)

عـاد الزبـير لمندقبـا واسـتقبل البـلالي هنـاك هـو وجيشـه ولعـام كامـل استضافه، غـير أن نوايـا البـلالي الحقيقيـة استبانت، فبعـد أن نجـح في تجنيـد ألفـي رجـل بـدأ في احتـلال محطـات التجـار وأسرهـم ومعاملـة الأهـالي بقسـوة بالغـة. عـرف الزبـير أن البـلالي قـد قـرر أن يقـوم بإشـهار مهديتـه، وأن يشـن هجومـاً عـلى مندقبـا ويقتلـه ويسـتولى عـلى الحكـم فيهـا بـدلاً عنـه، وقـد بلـغ الأسـى بالزبـير مـداه والبـلالي يسـتولى عـلى محطـات التجـار، ويغنـم كل مـا فيهـا مـن بضائـع ويـأسر التجـار ويكبلهـم بالسلاسـل والأغـلال، ويقتحـم حرمـات النسـاء. بـدأ البـلالي يعـود إلى مندقبـا بعـد حملاتـه القاسـية، حيـث توجـد الثكنـات التـي أعدهـا لـه الزبـير واستضافه فيهـا، ولكـن عودتـه لم تكـن حميـدة، وهـذا مـا انتبـه لـه الزبـير، فقـد سـار البـلالي نحـو مندقبـا مقسـماً جيشـه إلى قسـمين بغـرض تطويـق المدينـة، وكان رجـال الزبـير وقـواد جيشـه البازنقـر البواسـل يتحرقـون شـوقاً للمبـادرة، فلـم يخذلهـم الزبـير أبـداً، فامتطـى فرسـه وبـدأ البـلالي وجيشـه يطلقـون الرصـاص، هـي حـرب أخـرى فُرضـت عـلى الزبـير، فصـاح هلمُّـوا يـا رجاليـا رابـح يـا عنقـرة يـا حامـد وإخوانكـم، دعونـا نلقـن درسـنا لهـذا الخائـن الغـدار، وبـدأ جيـش الزبـير في الـرد واسـتعر القتـال بشـدة وضراوة ليبـدأ بعدهـا الالتحـام والاشـتباك، وتداخلـت صفـوف المقاتلـين وكان الزبـير يعـرف مـا يريـد، فبـدأت عينـاه تبحثـان عـن البـلالي إلى أن وقعتـا عليـه، عندهـا وجـف قلـب الخائـن فاسـتعان برجلـين مـن رجالـه لحمايتـه مـن الزبـير، ولكـن الزبـير تمكـن منهـما وأرداهمـا قتيلـين، ووضـح لـه الهـدف ولم يكـن أمـام البـلالي سـوى

الهـرب، فاسـتحث حصانـه ليغـادر أرض المعركـة التـي هُـزم فيهـا، ولكـن أيـن المفـر والزبـير عـلى فرسـه يطـارده حتـى أدركـه بجـوار مسـتنقع صغـير، فتخـيَّر فيـه موضـع الخـوف والرعـب، فسـقط في ذلـك المسـتنقع متخبطـاً في دمائـه، وأظلمـت الدنيـا في وجهـه قبـل أن يتحـشرج ويسـلم الـروح.

(٣)

صدحت الموسيقى وأهازيج النصر من جديد في مدينة مندقبا، وأخذ الشعراء يمجدون الزبير وقواده وجيشه المنتصر، وقال شاعره أبوشورة:

دقنك دقن الرجال ما هي الدقينة أم طوطة
في اليوم أب حرب سنك تفرها مبسوطة
بوارق عنقرة وحامد وراك مفروطة
سكيت البلالي لامن وقع في البوطة

النصر لم يكتمل في نظر الزبير إلا بعد أن أطلق سراح أسرى البلالي، وأعاد للتجار ما سلبه منهم، فعاد التجار والأسرى من الأهالي إلى ديارهم، وذاع أمر هذا النصر وانتشر في أقاصي السودان، ووُصف الزبير بالملك العادل والمنصف، وبدأت الناس تفد إليه من كل الجهات في عاصمته التي عُرفت فيما بعد بديم زبير، إما للانضمام لجيشه أو للاتجار في بلاده التي شملت كل بحر الغزال، وبات ملكاً عظيماً، وحاكماً مطلقاً على كل بحر الغزال، ورغم ذلك أرسل الزبير رسالة لجعفر باشا مظهر حكمدار السودان، موضحاً له ملابسات حربه ومقتله للبلالي، فأوفد له جعفر لجنة تقصت الحقائق وأفادت وأكدت بوضوح أن الزبير لو اتخذ أي إجراء أو تصرف مخالف لما قام به، لعمّت الفوضى. وكنتيجة لرأي هذه اللجنة قدمت الحكومة شكرها للزبير ودفعت له كافة التكاليف والمنصرفات

التي تكبدها، وهو يعيل قوات البلالي لعام كامل، وأمرت أن يكون جنود البلالي تحت إمرة الزبير وقيادته، وأن يتم تعيين الزبير حاكماً على مديرية النيل الأبيض وبحر الغزال، وبهذا اكتسب الزبير السلطة الشرعية المستمدة من الخلافة الإسلامية، بعد أن أسس ملكه بالسِنان والحكمة، وانتهاج سياسة السلم والعدالة. بدأ الزبير يستأنف إجراءاته الإصلاحية في بلاده التي تملكها بوسائل شتى، آخرها الشرعية المستمدة من الخلافة الإسلامية، وبدا ملكاً مهاباً، وحكيماً عادلاً ورحيماً، وتضخم جيشه جيش البازنقر وصار مدرباً ومسلحاً تسليحاً حديثاً. وكوَّن مجالسه ووزع بينها الاختصاصات الشورية والقضائية والتنفيذية، على أن تحكم جميعها بشرع الله.

(٤)

ذات صباح خرج الزبير إلى مجلسه فقال له أحد القادة:
- ماذا نفعل بهؤلاء يا سيدي الزبير؟

- ماذا تقصد؟

- أعداد كبيرة من السحنات البشرية جاءوا إلى هنا من أماكن متفرقة.

- وماذا يريدون؟

- عدلك وكرمك.

خرج الزبير مع قائده، فوجد أن بعضاً من جنوده قد التفوا حول بقعة، جلس عليها ما لا يقل عن ستمئة شخص وكأنهم أسرى. أخذ يخاطبهم ويسألهم، فانبرى أحدهم للرد قائلاً:
- نحن يا سيدي الزبير رقيق هربنا من أسيادنا بالكلكلة والتعايشة، بعد أن سامونا سوء العذاب سمعنا بعدلك وحسن معاملتك، ونود الانضمام إليك، ونلتحق بخدمتك في جيشك أو أي خدمة تراها مناسبة.
- مرحباً بكم جميعاً في جيشي جيش البازنقر. أيها القواد صنفوهم واختبروهم وضموهم للجيش، أو الخدمات الأخرى التي تناسبهم.

بعدها جاء أحد القادة للزبير وهو يصطحب

معه شخصين من المنضمين الجدد وهو يقول:
- سيدي الزبير إنهما مميزان وقويان وذكيان يصلحان للقيادة.

- ما اسماهما؟

- حمدان أبوعنجة هذا الذي تراه عن يميني، والذي تراه عن يساري هو الزاكي طمل.

نظر الزبير إلى كل من حمدان أبوعنجة والزاكي طمل نظرة متأملة، فرأى فيهما غير الذي قال: (إن العبيد هم الذين يهربون من الحرية، فإذا طردهم سيد بحثوا عن سيد آخر؛ لأن في نفوسهم حاجة ملحة إلى العبودية؛ لأن لهم حاسة سادسة أو سابعة، حاسة الذُّل، لا بُدَّ لهم من إروائها، فإذا لم يستعبدهم أحد أحست نفوسهم بالظمأ إلى الاستعباد، وترامـوا على الأعتاب يتمسحون بها ولا ينتظرون حتى الإشارة من أصبع السيد ليخروا له ساجدين، إنهم لا يدركون بواعث الأحرار للتحرر، فيحسبون التحرر تمرداً، والاستعلاء شذوذاً، والعزة جريمة، ومن ثم يصبون نقمتهم الجامحة على الأحرار المعتزين الذين لا يسيرون في قافلة الرقيق).

(٥)

نظـر إليهـما وطيـف إبراهيـم الدنقـلاوي يقـول لـه: (تطـورت تجـارة الرقيـق في العـالم بحركـة التطـور الطبيعيـة للإنسـان، حيـث بـدأت بتناسـل الأرقـاء فيـما بينهـم، ثـم بالحاجـة المادية لمواجهـة ضرورات الحيـاة، فاضطـر الآبـاء لبيـع الأبنـاء لسـد الرمـق، كـما أن المديـن المعسـر يدفـع مـن أبنائـه أو أسرتـه كبديـل للـمال للدائـن، ثـم جـاء قراصنـة البحـار والـبراري بغزواتهـم والنهب والاسـتيلاء عـلى المسـافرين للاتجـار بهـم كرقيـق، وأفـرزت ظاهـرة الحـروب بـين الشـعوب بعضهـا بعضـاً أسرى حـرب، عوملـوا كرقيـق وتـم الاتجـار بهـم كذلـك كأكـبر مصـدر لتغذيـة تجـارة الرقيـق).

فقـال الزبـير لنفسـه: لا لسـتُ بتاجـر رقيـق، أنـا أشـتريهم لأعتقهـم وينضمـوا إلى ركـب جيـشي، ولـن يجـدوا منـي سـوى المعاملـة الحسـنة، أنـا لسـتُ كأبي عمـوري أو الخائـن محمـد البـلالي. انتبـه الزبـير وهربـت خواطـره عندمـا قـال لـه ذلـك القائـد: سـيدي الزبـير مـاذا تقـول مـا هـي أوامـرك؟ فقـال لـه: عُـد بهـما وإن كانـا يصلحـان للقيـادة - كـما تقـول - فضعهـما في المـكان الذي يناسـبهما وهمـا حُـران، وكل مـن لجـأ إليَّ فهـو حـر. صـار بعـد ذلـك حمـدان أبوعنجـة مـن قـادة الوحـدات في جيـش الزبـير البازنقـر، وهـي قيـادة تنسـمها بعـد التدريـب والتـدرج في الرتـب، واشـترك مـع الزبـير في أغلـب حروباتـه وفتوحاتـه، وكذلـك كان الزاكـي طمـل، فوضعـا في ذهـن الزبـير ذكريـات لا تُنسـى. عندمـا غـادر الزبـير إلى مـصر تـرك خلفـه قـادة عظامـاً لعبـوا أدواراً عظيمـة في تاريـخ السـودان وفي التاريـخ الأفريقـي الحديـث، غـير أن بعضهـم واجـه

مصـيراً قاسـياً، فبعضهـم مـات بالسـم، وبعضهـم جُـوِّع حتـى مـات، ومنهـم مـن لقـي حتفـه بحـدِ السـيف أو رميـاً بالرصـاص، منهـم قائـداه حمـدان والزاكـي، وقـد أحزنـه وهـو في معتقلـه ذلـك المصـير الـذي وجـده حمـدان أبوعنجـة عندمـا مـات مسـموماً بشربـة دسـوها لـه، وكانـت أحـزان الزبـير تتضاعـف والأنبـاء المريعـة تطـرق مسـامعه، بـأن الزاكـي طمـل اعتقلـه التعايـشي ووضعـه في غرفـة طينيـة صغـيرة أشـبه بالقـبر، ولم يسـمح لـه بشيء مـن الطعـام حتـى أراحـه المـوت مـن قسـوة معذبيـه، الذيـن كذبـوا عندمـا قالـوا إنـه هلـك في السـجن عـلى صفـة فظيعـة، وحالـة شـنيعة، وإنـه بمجـرد خـروج روجـه اشـتعلت النـار في جسـمه واسـود وجهـه..! كل هـذه الذكريـات المحزنـة كانـت تترافـق مـع ذلـك المشـهد الأكثـر حزنـاً وإيلامـاً، وجيـسي يعـدم ابنـه الحبيـب سـليمان ورفاقـه رميـاً بالرصـاص.

(٦)

في سبيل تفعيل مشروعه الحضاري للحاق بقطار المدنية، بدأ الزبير يفتح الطرق للتجارة ويشجع على الزراعة والتعمير في مملكته المتسعة، وفي سبيل ذلك لجأ إلى عقد المعاهدات بينه وبين القبائل، وفرض النظام، وقد نعم الكثيرون بسبب سياسة الزبير الحكيمة التي ظل يحكمهم بها. حتى قبائل البدويين شعرت بالأمان جراء الاتفاقية التي عقدها ورعاها الزبير، بأن يمارسوا تجارتهم في المواشي ومنتجات الألبان مع مندقبا بضمان حرية مرورهم عبر المناطق دون عائق أو اعتداء، مقابل رسوم على تلك القوافل حسب ما تحمل تلك القوافل من سلع، سواء أكانت له أو لآخرين، فما زال الزبير يتمسك رغم سلطانه العظيم بصفة التاجر. وافق الجميع على هذه المعاهدة وباركوها وأقسموا على تنفيذها، فشعروا بحياة طبيعية آمنة بعد ما كانت الطرق بين مندقبا وكردفان تمور بحوادث النهب والسلب وقطع الطريق على القوافل التجارية من قبل المغيرين، وخاصةً من بعض قبائل الرزيقات الذين عقد الزبير مع مشائخهم حِلفاً لفتح طريق (شكا) للتجارة مع دارفور برسم معلوم، يتقاضونه منه، فباتت التجارة تنشط ومضت القوافل تواصل سيرها، تحمل السلع من سوريا وطرابلس وتونس ومراكش.. وطيلة أربعة أعوام وتحت ظل تلك المعاهدات التي أبرمها الزبير ورعاها، عاش الجميع في سلام وأمن. كانت تلك السنوات الأربع هي سنوات الاستقرار والرخاء بمملكة الزبير، الذي أدرك أن مصاهرة القبائل في مملكته تعود بفوائد المحبة والتقدير، لذا

عـزم أن يتخـذ لـه زوجـات أُخريـات مـن تلـك القبائـل، وكانـت زوجتـه رانبـوه بنـت تكمـة قـد أهدتـه بنتـاً ثانيـة، وزوجتـه زينـب بنـت منصـور قـد وضعـت أكـبر أبنائهـا، فأطلـق عليـه الزبـير اسـم محمـد الحـارث، قبـل أن تهديـه فيـما بعـد ثـلاث بنـات، وعندمـا نفَّـذ الزبـير عزمـه تـزوج بخمـس مـن بحـر الغـزال، غـير أن الزبـير لم يـترك في عصمتـه إلا مـا حللـه لـه الـشرع، لـذا لم تكـن في عصمتـه أكثـر مـن أربـع زوجـات في وقـت واحـد، رغـم أنـه تـزوج في حياتـه اثنتـين وأربعـين زوجـة، خلفـن لـه سـتة وثلاثـين ابنـاً، وسـت وعشريـن بنتـاً.

(٧)

بدأت المتاعب تطل برأسها بعد مرور تلك السنوات الأربع، إذ بدأ عرب الرزيقات في اعتراض القوافل التجارية وقتل التجار وسلب بضائعهم وأموالهم، ناقضين بذلك العهد، ومخلين بالاتفاق، وبدأ التجار الذين يسلمون من تلك الهجمات الغادرة يلجأون للزبير ويشكون حالهم إليه، مطالبين بقهر أولئك البغاة وإلزامهم بما وافقوا عليه من عهد، فأدرك الزبير خطورة الأمر، وإن ترك أولئك البغاة دون كابح يعني تدمير التجارة وهدم كل ما بناه من أُسس الاستقرار والأمن والسلام، وبما أن الزبير يعلم أنهم خارج سلطته الإقليمية ويتبعون في ذلك لسلطان الفور السلطان إبراهيم ابن السلطان حسين، رأى أن الحكمة تستدعي مكاتبته، فأرسل بأمرهم كتاباً للسلطان إبراهيم، فيه ما فيه من التبجيل والاحترام والمنطق.

قال الزبير في كتابه للسلطان إبراهيم: إلى حضرة أمير الأمراء الكرام، مولانا السلطان إبراهيم ابن السلطان حسين، صاحب العزة والاقتدار والهيبة والفخار، أدام الله علاه آمين. أما بعد فنحن عبيد، أفندينا ولي النعم خديوي مصر المعظم، أتينا منذ عام ١٢٧٠ هجرية لفتح بلاد العبيد، فدانت لنا بلاد الفراتيت برمتها، وفتحنا الطريق منها إلى كردفان عن طريق شكا، فتعهد بحفظه مشائخ الرزيقات نظير جعل معلوم وضعناه لهم على التجار. ولكن لم يكن إلا اليسير حتى نكث الرزيقات العهد وربطوا الطريق وأباحوا دماء المسلمين وأموالهم، بدون وجه شرعي، وقد نهيناهم عن ذلك مراراً فلم ينتهوا، بل كانوا

يتفاخـرون بقوتهـم وخيولهـم العربيـة وأسـلحتهم الناريـة وقتلهـم للمقـدوم عبـد العزيـز أبي أحمـد شـطة وآدم طربـوش أبي الوزيـر بخيـت، وغيرهمـا مـن الفرسـان التابعـين لدولتكـم الفوراويـة، فأوجـب الله تعـالى علينـا حربهـم بدليـل قولـه: ﴿..فَقَاتِلُـوا الَّتِـي تَبْغِـي حَتَّـى تَفِـيءَ إِلَى أَمْـرِ اللَّهِ..﴾. ونحـن نتقـدم إليكـم بهـذا الكتـاب واثقـين أنكـم متـى علمتَـم حـال هـؤلاء العربـان الطغـاة، الذيـن خرجـوا عـن طاعـة سـلطنتكم منـذ ثلاثـين سـنة ونيـف، تنجدوننـا بسريـة مـن جيشـكم حتـى إذا مـا تـم لنـا إذلالهـم، نعـود فنسـوي الأمـر بيننـا، فإمـا أن تتركوهـم لنـا لنحكمهـم بالقسـط والعـدل، وإمـا أن نتركهـم لكـم فتفتحـوا الطريـق وتقدمـوا لنـا النفقـات التـي نبذلهـا عـلى عسـاكرنا في الحملـة عليهـم، والأمـل الإفـادة سريعـاً في حفـظ الله آمـين.

(٨)

لم يتلقَ الزبير بك رداً من السلطان حسين، ولا تزال غرائز البدو المتخلفة لا تطيق منظر القوافل الكثيرة التي كانت تمر، فتمادوا في مهاجمتها وسلبها وقتل عدد كبير من الرجال الذين يرافقونها، فأوفد الزبير مبعوثاً يذكرهم المعاهدة التي تواضعوا عليها، وكيف أنه أوفى بالتزاماته التي فرضتها عليه تلك المعاهدة، وكيف أنهم جنوا فوائدها وثمارها، رسماً وتجارةً وسلاماً، وبعد كل هذا تقتلون وتسرقون وتسلبون القادمين إليَّ؟

عاد الموفود خائباً فقد قالوا له: لقد ضقنا ذرعاً بهذه الاتفاقية ولم تعد تناسب عاداتنا، وهي غير لائقة بأمة محاربة يريد الزبير جرها للاتجار بالسمن والزبدة.

لم ييأس الزبير وعاد إلى التفاوض معهم من جديد، وذكرهم بقسمهم، وأنه قسمٌ لو تدرون عظيم، فقالوا ذلك أمر عفا عليه الزمان، ومع ذلك نجح الزبير في تجديد المعاهدة معهم، معلناً زيادة الرسم والعفو عن الذين سبق أن هاجموا القوافل، ولكن وبعد فترة قصيرة عاد البدو وخالفوا المعاهدة من جديد، عندما بدأوا مجدداً في مهاجمة القبائل، ورغم غضب الزبير إلا أنه آثر أن يخاطبهم من جديد آملاً أن يثوبوا إلى رشدهم، فبرز من بينهم رجل يدعى بريمة ناهضاً عنهم لمقابلة الزبير، وقد كان رجلاً حاد الذكاء، وحكيماً مؤمناً بالاتفاقية وفوائدها. التقاه الزبير وأبدى استعداده للدخول مع قومه في معاهدة

جديـدة، موضحـاً أن الطـرق الآمنـة مفتـاح الرخـاء، وأن قفلهـا أو الاعتـداء عـلى أصحـاب القوافـل التجاريـة التـي تمـر عليهـا مدعـاة للحـرب والقتـال.

فهـم بريمـة رسـالة الزبـير وبـات مقتنعـاً بفحواهـا، وقبـل أن يحملهـا إلى قومـه أراد الزبـير أن يختـبر قوتـه، فحملـه سـتمئة قطعـة مـن العـاج ليمررهـا بسـلام، فعـاد بريمـة بالعـاج لقومـه وعقـد معهـم مجلسـاً وفيـه قـال: إن الزبـير والتجـار جعلـوا لنـا جُعـلاً معلومـاً يصلنـا في توقيتـه وميعـاده، وبتنـا بموجـب الاتفاقيـة نـمارس التجـارة مـع مندقبـا في سـلام، وإذا تمادينـا في نهـب القوافـل التجاريـة فسـوف ينقطـع ركبهـا، ولـن نراهـم مجـدداً، وبذلـك نخسر جُعلنـا المضمـون مـع الزبـير، ولـن تجـدوا شـيئاً تسـلبونه، كـما سـنخسر تجارتنـا الآمنـة.

استـمر بريمـة في مـدح الاتفاقيـة معـدداً مزاياهـا، فلـم يصـبر عليـه المجلـس وقـال لـه أحـد فيـه:

- لمـاذا نقـوم دائـماً بتنفيـذ مـا يريـده هـذا الرجـل، فهـو يدفـع لنـا مبلغـاً صغـيراً مـن المـال، بينـما إذا قمنـا بسرقـة القوافـل فإننـا سـنحصل عـلى كل شيء؟

رد عليه بريمة قائلاً:

- ولكنكـم بعـد قليـل لـن تجـدوا مـا تسرقونـه، والزبـير لـن يترككـم آمنـين، فهـو تاجـر ولـن يسـمح لأحـد أن يمـس مصالحـه التجاريـة.

أحد الغاضبين في المجلس قال لبريمة:

- إن كنت صديقاً للزبير، فاذهب وعش معه.

حديث الرجل أثار من في المجلس، فهبوا واستولوا على ما مع بريمة من عاج وهم يقولون:

- إن هذا الرجل ذو قوة عظيمة، ولن يمر وقت طويل حتى يجيء إلينا ليواجهنا ويفتح بلادنا كما فتح بلاد البنجوس والنيام نيام، وإنه لمن الأصوب أن نهب لقتاله جميعنا الآن. قرروا بعد ذلك أن يكتبوا للزبير رسالة شديدة اللهجة.

كانت الرسالة التي تلقاها الزبير من البدو، رغم ما فيها من تحدٍ ورفض، كانت قصيرة ومختصرة وبتراء ومختومة، قالوا له فيها: لا يدورنَّ بخلدك أبداً أننا سنعود ونعقد معك أي معاهدة أخرى، فإن كانت عندك القوة الكافية فاخرج لقتالنا.

قرأ الزبير الرسالة وأمر أحد مساعديه بإرسال كاتب من كتاب بلاطه، وعندما وصل الكاتب أملاه الزبير رسالة إلى أولئك المشائخ قال فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

(من بعد السلام الوافر، أقول لكم بأني تلقيت رسالتكم وها هو ردي عليها، وسيحمله لكم رسولكم آمناً مطمئناً، فأنا طالب سلام ولستُ بطالب قتال أو حرب، ولا أرغب في قتال مسلم مثلي وعربي مثلي، أرغب أن أستمر في تجارتي ورعاية رعيتي، وأجدد لكم رغبتي في عقد معاهدة نصونها جميعاً ونرعاها، والسلام ختام)

جـاء الـرد سريعـاً عـلى هـذه الرسـالة، وقـد كان رداً مسـتفزاً وعدائيـاً جـاء فيـه:

(إن كنـت فعـلاً الرجـل القـوي الـذي يتحـدث عنـه النـاس، فعليـك أن تخـرج لقتالنـا وإلا فنحـن ماضـون إلى مهاجمتـك وتدمـير مدينتـك وإزالتهـا مـن الوجـود)

عندها قال الزبير لرسولهم:

- اذهب آمناً رغم أن قومك قد أعلنوا عليَّ الحرب.

(٩)

تذكر الزبير رجلاً كبيراً في السن كان قد حرره من قبضة البلالي يُدعى إدريس أبتر، فاستدعاه فبدا له أهلاً لثقته فقال له:
- حربٌ أخرى فرضوها عليَّ، فعندما أخرج لملاقاة العدو كن وكيلاً لتجارتي هنا.

- حاضر سيدي الزبير.هكذا رد إدريس أبتر.
لم تكن ثقة الزبير التي وضعها في إدريس أبتر في محلها، وهذا ما أثبتته الأيام، ولتلك قصة. وعندما بدأ الزبير يستعد لحرب البدو وصل لمندقبا صبيٌ بينه وبين السادسة عشرة خُطوة أو خطوتان، شفته العليا تتحرق شوقاً ليعتليها شارب، ووجهه صارمٌ وحازم، تزدحم في دمائه جينات الفروسية والشجاعة والإقدام، ابتسم الزبير في وجهه ثم سأله:

- هل حفظتَ القرآن؟

- نعم سيدي، وتعلمت الفروسية وركوب الخيل.

عندها استدعى الزبير قائد جيش البازنقر وقال له:

- خذ هذا الفتى يا رابح ولا ترحمه، علمه بقوة وشدة حمل السلاح واستعماله، وحدث بأمره كل القادة ليعجموا عوده ولا يرأفوا به أبداً، ثم سلحوه ليرافقنا في حربنا الوشيكة، الحرب التي لن نتركها حتى نفتح طريق شكا، ونُؤمِّن للقوافل

مسـارها وحتـى يُذعـن لنـا هـؤلاء البـدو.

- حـاضر سـيدي الزبـير، ولكـن مـن هـذا الفتـى الـذي يلقـى منـك كل هـذا الاهتـمام؟

- إنه ابني سليمان الحاج الزبير.

(١٠)

بلغت الاستعدادات أقصاها، فالزبير يعلم أن قواته التي تضم أربعة آلاف وخمسمئة مقاتل ستواجه جيشاً يربو مقاتلوه على خمسة عشر ألفاً، غير أنه كان يثق في نفسه ومطمئن أنه غير معتدٍ، وأن شجاعته وشجاعة أفراد جيشه ستقوده للنصر، وبعد أربعة أيام وصل جيش العربان البغاة على خيولهم ممنين أنفسهم بنصر على الزبير، ولكن جيش الزبير الذي عركته التجارب الحربية، وصقله التدريب الجيد، كان قد وضع خُطة جيدة لمجابهة العدو، فقد درَّب الزبير جنوده على إطلاق النيران وهم منبطحون أرضاً.

بموجب خُطة الزبير التكتيكية تم رشق العدو بالنيران، فسقط عدد كبير منهم، ولم يمضِ سوى نصف الساعة حتى أمكن صد العدوان، وأوقف تقدم قواته، فانسحبوا ولكنهم نظموا أنفسهم من جديد وأعادوا هجومهم بكرةٍ أخرى، فتصدى لهم جيش البازنقر فتراجعوا وعادوا مرة ثالثة وتراجعوا، وبحلول المساء استطاعوا أن يطوقوا الزبير وقواته، وأن يحيطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم من جميع الجهات، في شكل بيضاوي، استعداداً لحسم المعركة فجراً، وعندما سارت الليلةً موغلة في ظلامها، تسلل الزبير ورجلان من كبار قواده بهدوءٍ وخفيةً وطافوا حول خطوط العدو، وبعد أن تعرَّفوا على أضعف نقطة في مواقعهم، عادوا وأيقظوا جيشهم وداهموا به العدو قبل أن يبزغ الفجر، فأخذ جيش العدو على حين غرة، وكانت المفاجأة التي لم يتحسب لها العدو، الحرب والقتال

الليـلي، فانهزمـوا ولاذوا بالفـرار، وصـار الزبـير سـيداً للموقـف، ووقعـت في يـد الزبـير الكثـير مـن المغانـم، بينهـا سـتمئة فـرس كانـت بـذرة فرقتـه مـن الخيالـة، غـير أن الحـرب لم تنتـهِ عنـد هـذا الحـد، فقـد استمرت المعـارك لسـبعة أشـهرٍ متصلـة، انتهـت بنـصر باهـر للزبـير، فـدان لـه ثلاثـة أربـاع البـدو بالتسـليم والطاعـة، وفـر الربـع الباقـي لائـذاً بسـلطان دارفـور، وأضحـت بـلاد شـكا تحـت سـيطرته، فبـدأ يكتـب صفحـةً جديـدةً مـن صفحـات كتابـه المـليء بالانتصـارات.

(١١)

بـدأ الفـارون مـن جحافـل جيـش البازنقـر فـور وصولهـم إلى سـلطان دارفـور لائذيـن بـه، يتوسـلون لديـه لتبنـي مطالبهـم لمحاربـة الزبـير وطـرده مـن شـكا، غـير أن الزبـير كان زاهـداً في حكـم هـذه المنطقـة، وإن كان يرغـب بشـدة أن يسـودها الأمـن والسـلام، فهـو يعـد نفسـه تاجـراً في المقـام الأول، وهـذا مـا دعـاه لأن يكتـب لحاكـم السـودان الجديـد إسـماعيل باشـا قائـلاً لـه:

- إننـي أحـد رعايـا الدولـة المصريـة، وإننـي قـد أُرغمـت واضطـررت مكرهـاً لقتـال هـؤلاء النـاس، وليـس لـديَّ أيـة رغبـة في تملـك تلـك البـلاد وأخذهـا لنفسـي، فأرسـلوا مديـراً ليحكمهـا، لأن لـديَّ الكثـير جـداً مما يشـغلني عـن تـولي القيـام بحكمهـا وإدارتهـا، لكنـي سـأقوم بـكل مـا أسـتطيعه، لأن أسـاعد أي شـخص آخـر تعينونـه، فقـط يجب المبـادرة بمعالجـة هـذا الأمـر عـلى وجـه السرعـة وحسـمه فـوراً، لأنـه مـن الـضروري أن يتـم ذلـك دون أي تأخـير.

كانـت هـذه الرسـالة تعـبِّر بصـدقٍ عـن أفـكار وآراء الزبـير، فقـد اتسـعت أعمالـه التجاريـة في مندقبـا لدرجـة كبـيرة جـداً، وازدهـرت ومـلأت كلتـا يديـه، ولم يعـد طامحـاً في شيء أكثـر مـن أن يكـون التاجـر الحاكـم لتـك المديريـة، وأن يسـتمر في مشروعـه بتوطيـد أركان السـلم، وأخـذ النـاس إلى سـبل التمديـن والرخـاء، بالمزيـد مـن التشـجيع عـلى الزراعـة والتجـارة والقضـاء عـلى العـادات السـيئة وإنـارة طريقهـم إلى طريـق الإسـلام.

أُسـقِطَ في يـد الزبـير، إذ لم تجـد دعـواه التـي وردت في خطابه الاسـتجابة،

فعندما تسلَّم الحاكم إسماعيل أيوب لخطاب الزبير، قام برفعه إلى القاهرة، فجاء الرد من هناك بأن الزبير هو الرجل الوحيد المؤهل والكفء لحكم تلك الأقاليم المتوحشة، وأن ضمها إلى رقعة الحكم سيورط الحكومة في مناوشات وحروب صغيرة متواترة، وأن خير ما يمكن فعله هو أن يُترك الزبير حاكماً، على أن يدفع لهم الجزية، وأن يبقى فيما عدا ذلك مستقلاً يفرض ما شاء من ضرائب ويحكمها وفق ما يريد. تمعن الزبير في رد القاهرة وردد قائلاً: اللهم أعني وانصرني. لما كان الزبير رجلاً تنتظم حياته بالنظام ومراعاة الشرع، لم يقبل ما ورد برد القاهرة إلا بعد أن يكون الأمر موثقاً باتفاقية بين الطرفين، ليحتج بها كل طرفٍ على الآخر، فكان له ما أراد، إذ حُررت اتفاقية رسمية بذلك، حُددت فيها التفاصيل بشكل واضح. غير أن سلطان دارفور لم يكن راضياً عن هذه الاتفاقية التي تمت بين الزبير والحكومة المصرية، مدعياً أن شكا تتبع له وهي جزء من إقليمه، منكراً أي حق للحكومة المصرية للتصرف فيها. كان ذلك متزامناً مع تلك الطلبات التي ما تفتأ تطرق أذن السلطان حسين لمحاربة الزبير وطرده من شكا، حتى بات مقتنعاً بالأمر ساعياً إليه، وما درى أنه كان يسعى إلى حتفه بظلفه.

(١٢)

كان الزبير يحترم السلطان حسين وبدأ يخاطبه كثيراً من أجل أن يتفادى أي صدام معه، وكان يقول لخاصته إن السلطان حسين ابن إبراهيم، هو أمير الأمراء الكرام، وزين الأكرمين الفخام، ورث العزة والفخار كابراً عن كابر، وهو سليل سلاطين حملوا راية الإسلام، كان أولهم السلطان سولون سليمان، وكان فيهم السلطان محمد الفضل عبد الرحمن، الذي كان شجاعاً ومقداماً، فعندما دعاه الوالي محمد علي باشا للتسليم رد عليه بخطاب قال فيه:

(إلى حضرة الكوكب العالي والنير المتلألئ، بهجة الأنام، وقدوة الليالي، صاحب العز والافتخار، أخينا العزيز محمد علي باشا، إنكم طالبون دولتنا وطاعتنا وانقيادنا لكم، هل بلغكم أننا كفار وجب لكم قتالنا وأُبيح ضرب الجزية علينا؟ أو غركم قتالكم مع ملوك سنار والشايقية؟، فنحن السلاطين وهم الرعية..! أَوَرَدَ لك دليل من الله تجد فيه ملكك؟ أم ورد لك حديث من رسول الله تجد فيه تمليكك؟ أم خطر لك خاطر من عقلك بأن لك رباً قوياً ولنا رب ضعيف؟ الحمد لله نحن مسلمون، وما نحن كافرون ولا مبتدعون، ندين بكتاب الله وسنة رسول الله، ونؤدي الفرائض، ونترك المحرمات، ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، والذي لم يصلّ نأمره بالصلاة، والذي لم يزكّ نأخذ منه الزكاة ونضعها في بيت المال، ولا ندخرها، ونرد الأمانات إلى أهلها، ونعطي كل ذي حق حقه، حتى دانت لنا القبائل العظام، ومن أتى دولتنا يرجع مكرماً بإذن الله تعالى، ألم تر قوله صلى الله عليه وسلم: «لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ لَدَكَّ اللهُ الْبَاغِيَ مِنْهُمَا». أما

علمت أن دارفور محروسة محمية بسيوف قطع هندية، وخيول جرد أدهمية، وعليها كهولة وشبان يسرعون إلى الهيجــاء بكرة وعشية؟!.
أما علمت أن عندنا العبُّاد والزهاد والأقطاب والأولياء الصالحين من ظهرت لهم الكرامات في وقتنا هذا، وهم بيننا يدفعون شر ناركم، فتصير رماداً، ويرجعون الملك إلى أهله؟ ويكفي من بعد ذلك، والله يكفي شر الظالمين.)

(١٣)

لكل ذلك كان الزبير يريد تفادي الحرب مع السلطان إبراهيم، غير أن رسالة وقعت في يد الزبير كان قد حررها السلطان حسين إبراهيم لبعض مساعديه وأتباعه، ملأها شتماً وإقذاعاً ضد الزبير وعزماً على حربه، على أن الزبير تمسك بالسلم وعاود كتابة رسائله للسلطان حسين، ولكن السلطان لم يأبه بها وطالب الزبير بإخلاء شكا، فرد عليه الزبير قائلاً: لقد كانت تلك البلاد خاضعةً لك طيلة ست وثلاثين سنة، وعلى طول هذه المدة كان اقتناص الرقيق مستمراً فيها، وظلت الطرق غير مأمونة، وليس لديك القوة لحفظ النظام فيها، ولا أحد يستطيع تحقيق ذلك سواي، وقد حاولت أنت عدة مرات قبل ذلك ولم تنجح، وأنت تريد مني الآن أن أتركها ولكني لن أفعل، فأنا مصمم على تأكيد وضمان سلامة هذه الطرق. كان واضحاً أن السلطان يسير في طريق الحرب، رغم أن الزبير بذل جهداً في سبيل الوصول معه إلى تفاهم واقترح، أن يطرح الموضوع أمام مجلس من الحكماء والعقلاء ملتزماً من جانبه بقبول نتائج تحكيم ذلك المجلس، إذا ما سُمح فيه بالنقاش الحر، فرفض السلطان إبراهيم هذا الاقتراح وأرسل للزبير قائلاً:

- إنني أنا ملك، أما أنت فلست بشيء، ولهذا فلن أتفاهم معك.

(١٤)

قبـل أن يبـدأ السـلطان إبراهيـم صدامـه مـع الزبـير، لجـأ لمحـاولات دبلوماسـية لحسـم صراعـه مـع الزبـير، فأرسـل للخديـوي إسـماعيل شاكياً تعديات الزبير على حدود بلاده، وتأييد الحكمدار لتلك التعديات، كما ذكّر الخديوي بالعلاقات الطيبة التي كانت قائمة بين سلطنة دارفور ومصر أيام أبيه، وطلب منه التدخل للحد من هذه التعديات بصفته الشخصية أو التدخل للوساطة بينه وبين الزبير، غير أن الخديوي لم يعط اهتماماً لهذه الرسالة، وحين فشل السلطان إبراهيم في مسعاه قرر اللجـوء إلى السـلطات العثمانيـة عـن طريـق أمـير مكـة المكرمـة، الشريـف عبـد الله بـن محمـد بـن عـون، لما له من مكانة وحظوة لدى العثمانيين، فأرسل السلطان إبراهيم وفداً سرياً إلى الحجاز برئاسة وزيره وزوج أخته الحاج إدريس، حاملًا المكاتبات اللازمة ومبلغ مئتي ألف ريال، نصفها للأستانة والنصف الآخر للشريف عبد الله، وذلك للحصول على دعم سياسي أو عسكري ضد الخديوي إسماعيل وحكومة السودان، وقد سلك الوفدطريق الواحات إلى أسيوط ليأخذطريقه إلى الحجاز ومن هناك إلى الأستانة، غير أن الحكمدار كشف تلك الخطة فبـادر بإبلاغهـا للقاهـرة، وبنـاءً على ذلك أصدر الخديوي أوامره بمراقبة الوفد وتتبع خطواته والقبض عليه عند وصوله أسيوط، مع مراقبة موانئ الإسكندرية والسويس، منعاً لوجود وفد آخر في طريقه لمغادرة البلاد.

بـدا وفـد السـلطان إبراهيـم في ورطـة، وقـد أحـسَّ أفـراده أنهـم غـير مرغـوب فيهـم في مـصر، التـي لـن تسـمح لهـم بالمغـادرة إلى الحجـاز أو الأسـتانة، ولم يشـفع لهـم مـا يحملونـه مـن هدايـا لينتهـي

الأمـر بهـم إلى الحجـز ومصـادرة مـا يحملونـه مـن أمـوال، وكان هـذا الأمـر طبيعيـاً، إذ لـن تسـمح الإرادة السـنية لنفسـها بالدخـول في مشـاكل جانبيـة مـع الـوالي في مـصر، وبذلـك فشـلت مسـاعي السـلطان حسـين في حسـم صراعـه مـع الزبـير دبلوماسـياً أو قـل إن نوايـاه في تأليـب السـلطات في مـصر والأسـتانة لطـرد الزبـير أصابهـا الفشـل، وهـذا مـا أدى لتسـارع خطواتـه نحـو الصـدام مـع الزبـير حربيـاً، وقـد بـدا الزبـير متعجبـاً مـن تصرفـات السـلطان حسـين، وأسرَّ لمجلسـه أن السـلطان كان بإمكانـه أن ينـال هدفـه عـن طريـق التحكيـم، لا عـن طريـق التهديـد بالحـرب أو تأليـب البـاب العـالي عليـه، ثـم بـدأ الزبـير محاولـة أخـرى ربـما تـؤدي لحقـن دمـاء المسـلمين، فكتـب لعلـماء دارفـور مـن الفقهـاء يحثهـم عـلى أن ينصحـوا السـلطان حسـين مـن اللجـوء للحـرب، حقنـاً لدمـاء المسـلمين، غـير أن الزبـير لم يتلـقَ منهـم رداً، الأمـر الـذي دعـاه لكتابـة رسـالة إلى السـلطان حسـين طالبـه فيهـا بـأن يسـلمه المدعويـن (منـزل وعليـان) باعتبارهمـا يتحمـلان الـوزر الأكـبر في قطـع الطـرق والاعتـداء عـلى القوافـل والتسـبب في مـا جـرى مـن معـارك، ووعـد الزبـير أنـه سـيقدمهما لمحاكمـة عادلـة تُراعـى فيهـا الأصـول الشرعيـة.

(١٥)

وضـع السـلطان حسـين مكاتبـات الزبـير جانبـاً وبـدأ في تجهيـز جيـش قوامـه أربعـون ألـف مقاتـل، مـن بينهـم تسـعة آلاف مـن الخيالـة، وثلاثـة وعـشرون مدفعـاً، وعـيّن عـلى رأسـه رجـلاً اسـمه شـكتا، أحـد أرجـح مستشـاريه عقـلاً، وعندمـا بـدأ شـكتا يقـود جيشـه ويتقـدم نحـو موضـع الزبـير، وأسرعـت العيـون بإخبـار الزبـير بشـأن هـذا التحـرك، فأخـذ يسـتعد وخـرج عـلى رأس خمسـة آلاف مقاتـل لملاقـاة أعدائـه، فتقابـل الجيشـان في موضـع يقـع عـلى مسـيرة أربـع وعشريـن سـاعة إلى الشـمال الغـربي مـن شـكا، فتحاربـا وهُـزم الزبـير وفقـد نحـو أربعمائـة مـن رجالـه، بخـلاف الجرحـى، وتقهقـر الزبـير صـوب شـكا، ولكـن قـوات شـكتا لاحقتـه عـلى بعـد سـت سـاعات مـن ذلـك الموضـع وهاجمتـه، واسـتمر القتـال مـن الثالثـة بعـد الظهـر إلى حلـول المسـاء، فأصـاب قـوات الزبـير الرهـق، غـير أن الزبـير تمكـن أن يصـل بهـم إلى مدينتـه المحصنـة شـكا، فلـم تتركـه خيالـة العـدو وبـدأت تهاجمـه هنـاك طـوال الليـل، وعنـد انبـلاج الصبـح كان أعـداء الزبـير يحكمـون حصارهـم عـلى شـكا الحصينـة، ولكـن موقـف الزبـير كان قـد تحسـن بعودتـه إلى شـكا، حيث اسـتجم جيشـه بهـا وتـزود بالطعـام، كـما أن قوتـه العدديـة تضاعفـت بضـم مـن كان قـد تركهـم فيهـا، وبذلـك أصبـح مسـتعداً ومهيـأً أكثـر للحـرب.

(١٦)

عندما سطعت الشمس بنورها كانت مدافع العدو المااردة تطلق قذائف عنيفة الدوي، قوية الضرم، ودارت رحى حرب طاحنة ساحقة، استبسلت فيها قوات الزبير، وفي هذه المعركة الشرسة سقط شكتا قائد جيش السلطان صريعاً، فاضطرب جيشه الذي فقد الرأس، ولم يمضِ وقت طويل حتى انجلت المعركة بانتصار الزبير وفرار جيش السلطان، تاركاً خلفه كل مدفعيته ودروعه وجِماله المحملة بالذخائر، وعدداً كبيراً من الخيول والأسلحة الصغيرة، وكل ما كان في معسكرهم من مؤنٍ وعتادٍ، لتكون مغنماً للزبير وجيشه. الناظر لهذه الغنائم العسكرية سيدرك بسهولة أنها من النوع القديم جداً، مقارنة بأسلحة الزبير الحديثة التي استوردها من القاهرة مع بنادقه الفرنسية الجيدة، ولعل هذا كان عنصراً من عناصر انتصار الزبير، إذا ما أُضيف له عناصر أخرى، كالتدريب والتكتيك الحربي، وبسالة جيش البازنقر الذي يضم عدداً من قبائل (النيام نيام)، من آكلي البشر الذين كانوا يهرعون نحو قتلى العدو والتهام جثثهم، الأمر الذي دفع بالرعب والفزع إلى قلوبهم. لم يركن الزبير لهذا الانتصار، بل تحسب أن العدو سينظم صفوفه ويعود، لذا أسرع بتزويد جيشه بكل ما غنمه من موارد وإمدادات، وأضاف لخيالته المزيد مع الدعم المعنوي الذي ارتفعت وتيرته بعد هذه المعركة الشرسة التي أنهاها لصالحه.

كما توقع الزبير، فقد أرسلت دارفور جيشاً ثانياً لمحاربته، جيشاً

عرمرماً يقوده زعيم قوي الشكيمة يُدعى (أبونا)، غير أن الزبير كان مطمئناً هذه المرة، واثقاً في نفسه وقوة جيشه، وفي أن النصر سيكون حليفه، فتقدم لملاقاة جيش أبونا في الكلكلة، حيث بدأ القتال العنيف عند الثامنة صباحاً وانتهى بنصر مبين للزبير، الذي تمكن جيشه من قتل أبونا، قائد جيش الفور، وأخذ سبعة من أبنائه أسرى، بالإضافة إلى كميات ضخمة من الغنائم والذخيرة، وعاد الزبير بكل ذلك إلى شكا، ولكنه أيضاً لم يستكن لنصره الثاني، فهو يعلم أنهم لن يتركوه، فلم تمضِ سوى عشرين يوماً حتى أتوا له بكرةٍ ثالثةٍ، بجيش يقوده الفارس نور الذي لم يكن مصيره أفضل من مصير سابقيه، وإن فضّل الفرار على الموت. فرضت هذه الانتصارات الثلاثة تخلي البدو الذين كانوا يدينون بالولاء لسلطان دارفور عنه، ويمموا وجوههم شطر الزبير، مذعنين له بالطاعة، فازدادت قوات الزبير، وبلغ جيشه اثني عشرة ألفاً من المشاة، وعشرة آلاف من الخيالة، أحسَّ الزبير بعدها أنه حاز قوة تسمح له وتدفع به للتقدم إلى مدينة دارا، ثاني أكبر مدينة آنذاك في دارفور بعد الفاشر، وقبل أن يصل الزبير بجيش البازنقر الذي صار فيه ابنه سليمان أحد قواده، حدث أمر مهم.

(١٧)

كانت القرى التي تقع في الطريق إلى دارا تسلّم للزبير وتذعن له، غير أن أعوان الزبير قبضوا على شخص في قرية يقال لها (السروج) وأتوا به للزبير مخفوراً، وقبل أن يسأل عن أمره فاجأه الرجل المقبوض عليه بقوله:

- أنت يا سيدي الزبير المهدي المنتظر، إنك لا تدرك ذلك ولكني قد رأيت ذلك في رؤية ورؤاي لا تكذب أبداً..!

نظر إليه الزبير بتهكم وقال له:

- لا تردد مثل هذا القول، أنا لستً بمهدي منتظر، إنما أنا مجاهد وأعرف شرع الله جيداً.

ثم التفت لخفره وسألهم:

- ما بال هذا الرجل؟

فقالوا له:

- إنه يا سيدي فقيه من فقهاء الرزيقات من قبيلة التعايشة، يقرأ لهم الأسماء في خلوته من أجل أن تخيب أسلحتنا وتخبو نيرانها، وقد جعلوا له بقرة في كل (مُراح)، وقد ألقينا القبض عليه وهو يمارس هذا السحر والشعوذة علينا.

- إذاً فهو ساحر.

هكذا قال الزبير، ثم قال للرجل:

- ما اسمك؟

- اسمي عبد الله ود محمد آدم تور شين.

- أتدري ماذا سأفعل بك؟

- لا أدري.

- بل تدري إن كنت مسلماً، فحكم الساحر في الإسلام هو القتل.

بعدها التفت الزبير لمساعديه وقال لهم:

- ماذا تنتظرون، خذوا هذا الرجل واقتلوه..!

(١٨)

كانـت أخبـار السـودان تـأتي للزبـير وهـو في منفـاه، وتختلـط بمشـاعره ونفسـه الأسـيرة. كلهـا ذكريـات يأخـذ بعضهـا برقـاب الأخريـات، تحـسر عـلى مـا آل إليـه حـال السـودان مـن بعـده، وعندمـا تذكّـر وجـه التعايـشي الـذي أمـر بإعدامـه ذات مـرة، كان يقـول لنفسـه: لـو لا التزامـي بالشـورى ومعارضـة العلـماء، لنفـذ فيـه حكـم الإعـدام، ولنجـا السـودان مـن هـذه الفـوضى التـي تـضرب بأطنابهـا كل أجزائـه.

كان مـع الزبـير اثنـا عـشر عالمـاً مـن علـماء الـشرع، جعلهـم يقسـمون أمامـه بـأن لـو رأوا في أحكامـه اعوجاجـاً عـن الـشرع، أن ينبهـوه إليـه، فعندمـا أصـدر حكمـه بإعـدام عبـد الله التعايـشي اعـترض العلـماء عـلى هـذا الحكـم وقالـوا لـه:

- إن الـشرع لا يسـمح لـك بقتـل أسـير الحـرب، فضـلاً عـن أن السياسـة تنكـر عليـك قتـل رجـل يعتقـد النـاس في صلاحـه، لأنـك لـو قتلتـه نفَّـرت منـك القبائـل، وعدَّتـك رجـلاً ظالمـاً مخيفاً.

نـزل الزبـير عـلى مشـورة ورأي علمائـه، وقـام بإلغـاء حكـم الإعدام الـذي أصـدره بحـق التعايشي.

لا تـزال الذكريـات تلـحُّ عـلى خاطـر الزبـير، فـرأى مشـاهد أخـرى مـن قصـة هـذا الرجـل الـذي نجـا مـن الإعـدام، والـذي ورث عـن والـده محمـد آدم البرنـاوي الأصـل والملقـب بتـور شـين، لقبـح منظـره، علـوم الرمـل، فقـد كان تـور شـين مشـهوراً

بادعــاءات علمــه بالغيــب، وبذلــك نــال حظــوة كبــيرة خاصــة عندمــا صدقــت بعــض تكهناتــه، فقــد كان (التعايشــة) يغــزون بــلاد الســود مــن وقــتٍ إلى آخــر، فــكان إذا بشّرهــم بالنــصر غــزوا، وإن حذّرهــم انتهــوا، فجمــع بذلــك مــالاً كثــيراً، وتــزوج بأكثــر مــن امــرأة مــن نســاء التعايشــة، وأنجــب عبــد الله.

يذكــر الزبــير أنــه عندمــا تــم لــه فتــح دارفــور، طلــب منــه عبــد الله أرضــاً في قيجــة غــرب الكلكلــة فأعطاهــا لــه، بــشرط أن يكــف عــما يمارســه مــن دجــلٍ، غــير أن عبــد الله عــاد وأرســل للزبــير رســالة قــال لــه فيهــا:

(رأيــتُ في الحلــم أنــك المهــدي المنتظــر، وإني أحــد أتباعــك، فاخــبرني إن كنــت مهــدي الزمــان لأتبعــك).

فرد عليه الزبير برسالة قال له فيها:

(اســتقم كــما أمرتــك، أنــا لســتُ بالمهــدي، وإنــما أنــا جنــدي مــن جنــود الله، أحــارب مــن طغــى وتمــرد).

ومنــذ ذلــك الوقــت بقــي عبــد الله التعايــشي في قيجــة، وقــرر أن يرحــل منهــا هــو وأبــوه وتلامذتــه قاصديــن الحجــاز، وبقــوا ســائرين إلى أن أتــوا دار الجِمــع في كردفــان، فنزلــوا عنــد شــيخها عســاكر أبي كلام في أبي رُكبــة، وهنــاك مــات أبــوه ودُفــن في أبي ركبة، إلى أن اشــتهر أمــر محمــد أحمــد في الجزيــرة أبــا، فهاجــر إليــه وصــار مــن أعــزَّ أنصــاره.

(١٩)

بـدأت أصـوات الحـروب تجلجـل في رأس الزبير وهو بمـصر وأربع سـنوات تفصـل بـين قرنـين، كان فرحـاً بـما حققه ابنـه بالتبنـي رابح فضـل الله، الـذي أقـام ملـكاً عظيـماً في برنـو التشـادية، وأطلـق عـلى عاصمتـه اسـم (إنجمينـا)، كانـت هـذه الـرؤى تأتيـه في ليـل بهيم لم يقطـع هـدوءه إلا بعـض كبـار الفرنسـيين مـن أصحـاب النفـوذ في فرنسـا، فأخـذوا يطرقـون بـاب قـصره بعـد منتصـف الليـل طرقـاً ينبـئ عـن سريـة زيارتهـم.

كان الفرنسـيون قـد ادعـوا أن إنجمينـا تقـع في نطـاق نفوذهـم، فجـردوا جيشـاً لإخـراج رابـح منهـا عنـوةً، غـير أن رابـح تلميـذ الزبـير هـزم تلـك الجيـوش في أكثـر مـن معركـة داميـة، ففكـروا في الاتصـال بالزبـير في القاهـرة، وكانـوا يعلمـون مـدى تأثـيره عـلى رابـح، بقصـد أن يقنعـه بالانسـحاب مـن إنجمينـا.

الزبـير الـذي كان سـعيداً بانتصـارات رابـح عـلى الفرنسـيين، ومـا حققـه مـن سـلطان ومجـد بتشـاد، مـا كان ليقبـل مـن الفرنسـيين طلبهـم الـذي دعمـوه بمبالـغ طائلـة، نظـر إليهـا الزبـير ودمعـة تـكاد تطفـر مـن عينيـه، وهـو يذكـر رابـح والغـزوات، فأحـسَّ بنسـمة حزينـة ناعمـة تهـب في صـدره وتسـوق لـه مواكـب المـاضي وذكريـات أعـوام طويلـة خلـت ومضـت، بعـد أن قذفـت في كيانهم رائحـة البـارود وهتافـات النـصر وأهازيجـه. عندهـا نظـر الزبـير إلى أولئـك الفرنسـيين نهـض ونـادى زوجتـه الإنجليزيـة الفرنسـية الأصـل، مـدام كـوخ، لتكـون معـه في وداع زائريـه وسـار نحـو

بوابة الخروج، فأيقن الفرنسيون أن الباشا قد أنهى الزيارة، وعندما خرجوا قال لهم وهم يوالونه ظهورهم:

- لن أبيع ابني من أجل حفنة من النقود، إن رابح امتداد لمعلمه ومربيه، وحق له أن يستحوذ المجد.

خرج الفرنسيون وقد تيقنوا أن مهمتهم التي جاءت بهم للزبير انتهى أمرها بالفشل الذريع، وما كان أمامهم سوى أن يواصلوا حربهم ضد رابح بكافة الوسائل وبأعنف الطرق، وفي ذاكرتهم تلك الهزائم التي نالوها على يد البطل رابح.

(٢٠)

عندما أسلم القرن التاسع عشر قيادة الزمان للقرن العشرين، بات ما صار معروفاً، فقد اتحدت القوات الفرنسية تحت قيادة حاكم الشاري بتشاد المدعو جنتيل، لكسر شوكة رابح، لتدور المعارك سجالاً بين الطرفين لتنتهي بمعركة كوسوري بالقرب من بحيرة تشاد، وفي هذه المعركة أُصيب رابح إصابة قاتلة أسقطته من فوق حصانه، فظن القائد فورولامي أن خصمه قد مات، فترجل عن حصانه ليركل جثة رابح ويضع حذاءه العسكري النجس فوق صدره، علامة الانتصار عليه، ونفثاً لغيظه المكتوم، لما ألحقه بهم من هزائم مريرة، ولكن البطل رابح ينتفض كالطير الجريح وينتزع مسدسه ويطلق على رأس القائد الفرنسي رصاصةً قاتلةً أردته صريعاً، فسقط ميتاً إلى جواره، دون أن يتذوق طعم حلاوة النصر، والقائد البطل رابح يحس بدبيب الموت يسري في أوصاله، فيتحامل على نفسه ويظل يزحف حتى وصل إلى نهر شاري القريب من ميدان المعركة، فيرمي نفسه داخل النهر حتى لا يجد الفرنسيون جثته فيمثلون بها.

وقع الخبر على الزبير وقعاً أليماً فقال:

- مات ابني الثاني رابح على أيدي الفرنسيين، مات ميتة الأبطال وذهب ذهاب الصناديد الأشداء، فليرحمك الله يا رابح، كنت أتوسم فيك تعويضاً عن ابني سليمان الذي قتله بالغدر والخيانة الضابط جيسي، كلاكما يا أحبائي متما برصاص الأجنبي، قدَّر الله وما شاء فعل.

(٢١)

كان الزبير ينتظر قبل أن يتحرك رداً من السلطان إبراهيم على رسائل سبق وأرسلها له لعل يكون في رده ما يحقن الدماء ويوقف المعارك، فيتوقف زحفه، وكان أحد تلك الخطابات يقول:

(من الزبير رحمة الجميعابي إلى السلطان إبراهيم

أما بعد السلام، فقد كتبتُ إليكم أولاً وثانياً بشأن الرزيقات، فلم أحظَ بجواب منكم، بل رأيت كتاباً مختوماً بختمكم إلى الشيخ مادبو بن علي وغيره من مشايخ الرزيقات، تكثرون فيه من ألفاظ الشتم والسُّباب لي بقولكم أني جلابي باغ، وتقولون إنكم تجردون الجيوش لطردي من البلاد، مع أنّي سبق وأخبرتكم بالسبب الذي من أجله دخلت بلاد شكا، وقلت إني ما جئت ثائراً ولا باغياً، بل جئت لتأديب الرزيقات الذين سعوا في الأرض فساداً وخرجوا من سلطانكم، وقد استنجدتكم عليهم فلم تنجدوني، وسألتكم تسليم منزل وعليان اللذين هما أصل الفساد، فما سلمتوهما وصممت على الحرب. وذلك ليس من قصدي ولا مرادي، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها». خصوصاً وأنه لم يكن بيننا وبينكم ولا كان بين آبائنا وآبائكم حرب ولا عداء، ولا أمرتنا دولتنا بمحاربتكم. أما وقد اخترتم هذه السبيل، فاعلموا يقيناً أن جميع ما يُسفك من دماء الطائفتين من المسلمين، إنما أنتم المسؤولون عنه بين يدي الله يوم

القيامـة، إذ تجتمـع الخصـوم. وبعـد هـذا الإنـذار الجـلي، فـإذا حاربتمونـا فاعلمـوا أننـا منصـورون عليكـم، لأننـا بجانـب الحـق والعـدل، وأنتـم بجانـب البغـي والظلـم، فضـلاً عـن أننـا ليـوث حربيـة وصلـة عباسـية وسـلالة هاشـمية، ولنـا النـصر مـن رسـول الله كـما قـال عليـه الصـلاة والسـلام: «اللهـم انـصر العبـاس وأبنـاءه»).

مـا كان يأملـه الزبـير لم يحـدث، إنـما الـذي حـدث أن ارتفعـت وتـيرة الحـرب إلى أقصاهـا.

لم يجِـد السـلطان حسـين إبراهيـم أبـداً عـن مبدئـه بمحاربـة الزبـير وطـرده مـن شـكا، وكل أرضٍ آلـت إليـه باعتبارهـا جـزءاً مـن سـلطنته، وواصـل سياسـة التجاهـل والتقليـل مـن شـأن الزبـير، ورفـض أن يفاوضـه أو أن يسـتجيب إلى مطالبـه كلهـا، بـما فيهـا تسـليمه منـزل وعليـان، وكان الزبـير يعدهمـا رأس الحيـة وأُس البليـة والفتنـة، وقـد حزَّ في نفـس الزبـير أن علـماء دارفـور الفقيـه سـلامة بـن الفقيـه مالـك، والفقيـه فخـر الديـن بـن الفقيـه محمـد سـالم، والفقيـه سـالم شـيخ العزيمـة والإمـام الضـو بـن الإمـام المـصري، قـد أصابهـم الوجـل، فصمتـوا عـن الـرد عـلى الرسـالة المطولـة التـي وجههـا لهـم وقـال في نهايتهـا:

(فالأمـل مـن حضراتكـم يـا علـماء الإسـلام، أن تفيدونـا عـما دعـا سـلطانكم إلى محاربتنـا، وهـلاكِ عسـاكر المسـلمين منـا ومنـه، فـإن كان لـه وجـه شرعـي في ذلـك، ونحـن المخالفـون للشريعـة، فنحـن نشـكره عـلى أجـره، ونطلـب المغفـرة مـن الله ومنـه، وإن كان هـو المخالـف، فكفـى بـالله شـهيداً بيننـا وبينـه، ولا حـول ولا قـوة إلا بـالله العظيـم).

أعـداء الزبـير لم يتركـوه وهـو في شـكا متقدمـاً نحـو دارا، إذ بـدأ الشرتـاي أحمـد نمـر يحـاصر ويهاجـم اسـتحكاماته، آمـلاً وقـف الزحـف حتـى تصـل الجيـوش التـي أعدهـا السـلطان حسـين لمحاربتـه، عندهـا استنهض الزبـير أحـد قـواد البازنقـر وهـو رابـح، فخـرج إليـه بفرقـة مـن الجيش فقتـل الشرتـاي ومـن معـه، وغنـم مـا عندهـم مـن خيـول ودروع وخـوذ ومـواشٍ.

بعدهـا بـدأ الزبـير ينظـر تلـك النظـرة التـي يعـرف معناهـا قـواده سـليمان الزبـير ورابـح فضـل الله والنـور عنقـرة والزاكـي طمـل وحمـدان أبوعنجـة ومحمـد عبـد القـادر وغيرهـم، إنهـا نظـرة الاسـتعداد للحـرب والتحـرك للنـصر، فانطلقـت الموسـيقى وتعالـت صيحـات الجنـود الذيـن امتـلأت نفوسـهم بأحاسـيس النـصر والزبـير يقـول: (هيـا بنـا إلى دارا). فزحـف عليهـا لتصـير المدينـة الدارفوريـة الثانيـة بعـد الفـاشر في قبضـة الزبـير، وحفـر حولهـا خندقـاً بعمـق اثني عـشر قدمـاً، وظـل يقيـم بداخـل هـذه الاسـتحكامات لمـدة اسـتطالت لأربعـة أشـهر.

(٢٢)

من دارا كتب الزبير رسالة للسلطان حسين، حوت إنذاراً شديد اللهجة، قال له فيها:

(إني سألتكم في بادئ الرأي أن تساعدوني على الرزيقات الذين سعوا في الأرض فساداً، ثم سألتكم مراراً تسليم منزل وعليان اللذين التجآ إليكم فراراً من وجه العدل، فما أجبتم بل أرسلتم الجيوش لمحاربتي، فأوجب الله تعالى علينا محاربتكم حتى تستقيموا أنتم ومن معكم من المفسدين في الأرض، وقد لقينا جيوشكم ونصرنا الله عليهم، ودخلنا مدينة دارا وصار القصد الآن إدخالكم أنتم وبلادكم تحت طاعة الحكومة الخديوية، فيا حضرة الأمير إن كنت تحسب نفسك عبداً لله، وموقناً أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، فبادر واخلع المُلك عن نفسك بالتسليم إلى ولي نعمتنا الخديوي المعظم، حباً في السلام وحجباً لدماء المسلمين، وإذا سلمت فاسلم ونترك لك خزائنك وأموالك وتبقى مكرماً مبجلاً عند الجميع، وإلا فإننا لا بُدَّ أن ننال ما نروم بالرغم عنك، وأنت المسؤول بين يدي الله عن دماء المسلمين والسلام).

كان الزبير يتعامل بنبلٍ مع المهزومين من أعدائه، بل كان يشهد لهم بما فيهم من صفات ولا ينحو للتشفي والانتقام ولا للتعذيب والعقاب، وكان هذا واضحاً في كثير من رسائله التي كان يرسلها، ومن ذلك قوله للسلطان حسين:

(وتقدم وزيركم أحمد شطة ومقدومكم سعد النور بمن

معهـما مـن الملـوك والـشراتي والجيـوش الكثـيرة المجنـدة، فهاجمانـا دفعتـين، ففـي الدفعـة الأولى هاجمـا قسـماً مـن عسـاكرنا الذيـن انفـردوا منـا لغـزوة عـلى بعـض العربـان العصـاة، ثـم هاجمانـا في مراكزنـا، فلـم تمـضِ سـاعة واحـدة حتـى انهزمـا أمامنـا شر انهـزام، أمـا المقـدوم سـعد النـور جـزاه الله كل خـير، فإنـه قاتـل قتـال الأبطـال ومـات بـين كـرات المدافـع، والفضـل مـا شـهدت بـه الأعـداء. وأمـا وزيركـم أحمـد شـطة أمـير الجيـش، فقـد فـرَّ عـلى قدميـه حافيـاً يطلـب النجـاة حتـى قُتـل مطـروداً بمـن معـه مـن أخـلاط النـاس، بعيـداً مـن محـل الواقعـة، ولا بُـدَّ أن الخـوذة التـي كان يلبسـها عـلى رأسـه وصلتكـم، فأكـدت لكـم خـبر موتـه، وبعـد الواقعـة أمرنـا بجمـع جثـث الوزيـر والمقـدوم ومـن قُتـل معهـما مـن أولاد السـلاطين والملـوك والـشراتي، فكفناهـم بأفخـر الأنسـجة وصلينـا عليهـم ودفناهـم بتـمام الإكـرام).

هكـذا كانـت أخـلاق الزبـير، وكان هـذا هـو النبـل الـذي يتسربـل بـه ولا يخلعـه.

(٢٣)

عندما وصلت رسالة الزبير إلى السلطان إبراهيم وهي تحوي ذلك الإنذار الشديد اللهجة، طار صوابه وأعد جيشاً عرمرماً بلغ عدد مقاتليه مئة ألف مقاتل، بينهم عدد كبير من الفرسان المدرعين والمشاة المسلحين بالبنادق، وعقد لواءه لعمه الأمير حسب الله، فتوجهوا إلى مدينة دارا حيث كان يقيم الزبير، وعندما وصلوها حاصروها من استحكاماتها الموجودة في الجهات الأربع وكتبوا للزبير قائلين:

(لقد دخلت بلادنا وقتلت وزيرنا أحمد شطة، ثم الشرتاي أحمد نمر، فاخرج الآن من بلادنا لنشيعك بالسلامة والأمان).

نظر الزبير إلى كتابهم ورد عليهم قائلاً:

(إني دخلتُ بلادكم عنوةً، ولستُ أنوي الخروج منها إلا بقدر من الله، فإن كنتم قد جئتم لحرب فتقدموا لها وإلا فعودوا).

حمل الرسل رد الزبير ولكنهم قبل ذلك رأوا عساكر (النيام نيام)، الذين كانوا بجيش الزبير (البازنقر)، قد اجتمعوا على جثة آدمي يقتسمونها فيما بينهم، فأخذ بعضهم الرأس والرجل، وبعضهم الفخذين، وبعضهم الصدر، وشرعوا يشوونها على النار ويأكلونها بأسنانهم الحادة، فاقشعرت أبدانهم من هذا المشهد، فعادوا وأخبروا بما كان من هذا الأمر، وأمر رد الزبير على رسالتهم، ورغم ذلك قرروا الدخول في الحرب وصاروا يناوشون جنود الزبير في كل يوم من قبل طلوع الشمس إلى

ما بعد منتصف الليل، وكان جنود الزبير يردون عليهم بنيران كثيفة وصلتهم، غير أنهم صبروا عليها لسبعة أيام كاملة رغم سقوط أعداد كبيرة منهم قتلى، وفي اليوم الثامن نفضوا خيامهم ونزلوا بعيداً عن مرمى رصاص جنود الزبير.

لم تكن هي نهاية المعركة، بل بقي الزبير محاصراً في دارا حتى كاد يفرغ الزاد منها، وفي ليلة من الليالي كان الفور قد شربوا الخمر وشبعوا بلحم الضأن والإبل وناموا نوم الراحة، فانتهز الزبير هذه الفرصة الثمينة وخرج إليهم بثمانية آلاف رجل في جُنح الليل، وعندما اقتربوا منهم أطلقوا عليهم الرصاص كالمطر الوابل، فقاموا مذعورين إلى سلاحهم وصوبوا على جيش الزبير نيرانهم، ودارت رحى حرب ضروس كانت نهايتها هزيمة جيش الأمير حسب الله، الذي ولى الأدبار منهزماً، تاركين خلفهم قتلاهم وغنائم من دروع وخيم ومدافع وشيء كثير من الأسلحة والذخائر الحربية، وزادٍ كفّى جيش الزبير لأربعة أشهر، غير أن الأمير حسب الله جمع شتات جيشه وهاجم الزبير وحصونه من فوق الأسوار، ليستمر القتال بينهما لأربع ساعاتٍ متوالية، وعندما استشعر الأمير حسب الله كثرة القتلى في جيشه أحسَّ بالهزيمة النكراء وانسحب، وقبل أن يعود الزبير لداخل المدينة انطلقت أهازيج النصر وملأت السماء إضاءات الألعاب النارية، غير أن أحد الفرحين بهذا النصر أراد أن يعانق الزبير، وعندما طار إليه بالعناق لاحظ أن الزبير لم يجاوبه ولم ترتفع يده إلى عنقه، فأحسَّ بالأسى، ولكن الزبير عندما أحسَّ بأسى معانقه قال له:

– انظر إلى يدي.

عندهـا أدرك المُعانـق أن يـد الزبـير مصابـة بطلـق نـاري، وأنهـا تنـزف دمـاً مـن جـرح بليغ. وهكـذا كان الزبـير يقـود قواتـه في سـاحات الوغـى مقاتـلاً لا يستسـلم ولا يلـين.

لم تمنـع تلـك الطلقـة الطائشـة الزبـير مـن قيـادة جيشـه في سـاحة المعركـة، بـل لم يأبـه لهـا وواصـل قتالـه لأعدائـه، فهـو يعلـم أن انـزواء القائـد هـو بدايـة الهزيمـة، وهـو رجـل لا يحب الهزائـم، وقـد خـاض في حياتـه مئـة وعشريـن معركـة انتـصر فيهـا عـدا ثـلاث معـارك، ومـا قـاده لتلـك الانتصـارات كان مـن أهـم أسـبابها أنـه يـوفي صفـة القائـد كل معانيهـا واسـتحقاقاتها، فقـد أدرك الزبـير منـذ وقـت مبكـر أن قـدره يسـوقه نحـو القيـادة العسـكرية، وقـد كان مسـتعداً لهـذا القـدر ومتمسـكاً في الوقـت ذاتـه بصفتـه كتاجـر، لـذا عندمـا أراد أن يحمـي تجارتـه أنشـأ لهـا حرسـاً قويـاً تحقيقـاً لهـذا الهـدف، فالتاجـر في تلـك المجاهـل يكـون عُرضـة لمخاطـر جمـة، أدناهـا السـلب ونهايتهـا القتـل، غـير أن تدافـع الأحـداث وتطورهـا وتناميهـا جعـل مـن ذلـك الحـرس نـواةً لجيـش صنـع بـه الزبـير كثـيراً مـن الأمجـاد، فعندمـا وطِئَـت قدمـاه بـلاد (النيـام نيـام) في بحـر الغـزال، كان يـرى أن أصحـاب الجنايـات كاللصـوص والزُّنـاة يعرضـون للبيـع في الأسـواق، حيـث يتـم ذبحهـم بواسـطة المشـترين وتبـاع لحومهـم، وكانـت حاجـة الزبـير تتزايـد لجمـع المزيـد مـن الرجـال حولـه، لـذا بـدأ يفتـدي أولئـك الذيـن يسـاقون للأسـواق مـن الذبـح، فينقذهـم مـن المصـير الرهيـب الـذي كان ينتظرهـم ثـم يؤهلهـم تربويـاً وعسـكرياً بالإسـلام والتدريـب، فأخلصـوا إليـه وأحبـوه.

(٢٤)

هكـذا بـدأ الزبـير يبنـي لنفسـه جيشـاً عظيـماً سـاعده في ذلـك تلـك المعاملـة الحسـنة التـي كان يُعامـل بهـا أفـراده وجنـوده وحراسـه، التـي أغـرت الكثيريـن سـواء مـن طبقـة الرقيـق أو غيرهـم، وأنبـاء هـذا الرجـل تـضرب أسـماعهم، أن يُقبلـوا نحـوه يطلبـون الأمـان في رحابـه، فقـد ذاع في الأنحـاء رفقـه وحسـن معاملتـه، وكان هـذا كافيـاً للانضـمام تحـت لوائـه، غـير أن كل هـذا لم يكـن ملبيـاً لطموحـات رجـل كالزبـير، صاحـب فكـر وقيـادة، مـا أَهَّلـه لأن يكـوِّن جيشـاً وفقـاً للأسـس الحديثـة، وبـات صاحـب فضـل في تدريـب وتأهيـل أعـداد كبـيرة أضحـت تجيـد اسـتخدام السـلاح النـاري الـذي كان حكـراً عـلى الجيـش التركـي، وقـد نظـر الزبـير إلى أنظمـة الجيـش المـصري وأسـقطها عـلى جيشـه، مسـتفيداً مـن خـبرة قائديـه رابـح فضـل الله والنـور عنقـرة اللذيـن كانـت لهـما خـبرة سـابقة في جيـش الخديـوي إسـماعيل، لـذا وصـل بجيشـه إلى مرحلـة متقدمـة مـن التنظيـم، خاصـة أنـه قـد بـذل الكثـير مـن المجهـودات لتقويـة جيشـه بالمزيـد مـن العنـاصر المدربـة، ولتحقيـق هـذا الهـدف كان يرسـل بعـض قادتـه سراً إلى الخرطـوم لتجنيـد مـن تركـوا الخدمـة في جيـش الخديـوي، أو فُصلـوا منـه، وقـد نجـح رابـح في تجنيـد جماعـة مـن الهجانـة المسرحـين مـن الجيـش المـصري، كـما نجـح النـور عنقـرة في تجميـع فلـول وحدتـه السـابقة، كـما أرسـل الزبـير مسـتجدين مـن جيشـه إلى مـصر للتدريـب العسـكري وأعادهـم مـن جديـد.

في مهمـة عسـكرية أوفـد الزبـير بعض قـواده سراً إلى مصر لاسـتجلاب ترسـانة للأسـلحة، ومصنعـاً لصناعـة الذخـيرة، وكميـات مـن البارود

للمدافع، وذلك عن طريق الشراء، ونجحت هذه المهمة عن طريق بعض التجار الأجانب العاملين في تجارة السلاح والذخيرة، وبحسه العسكري والقيادي حرص الزبير على أن تكون مخازن ذخيرته وأسلحته تحت سطح الأرض، تأميناً لها، وقد أثبت هذا الأسلوب جدواه حينما عمد محمد البلالي عميل حكومة الخرطوم الأجنبية للهجوم على معسكر الزبير، وأشعل النيران في مخازن المؤن التجارية والإدارية، فأحالها إلى حطام ورماد عدا تلك الأسلحة والذخيرة التي كانت مخزنة تحت سطح الأرض وبعيداً عن العيون. ومن مظاهر تحديث الجيش الزي العسكري وشارات الرتب والأعلام والموسيقى العسكرية والألعاب النارية والألحان العسكرية، أو ما عُرف بالجلالات التي اقتبستها فيما بعد قوات مشاة البحرية الأمريكية (المارنيز) بعد أن استخدمها الزبير حينما شارك في حرب البلقان الأوروبية، كل هذا كان من ابتكار الزبير وقواده وإرثهم العسكري المجيد.

كل ذلك لم يردع السلطان حسين إبراهيم الذي لم يقدر خطورة الزبير، ولم يحترمه كقائد حربي محنك وشجاع.

(٢٥)

ما كان لدى الزبير من استخبارات وإشارات عسكرية، كان كفيلاً بكشف قوة أعدائه وتحركاتهم، وما لم يكن يعلمه السلطان حسين أن الزبير قد عهد بجهازه الاستخباري لطائفة من أهله وذوي عصبته من الجميعاب والجموعية والجعليين، كصديقه وابن عمه محمد عبد القادر، وكان هذا الجهاز الاستخباري يعتمد نظام الإشارات أو الاتصالات عن طريق الوسائل التقليدية، كاستخدام طبل (الرونقا) في توصيل الشفرات العلنية والحمام الزاجل في حمل الرسائل السرية من وإلى الوحدات البعيدة، وهي وسيلة قديمة سبق أن استخدمتها الجيوش العربية والرومانية والفارسية وغيرها، وقد برعوا في اقتناص حمام العدو العابر واعتقال الجواسيس.

كان جيش الزبير مستعداً لجيوش السلطان حسين، وبات مؤهلاً لخوض المعارك والحروب، كالجيوش الأوروبية في ذلك الوقت، واستبانت بوضوح ثمار ما كان يغرسه الزبير في نفوس قادته وأفراد جيوشه، الذين تدافعوا لتحقيق مقاصده والذود عن القيادة مهما عظمت التضحيات، وبُذلت فيها المهج والأرواح، فبعضهم لا ينسى أبداً أن الزبير قد منحهم فرصة ذهبية للحياة، وإلا كانوا غذاءً في بطون البعض، وهيأ لهم فرص العيش الكريم من عملٍ وكسوةٍ وإعاشةٍ، وفوق ذلك كانوا يستشعرون معاملته الحَسنة واهتمامه بصحتهم ورفاهيتهم، فأحبوه وأخلصوا إليه.

بـدأ الزبـير في اسـتغلال مواهبـه في الصيـد ورياضـة الفروسـية لصالـح قـواده وجيشـه، فـكان يخـرج معهـم للصيـد واختبـار مهاراتهـم في الفروسـية والمغامـرة التـي طالمـا عشـقوها، فشـاركهم فيهـا باعتبـاره رفيقهـم، وكـما كان في الصيـد كان معهـم في الغنائـم التـي لم يكـن يسـتأثر بهـا ولا يقتسـمها مـع قادتـه، كـما كانـت تفعـل الجيـوش وقتهـا، إنـما كان يطلـق يدهـم في حصـص مجزيـة كلـما انتـصروا عـلى العـدو، وبذلـك نجـح في خلـق جيـش قوامـه التماسـك النفـسي والوحـدة العميقـة، وكأنـه كتلـة واحـدة، فلـم تنشـأ فيـه حـالات عصيـان أو تمـرد. وكان الزبـير الـذي تجمعـت تحـت يديـه أمـوال طائلـة يتذكـر وهـو يأمـر بصهـر آلاف كثـيرة مـن الريـالات المجيديـة لصالـح مصنـع الذخـيرة الـذي اسـتجلبه ليصنعـوا مـن ذلـك الصهـير رصاصـاً، ذلـك الطلـب الـذي تقـدم بـه إليـه ابـن عمـه محمـد عبـد القـادر عندمـا كانـا في مركـب أبي عمـوري مـن أجـل أن يعطيـه ريـالاً ولم يجـده عنـده، فضحـك لهـذه الذكـرى ونـادى ابـن عمـه محمـد عبـد القـادر ليسـتعيدا تلـك الذكريـات، وعندمـا وصلـه محمـد عبـد القـادر في ثلـة مـن القـادة لم يسـتطع الزبـير أن يسـتعيد ذكرياتـه مـع ابـن عمـه، فقـد قـال لـه قادتـه:

- اسـتجوبنا آخـر الجواسـيس الذيـن قبضنـا عليهـم، فأخبرنـا بـأن السـلطان حسـين قـد تحـرك بنفسـه عـلى رأس جيـش عرمـرم قاصـداً قتالنـا.

أطـرق الزبـير برأسـه نحـو الأرض وأحاسـيس شـتى تنتابـه، وعندمـا رفـع رأسـه كانـت عينـاه مربدتـين وهـو يقـول لقـواده:

- البجيك مشمر بتقابلوا عريان..!

لم يكـن أعـوان الزبـير يُخفـون عنـه شـيئاً، فعندمـا كانـت أصـوات قـوات السـلطان حسـين تجلجـل في الآفـاق وتـزداد وتـيرة الاسـتعدادات في معسـكر الزبـير في دارا، جـاءه خـبر محـزن في إطـار أسـئلته الدائمـة عـن أهـل بيتـه، وكان الزبـير وقتهـا قـد بنـى بأكثـر مـن زوجـة، كان يسـأل عـن زوجتـه زينـب بـت منصـور وأولادهـا، وهـل طـاب لهـا المقـام بالجيـلي بعـد أن عـادت إلى هنـاك بسـبب تلـك الحـروب المتواتـرة التـي فُرضـت عليـه، وعندمـا وصلـت أسـئلته إلى أحـوال زوجتـه رانبـوه وبنتيـه اللائـي تركهـن خلفـه في مندقبـا صَعِـقَ بالنبـأ:

- سيدي الزبير لقد ماتت رانبوه، نسأل الله أن يرحمها.

بعنـفٍ اسـتطاع الزبـير أن يزجـر دموعـاً تريـد أن تتمـرد عـلى مقلتيه حرضتهـا تلـك الذكريـات وتلـك السـنوات التـي قذفـت في روحـه السـعادة ومضـت، فكـم أحـب هـذه الأمـيرة التـي أنقـذت حياتـه ذات يـوم، يـا إلهـي مـا أرقّ تلـك الكلـمات التـي كانـت تخاطبـه بهـا، مـا أعـذب ابتسـامتها التـي كانـت تـشرق مـن بـين ثنايـا أسـنان بيضـاء فتـضيء الوجـه المليـح.

غـادرت الذكريـات وأحاسيسـها بعـد أن تماوجـت في صـدره، وجلسـت فـوق وجهـه مشـاعر أخـرى ثـم سـألهم:

- هل دفنتموها؟

قالوا:

- نعـم سـيدي الزبـير، دفناهـا في مقابـر المسـلمين بعـد أن كفناهـا بأفخـر الثيـاب.

أطرق الزبير إطراقة حزينة وقال:

- عزيزة ماتت رانبوه، الحمد لله الذي أماتها على دين الإسلام، اللهم اغفر لها وارحمها واجعل قبرها روضةً من رياض الجنة.

صمت الزبير صمتاً جعل الدموع تذرف من أعين رجاله، فنظر إليهم وقال لهم بحزم:

- لا وقت للدموع، فالأعداء على الأبواب.

(٢٦)

مـن مجلسـه السـلطاني وقـصره المنيـف، كان السـلطان حسـين قـد أصـدر أوامـره لجيشـه بالتحـرك نحـو مدينـة دارا، التـي احتلهـا الزبـير بعـد أن بلغـه انكسـار عمـه الأمـير حسـب الله وانهزامـه أمـام الزبـير، صـاح السـلطان وقـال:

- أُريـد مئـة وخمسـين ألفـاً مـن الرجـال، فيهـم الفـوارس والمسـلحون بالبنـادق، أُريـد المدافـع التـي تجرهـا الخيـول وتهتـز لهـا الأرض، سـأقودكم بنفسـي نحـو الزبـير لنأخـذ منـه حقنا السـليب، لـن يفلـت منـي، لأني سـأقود الجيـش بنفسـي، وكل رجـال دولتـي سـيقودون فيالـق الجيـش المختلفـة، وسـيحكم سـلطنتي مـن هنـا مـن مدينـة الفـاشر في غيـابي ابنـي الأكـبر محمـد الفضـل، وكل قائـد منكـم عليـه أن يخلـف ابنـه الأكـبر، هيـا بنـا اسـتعدوا للتحـرك.

تحـرك السـلطان حسـين بعـزم عـلى رأس جيشـه حتـى وصـل بـه إلى مدينـة دارا، التـي حصنهـا الزبـير باسـتحكامات منيعـة، خنـادق وأسـوار عليهـا رجـال أشـداء، كأنـما قلوبهـم قـد قُـدت مـن الصخـر، لا يخافـون ولا يرتعبـون.

أحـاط السـلطان حسـين المدينـة المحصنـة مـن جهاتهـا الأربـع، ثـم بـدأ هجومـه الـذي أراده أن يكـون كاسـحاً وحاسـماً، غـير أن الزبير وجيشـه أمطروهـم بوابـل مـن الرصـاص كالمطـر، واسـتمرت الحـرب سـجالاً بـين الطرفـين، وبعـد سـاعةٍ مـن مغيـب الشـمس صمتـت المدافـع وسـكت الرصـاص.

لم يهدأ الزبير في تلك الليلة، فبدا طائفاً على وحداته العسكرية داخل مدينته المحصنة، يرفدهم بالنصائح والتوجيهات والأوامر، ويعلي من هممهم، وكذلك كان السلطان حسين وهو خارج أسوار الزبير المنيعة، وقبل طلوع الشمس عاود السلطان حسين هجماته على دارا وحصونها، ورجال الزبير الذين لم يغمض لهم جفن ردوا عليه بعنفٍ فارتدوا على أعقابهم، وبعد قسطٍ من الراحة امتدت إلى ما بعد الظهر، عاود السلطان حسين هجومه بكرة أخرى بعزمٍ صادقٍ وشجاعةٍ فائقةٍ، ورصاص رجال الزبير يحصدهم حصد الزرع، واستمر القتال حتى ناء الليل بكلكله، فعاد من بقي حياً من الطرفين إلى معسكره، وكان السلطان قد فقد في ذلك اليوم عدداً كبيراً من رجاله وآله، من أبناءٍ وإخوة وأعمام، ما دعاه لكتابة رسالة للزبير في تلك الليلة، وبعد أن ملأها شتماً وسُباباً، أقسم أنه سيعاود الكرة في الصباح ويطيح باستحكامات المدينة ويدخلها منتصراً ويصلي الجمعة في مسجد دارا. مع تباشير الفجر أطلق السلطان حسين على أسوار المدينة خمسة وأربعين مدفعاً، فلم يرد عليه الزبير الذي كان يشرع في الاستعداد لمعركة الصباح.

(٢٧)

أنـارت الشـمس الدنيـا لا يحجبهـا شيء سـوى اليسـير مـن الدخـان المتصاعـد في وهـن، والصقـور الجائعـة المتحفـزة، وهبـت نسـائم الصبـاح وهـي تحمـل روائـح الجثـث المتعفنـة، والـكل يتحسـس سـلاحه، ووجـوه رجـال الزبـير صلـدة وقلوبهـم تقـذف الـدم لأجسـادهم القويـة وصدورهـم الفتيـة. الديـك لم يـؤذن في ذلـك الفجـر والأبخـرة المتصاعـدة توقـف تصاعدهـا، والعقبـان شـبعت وطـارت واختفـت، واسـتعدادات الزبـير بلغـت قمتهـا، ولكـن راعـه هـذا الهـدوء ومعسـكر الأعـداء يبـدو خاليـاً حينـما حـط نـور الشـمس عـلى أجزائـه الكثـيرة في ذلـك الامتـداد العريـض، فـأراد رجـال الزبـير أن يتجهـوا نحـو المعسـكر الخـالي فرحـين، فمنعهـم الزبـير بعـد أن طافـت بذهنـه ذكـرى بعيـدة:

- صـبراً يـا رجـال، لعـل في الأمـر خدعـة، وليـأتِ معـي نفـر قليـل لنسـتطلع الأمـر.

عندمـا وصلـت فرقـة الاسـتطلاع بحـذر شـديد لمعسـكر قـوات جيـش السـلطان حسـين، تأكـد للزبـير أن ليـس في الأمـر خدعـة، فقـد وجـد أحـد الجرحـى مخلفـاً في المعسـكر، فقـال لـه الزبـير بعـد أن أمـر بتضميـد جراحـه:

- أنـت آمـن، فأنـا لا أقتـل الأسرى، وآمـر بتطبيـب الجرحـى ولـو كانـوا أعدائـي.

رأى الزبير دمعةً فوق وجه الجريح فقال له:

- لا تبكِ يا رجل، فقد قلت لك إنك آمن.

- لا أبكي خوفاً ولا وجلاً، ولكني أبكي عندما فهمت كم أنت حليم، وبكيت لأننا نقاتل رجلاً مثلك.
- إذاً أخبرني أين السلطان وأين رجاله، هل ذهبوا ليدبروا لنا خدعة؟

ابتسم الجريح بوجهه الذي امتلأ ألماً:

- لا يا جلالة الزبير، فقد سئم كثير من الرجال مهاجمة أسوارك المنيعة فهجروا السلطان.

- وأين السلطان ومن بقي معه؟

- تبع السلطان رجاله الذين هجروه وهربوا ليجمع شتاتهم، ناوياً السير بهم نحو جبل مرة.

التفت الزبير إلى من معه وقال لهم:

- احملوا هذا الجريح وأكملوا علاجه داخل المدينة، وليأتِ لي بعض الرجال ليجمعوا ما خلفه السلطان ورجاله من غنائم.

عندما عاد الجميع بالغنائم إلى داخل المدينة وبأخبار فرار جيش السلطان حسين، شرع رجال الزبير وجنوده في إقامة احتفال النصر، إلا أن الزبير منعهم وقال لهم:

- عليكم أن تدركوا أن السلطان حسين رجل قوي وشجاع، وأبي النفس، ولن يقبل الهزيمة أبداً، ولا بُدَّ أنه قد أدرك أنه خسر معركة

ولم يخسر الحـرب، ولكـن إن أردتـم أن تحتفلـوا احتفـالاً حقيقيـاً بالنـصر، دعونـا نلحـق بالسـلطان حسـين ورجالـه أينـما حـلَّ.

ردّ رجال الزبير عليه قائلين:

- فقط آمرنا وستجدنا طوع بنانك.

بـدأ الزبـير يـشرع في الاسـتعداد للحـاق بالسـلطان حسـين وجيشـه، وعندما اكتملـت اسـتعداداته خـرج بجيوشـه متقفيـاً أثـره حتـى أدركـه في بلـدة يقال لهـا منـواشي، وهـي تقـع عـلى بُعـد يومـين إلى الجنـوب الشرقـي مـن الفـاشر حـاضرة دارفـور، وبسرعـة عـاد جهـاز الزبـير الاسـتخباراتي للعمـل، وبـدأت العيـون تخـبر بـأن السـلطان حسـين اسـتطاع أن يجمـع حولـه ثلاثـين ألـف مقاتـل، ويمتلـك ثمانيـة مدافـع مدمـرة، وإزاء هـذه القـوة كان الزبـير القائـد يفكـر بالخطـة المناسـبة لهزيمـة السـلطان بمنـواشي، ولكـن السـلطان حسـين الـذي رتـب عسـاكره باغتـه بجيشـه ميمنـةً وميسـرةً، وكان هـو في مـكان القلـب في جيشـه.

(٢٨)

كانت مناوشي أرضَ حربٍ جديدة تختلف تضاريسها وطبيعتها عن تلك الغابات والمستنقعات الآسنة، التي كانت سُوحاً لمعارك الزبير السابقة، فهي منطقة تتسم بالتباين في ظواهرها الطبيعية من أرض صحراوية إلى شبه صحراوية، تتخللها تلال منخفضة، وكثبان تعرف باسم القيزان، وتلال ذات صخور رملية وأودية وخيران تمتلئ بمياه الأمطار خلال الموسم المطير، ورغم ذلك كانت هناك أشجار متفرقة تبعث عميقاً بجذورها اللاهثة في باطن الأرض، من أجل قطرات من الماء حتى لا تتجرع قطرات الألم وتموت واقفة.

كانت هي الأرض التي يجيد فوقها أبناء السلطنة الدارفورية العريقة وفوارسها الأشاوس القتال وفنونه، وهي أرض غريبة على جيش الزبير، ولكن البازنقر والبحارة لا يعرفون المستحيل ولا يستكينون أبداً، فعندما هجم عليهم جيش السلطان إبراهيم حسين قرض، يميناً ويساراً، وبدأوا يسمعون زخات الرصاص وحمحمة الخيول ورغاء الإبل ودوي المدافع، كانت الدماء قد تناثرت فتحاملوا وبدأوا في حصد أعدائهم وقائدهم الزبير يصرخ: لا تضيعوا رصاصكم هباءً تخيَّروا الرؤوس والصدور، صوبوا بنادقكم بدقةٍ نحو قوادهم وأمرائهم. نفذ جنود الزبير تعليماته فسقط من جيش السلطان الكثيرون رغم بسالتهم في القتال، الذي لم يلبث أن استحال إلى تلاحم، فخرجت السيوف من أغمادها واستطالت الحراب وطارت إلى الصدور والظهور.

ارتفعت هامة السلطان إبراهيم وأخذ يحدق في الشمس التي توسطت كبد السماء وهي تضيء تلك السيوف والحراب والنقع الكثيف فوق الرؤوس يكاد يحيل المكان ظلاماً، ودماء جنوده وأمرائه وأبنائه المتناثرة تثيره، فاندفع من قلب جيشه يتبعه فيلق متجاوزاً المدافع مُخترِقاً مقدمة جيش أعدائه، واستل سيفه وأخذ يصول ويجول في أرض المعركة ببسالة وشجاعة كالأسد الهصور، فانهزمت مقدمة جيش الزبير، فجال حلم عزيز برأسه تراءى له كأمنيةٍ لن تخيب: (سيعود للفاشر وعند أبوابها سيستقبله ابنه الأمير محمد الفضل وأبناء الأمراء ورجال قصره بأهازيج النصر التي تنغمها أصداء أصوات النحاس، وحينها سترتفع عقيرة الحكامات بأنغام المدح والحماسة، نساء السلطنة سيخرجن لاستقباله وهن يعتلين صهوات خيول مزينة بالحرير، وسيدخل قصر السلطنة هناك ومشاعر القائد المنتصر تأخذ بتلابيبه، ويستمتع بألوان حوائط القصر الحمراء، وأروقته المقنطرة، وسقوفه المزدانة بالمفارش الأنيقة والخيزران الجميل، وتعريشات الأبنوس، سيدخل إلى جناح حريمه المفروش بالرمل الفضي المنقوع بالعطور). كان حلماً رائعاً ولكنه كان ضائعاً عصياً على أرض الواقع، كان ضغثاً وهباءً منثوراً قصفت به قوات الزبير وكبلته عزيمتهم التي تماسكت وخرجت من أجوافهم تعشو للنصر الذي لا يعرفون سواه.

بدأت قوات السلطان تتقهقر والسلطان ثابت فوق صهوة جواده الأشقر الخنذيذ، وعندما فارق الجواد صاحبه حمحم حمحمة حزينة، ودم السلطان يسيل فوق السرج ويتناثر على اللجام ويتقاطر فوق أرض المعركة. سقوط السلطان إبراهيم لم تتبعه أنةُ ألم واحدة، ولم يصاحبه جزع، فمات دون حشرجة كما يموت البواسل، راوياً الأرض بالدم، موقِّعاً هزيمة جيشه الذي

تفرقت إبله وخيوله وهي تحمل الفارين إلى أنحاء متفرقة، وحطت المعركة أوزارها، وبدأ الزبير يتفقد الأسرى والجرحى وجثث القتلى من الطرفين، فرأى بين قتلى جيش السلطان الكثير من الأمراء وأكابر دولة الفور، وعندما وقف أمام جثة السلطان إبراهيم قرض، ترحَّم عليه وقال: (لم يبقَ الآن شيء يا جلالة السلطان، لقد محا الموت كل ما بيننا من عِداء). ثم التفت إلى أعوانه وأمرهم قائلاً: (خذوا جثة السلطان وجثث أشراف قومه وأكابرهم وأمرائهم، وصلوا عليهم صلاة الجنازة بعد أن تكفنوهم بالأنسجة الفاخرة وادفنوهم، فإن إكرام الميت دفنه، فقد كانوا بواسل وفوارس وشجعان. أما السلطان فيدفن في جامع منواشي دفناً يليق به، ويجب أن يكون ذلك باحتفال عظيم إجلالاً لمقامه وإقراراً ببسالته).

(٢٩)

قال الزبير كل ذلك على مسمع من قواده ورجاله وأسرى المعركة من جيش السلطان القتيل، فتعجبوا لهذا الأمر الذي كشف لهم بجلاء عن معدن الزبير ونبله، وحفظه لحرمات الموتى، وأنه لم يكن عدوانياً ولا وحشياً يسعى للانتقام والتشفي، وتكرست هذه المعاني أكثر في نفوس أولئك الأسرى، عندما خاطبهم الزبير قائلاً: (أما أنتم، فقد عفوت عنكم، فاذهبوا إلى حيث تشاؤون).

بعد التشييع المهيب للسلطان إبراهيم حسين قرض وأكابر قومه من القتلى، بدأت عملية جمع الغنائم التي انشغل بها رجال الزبير وقواده. كانوا يقولون له:

- سيدي الزبير بيك حاكم شكا وبحر الغزال، لقد غنمنا مدافع وجمالاً محملة بالذخيرة والعتاد، ووقعت في أيدينا مؤن وغذاءات، فآمرنا ماذا نفعل وكيف نقسم الغنائم، وماذا تريد أن يكون لك من هذه الغنائم؟

صمت الزبير صمتاً لا يستطيع أحد أن يقطعه، وهو يصحب صمته مع نظراته إلى الأفق البعيد على مد البصر، فيرى الطريق إلى الفاشر مفتوحاً وممهداً، فقطع صمته وقال لمن معه:

- لا أريد شيئاً من هذه الغنائم، إنها لكم وللجيش، أما أنا فقد غنمت سلطنة دارفور بأسرها.

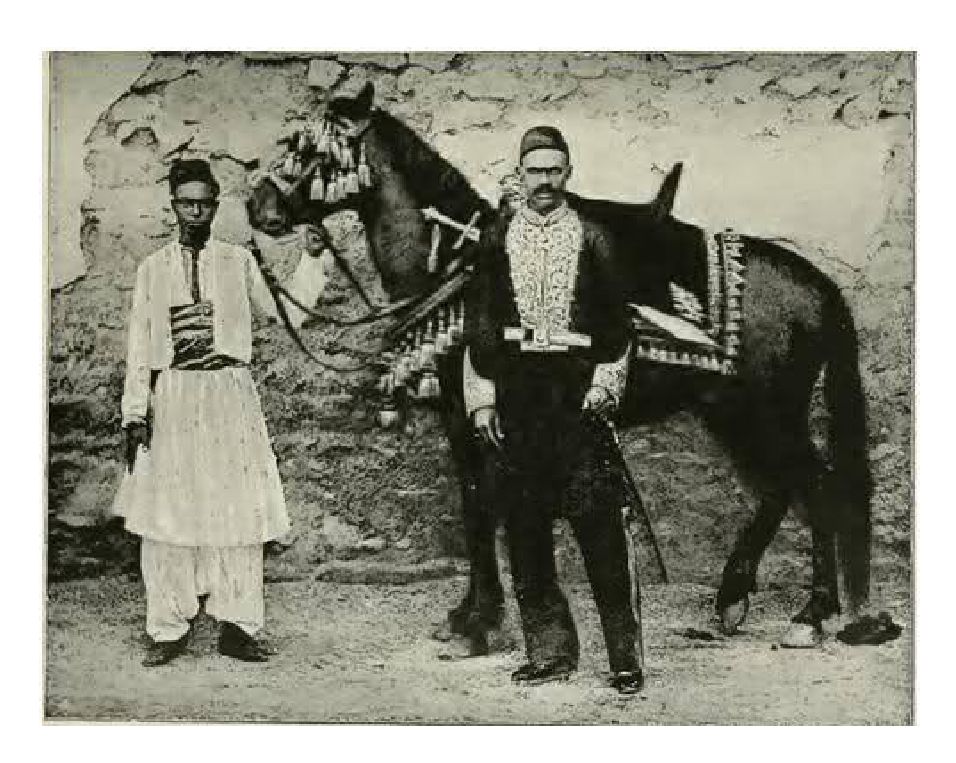
(٣٠)

دارفـور التـي كانـت تقـع في عـين عاصفـة الزبـير، كانـت عصيـة عـلى احتـلال الحكـم العثـماني الـذي كان يديـن لـه الزبـير بالـولاء، باعتبـاره الخلافـة الإسـلامية، وهـي التـي ألبسـته ثـوب الشرعيـة فأنعمـت عليـه بلقـب بيـك وعينتـه حاكـماً عـلى شـكا وبحـر الغـزال، ورأت أن تدعـم الزبـير في أهدافـه لفتـح الطـرق الآمنـة وحمايـة التجـار وقوافلهـم التجاريـة، وعندمـا اشـتعلت الرغبـة في فتـح دارفـور بعثـت بإسـماعيل باشـا أيـوب عـلى رأس جيـش ليهاجـم دارفـور مـن جهـة الـشرق، وكان الزبـير وقتهـا يعـاني مـن الهجـمات عليـه وهـو في مدينـة دارا، تلـك الهجـمات التـي كان يقودهـا الأمـير حسـب الله عـم السـلطان إبراهيـم وغـيره مـن قـواد السـلطان، في الوقـت الـذي كان فيـه إسـماعيل باشـا أيـوب يبطـئ في سـيره وكأنـه يتعمـد عـدم دعـم الزبـير.

لم يتبـين للزبـير أي أسـباب تجعـل إسـماعيل باشـا المكلـف بمهاجمـة دارفـور مـن جهـة الـشرق، أن يبطـئ في تنفيـذ هـذا التكليـف أو في مـده بالدعـم الـلازم للتمكـن مـن صـد أعدائـه الذيـن تكاثـروا عليـه، وكأنـه كان يتجنـب القتـال، وعندمـا وصـل إسـماعيل باشـا لموضـع يُقـال لـه (فوجـة)، كتـب للزبـير الـذي كان موجـوداً آنـذاك داخـل تحصيناتـه بمدينـة دارا قائـلاً لـه: (أنـا في طريقـي إليـك بالنجـدات، فتشـدد وقـاوم حتـى أصـل إليـك). رد الزبـير عليـه برسـالة قـال لـه فيهـا: (لمـاذا هـذا الإبطـاء، عليـك أن تجـدّ في مسـيرك وتـسرع حتـى لا تصـل بعـد فـوات الأوان، فالعـدو يحـدق بي بجيـوش لا حـصر لهـا).

وضح للزبير أن احتلاله لمدينة دارا لم يعجب إسماعيل باشا، وذلك من خلال رسالة أحزنت الزبير، قال له فيها إسماعيل باشا أيوب من مقره في فوجة: (إنني لم آمرك بالتقدم إلى دارا، ولم يكن هذا من بين ما كلفتك به حكومة الخديوي، فإن استطعت أن ترفع الحصار وتنجو بجيشك إلى هنا فافعل، وإلا فدبر أمرك بما تراه صواباً..!).

لم يعد الزبير بحاجة بعد ذلك لإسماعيل باشا وما معه من قوة، كان لا يزال يثق في جيشه وقواده، فتمكن من دحر أعدائه وهزيمتهم على أسوار دارا ولاحقهم إلى منواشي، وشرع في دخول الفاشر، وعندما دخلها دون مساعدة من أحد دانت له مملكة الفور برمتها، وطار الخبر إلى فوجة فأصاب إسماعيل باشا أيوب بما أصابه من مشاعر الغيرة والحنق.



الفصل الخامس
الفتح العظيم والاستدراج المقيت وحرب البلقان

(١)

هل نحتفل يا حدباي؟
هكـذا سـأل حامـد ود مزمـل الجميعـابي الضـوابي ابـن عمـه الزبـير في مجلس عقـده توطئـة لدخـول مدينـة الفـاشر حـاضرة الفور.

السـؤال دفـع ببعـض الشـجن لنفـس الزبـير، فهـو يحـب هـذا اللقـب (حدبـاي) ومـن يناديـه بـه هـم خاصتـه وأبنـاء عمومتـه وقبيلتـه، الذيـن لم يتأخـروا في مسـاندته أمثـال حامـد ويعقـوب ود النصيـح وحسـن ود ضقيـل ود الحبيـب أبـو ضفـيرة ورضـوان العبـادي ومحمـد عبـد القـادر وأبوبكـر منصـور وحمـاد الدكيـم، وغيرهـم من الذيـن اتخذهـم قـواداً للبحـارة وأوكل إليهـم جهـازه الاسـتخباراتي والإشراف عـلى أعمالـه التجاريـة والإداريـة، فلـم يخذلـوه أبـداً، ولم ينفضـوا مـن حولـه بتاتـاً، كانـوا فـوارسَ أشـداءً، وأبطـالاً أقويـاء، ومقاتلـين أشـاوسَ، فوضعـوا في قلبـه مـودةً وحبـاً.. كان يذكرهـم دائـماً ويحـزن عـلى الذيـن استشـهدوا في حروباتـه مدافعـين عـن الرايـة والعقيـدة، كانـت ذكرياتـه تقـوده لسـنوات ماضيـة إلى ملاعـب الصبا وخـلاوي الـدرس بالنيـل الأبيـض، حيـث التقـى هنـاك بأتـراب دفعهـم حبهـم إليـه عندمـا شـق المجاهيـل وسـعى نحـو المجـد، فوضعـوا معـه لبناتـه، ثـم ضربتـه الأشـجان وهـو يسـتعيد أوجـه الشـهداء وابتسـاماتهم وضحكاتهـم وكلماتهـم، ولكنـه لم يسـمح لدموعـه أن تـزور خديـه، وأخـذ يـرد عـلى قائـده البـارز الصنديـد حامـد ود مزمـل قائـلاً لـه:

- لا لا يـا ود مزمـل أخـوي، مـا في وكـت للاحتفـالات، أنـا نـاوي أدخـل الفـاشر ومـا بنتظـر إسـماعيل باشـا، كان انتظرناهـو انتظارنـا بطـول، خلونـا نمـشي وكلمـوا رابـح وسـليمان ورفاقهـما أنحنـا خـلاس زاحفـين.

(٢)

كان الزبير يتوقع مقاومة شرسة من فلول السلطان إبراهيم وقواته الموجودة بالفاشر وهو يهم بدخولها دخول الفاتحين، غير أن الأمر لم يكن كما توقع الزبير، فقد غادرت عائلة السلطان إبراهيم مدينة الفاشر التي أخلاها أيضاً ما بقي من قادة وجنود السلطان وأهله وعمه الأمير حسب الله، الذي ولوه سلطاناً على غرب دارفور، فنظم ما استطاع من القوات واستعصم بجبل مرة، ليبقى في مدينة الفاشر التجار وبعض العلماء ومن رضي بالبقاء من المدنيين.

كان الزبير القائد المنتصر رحيماً بالجميع عندما أمنهم على حياتهم وأموالهم، وأكرم معاملتهم، وبسط بينهم العدل والسلام، فعاد الخائفون وآب الهاربون يحملهم الليل والنهار، أتوا من فجاجهم العميقة ملتمسين العدل من رجل عادل، طامعين في الإكرام من رجل كريم مقدمين له الطاعة والامتثال، لتكتمل في غضون أيام قليلة عودة جميع الأهالي من أعاجم وعربان وحضر وبادية. وطار خبر الفتح إلى المتباطئ إسماعيل باشا أيوب، فانتابته مشاعر من فاته المجد، إذ لا بُدَّ أن يكون له في المجد نصيبٌ، وكيف وهو لم يسعَ إليه ولم يكن يهمه إن مات الزبير أو بقي على قيد الحياة، ولكنه الآن يفتح دارفور منفرداً بيده لا بيد عمرو.

(٣)

كان الزبير يدرك وفق عقيدته أن فتوحاته ما هي إلا خدمة للإسلام، ورغم أنه عُيِّن حاكماً على بلاد شكا وبحر الغزال، وأُنعم عليه بلقب بيك، إلا أن دواخله لم تكن طامعة في مُلكٍ أو سلطانٍ، إنما الملك والسلطة أتيا إليه يجرجران أذيالهما، أتيا إلى رجل خُلق ليحكم.

تحرك إسماعيل باشا أيوب متخلياً عن بطئه، مدفوعاً بمشاعر متباينة نحو الفاشر عاصمة السلطنة، التي احتلها الزبير، السلطنة التي لم يرق لها غزل الدولة العثمانية، ولم تستجب له، ولكنها خضعت للزبير قائد البازنقر والبحارة، فوصلها وهو لا يدري كيف سيستقبله الزبير، هل سيعاقبه على تماطله، أم أنه سيذعن لأمر الأستانة بإسناد إدارة دارفور له، وهو لا يدري أن الزبير لم يكن خائناً للعهد أو مخالفاً لتعليمات الدولة الإسلامية، وعندما وصل إسماعيل باشا أيوب بجيشه إلى الفاشر المشرعة الأبواب، وهي في أحضان الزبير، حدث ما لم يكن يتوقعه، فقد استقبله الزبير مكرماً لقياه وأطلق في السماء مئة قذيفة مدفع ترحيباً به، فأخرج له غير ما كان يبطنه قائلاً:

- مبروك الانتصار يا زبير بيك.

قالها وهو يخفي تحسراً على النصر الذي فاته، متميزاً بالغيظ كاتمه، حانقاً في غير إعلان، مدخراً حنقه لمناسبة أخرى غير هذه، التي كان الأبطال يحتفلون فيها بانتصارهم الكبير وباستقبالهم للباشا إسماعيل أيوب، وفي نهاية الاحتفال قال له

الزبـير:

- الآن قـد نجحـت في ضـم دارفـور إلى المملكـة الإسـلامية، وأنـك أنـت المكلـف بحكمهـا لا أنـا، أنـت الآن حكمـدار دارفـور يـا باشـا.

هكـذا سـلم الزبـير بيـك رحمـة الجميعـابي سـلطان بـلاد شـكا وبحـر الغـزال حكـم دارفـور لإسـماعيل باشـا أيـوب، بعـد أن وضـع حـداً لمغامـرات الأعـراب والفـور، وحقـق حلـماً عزيـزاً للدولـة الإسـلامية العثمانيـة التـي زادت رقعتهـا بهـذا الفعـل مسـاحةً تضاهـي مسـاحة دولـة فرنسـا، فكـم هـي هديـة كبـيرة وعظيمـة.

(٤)

كان علـى الزبـير أن يعـود إلى مدينـة دارا، ولكـن ليـس قبـل أن يُخضـع ذلـك الأمـير المعتصـم بجبـل مـرة، فالزبـير رجـل لا يحـب المفاجـآت، لـذا جهـز جيشـاً مؤلفـاً مـن اثنـي عـشر ألفـاً مـن المقاتلـين، لم يكـن مـن بينهـم سـوى مئتـي جنـدي مـن جنـود إسـماعيل باشـا أيـوب، ثـم بـدأ يزحـف عـلى جبـل مـرة، وعندمـا أدركـه، أدرك الأمـير حسـب الله قـوة الزبـير، وأنـه لا قبل لـه بقتالها، لـذا سـلم بـلا قتـال، وكان معـه بعـض أولاد السـلطان إبراهيـم ابن السـلطان حسـين، ونحـو ألـف ومئتـي رجـل مـن أعيـان البـلاد وكبرائهـا، ولم تكـن هـذه مهمـة سـهلة رغـم نجاحهـا بالتسـليم، فقـد اسـتغرقت سـتة وتسـعين يومـاً، قـاد بعدهـا الزبـير أسراه الكثـر إلى مدينـة الفـاشر.

بقـدر مـا كان الزبـير رجل حـرب، كان رجل سـلام تعجـز الكلمات عـن وصـف نبلـه وتسـامحه، فرغـم أن الأمـير حسـب الله قاتلـه في دارا قتـالاً شرسـاً، وقتـل مـن رجالـه وأهلـه الكثيريـن، إلا أن الزبـير لم ينتقـم منـه ولم يأمـر بإعدامـه، بـل سـمع منـه باهتـمام وهـو يعـرض عليـه قائـلاً: (سـاعدني يـا الزبـير لأنْ أحكـم هـذه البـلاد تحـت طاعـة الحكومـة الخديويـة، وأدفـع لهـا الجزيـة السـنوية، إنهـا بلادنـا ونحـن أولى مـن غيرنـا بحكمهـا).

بتلـك اللغـة كان الأمـير حسـب الله يخاطـب الزبـير، هكـذا كان يتحـدث الأسـير لآسره، فـأي أسـيرٍ هـذا، وأي آسرٍ ذاك؟

الأسـير يدهـش كل مـن حولـه بهـذا الطلـب الـذي بـدا تحقيقـه

أمــراً مســتحيلاً، والآسر يصعــق الجميــع عندمــا قــال لأســيره:

- أنــت أمــير وســليل أكابــر وســلاطين، والحكم ليــس غريبــاً عليك ويشــبهك، وأهــل دارفــور يجــب أن يحكموهــا تحــت رايــات الخلافة الإســلامية، عليــه أوافــق عــلى طلبــك وســأســاعدك بــكل قــوة في الأمــر بالتشــاور مــع الحكمــدار إســماعيل..!

(٥)

وصل بعدها الزبير إلى مدينة الفاشر وفي معيته أكثر من ألف ومئتي أسير، على رأسهم الأمير حسب الله الذي امتلأت نفسه بالآمال والأمان، وفي مدينة الفاشر تحدث الزبير إلى حكمدار دارفور إسماعيل باشا أيوب قائلاً:

– يا باشا إن الأمير الأسير حسب الله قال لي رأياً استحسنته.

فسأله إسماعيل قائلاً:

– وماذا قال لك؟

قال الزبير:

– الأمير حسب الله قال لي إنه يريد أن يحكم هذه البلاد تحت طاعة الحكومة الخديوية، عارضاً دفع مئة ألف جنيه سنوياً، وأرى أن يُجاب لطلبه، ففيه راحة البلاد والحكومة معاً، خاصة أن معه الأمير محمد الفضل خليفة والده السلطان إبراهيم حسين، وهما يملكان دراية وخبرة بحكم بلادهما.

كان الأسير الأمير حسب الله والأمير محمد الفضل خليفة السلطان يدركان أن الزبير رجل لا يخلف وعده، لذا كانت الآمال ترفرف من حواليهما والزبير يخوض لأجلهما مفاوضات مع الباشا إسماعيل.

كان التوجس يغلب على حكمدار الخرطوم ودارفور إسماعيل باشا أيوب عندما يسمع رأياً أو اقتراحاً من حاكم بلاد بحر الغزال وشكا وفاتح دارفور، الزبير بيك، لا يدفعه لذلك إلا الغيرة التي تمكنت منه وهو يرى هذا الرجل القوي مُحاطاً بجيوشه ورجاله الذين يحبونه ومجده الذي انتزعه وانتصاراته التي حققها، بلا شك هو أقوى شخصية في السودان. تلك الخواطر كانت تطوف بنفسه التي قال لها: (هذا الرجل يملك طموحات لا حد لها، إنه يسعى لحكم دارفور بواسطة هؤلاء الفور والأعراب، ولا شك أنه طامح ليستقل بها ويضمها إلى ملكه في شكا وبحر الغزال، فيوسع دولته توطئة لحكم السودان بأكمله).

- فيمَ تفكر ولم تصمت يا باشا، فقد اقترحت عليك اقتراحاً بشأن إعطاء حكم هذه البلاد للأمير حسب الله والأمير محمد الفضل خليفة السلطان إبراهيم حسين؟

هكذا سأله الزبير، فأخرجه من خواطره ومن صمته وقال:

- هل تريد يا زبير بيك أن نُسلَّم هؤلاء الرعاع المتمردين حكم هذا الإقليم الذي داعب أحلامنا كثيراً، ألا ترى كيف أننا قد تكبدنا المشاق وصرفنا الأموال وفقدنا الأرواح من أجل أن نحكم هذا الإقليم؟

- لا سيدي الحكمدار، نحن لا نحمل أخلاق الغزاة قساة القلوب، وإن كنت قاسياً غليظ القلب لانفض الناس من حولي، وقد كان هدفنا أن نؤمن الطرق وأن يدين هذا الإقليم بالولاء والطاعة للدولة الإسلامية، وهذه الأهداف ستتحقق

بطريقة آمنة وسلمية، إن تركنا الحكم هنا لأهل هذا الإقليم.

عاد إسماعيل باشا لصمته وأخذه تفكير تمازجت معه مخاوفه وغيرته من الرجل الذي يدعى الزبير، ولما شعر بنظراته الحادة تتجه إليه قال له:

- هذا الرأي غير حكيم وغير منطقي، بل مخيف. هل ستذهب دماء رجالنا هباءً، هل سنصمت عن خسارتنا من الأموال في سبيل هذا الفتح؟

ابتسم الزبير ابتسامة هازئة، وقال لإسماعيل باشا أيوب:

- يا مولاي إنك لم تخسر قطرة دم واحدة في سبيل هذا الفتح، ولم تفقد فلساً واحداً في سبيله أيضاً، تلك الدماء دماء رجالي، وما صُرف على الفتح كان من أموالي وحدي، ولستُ نادماً لأني قد حققت أهدافي أن يعود السلام والأمان لهذه الربوع، وأن تنساب التجارة فيها وفوق طرقها بسلاسة وأمن، وأن تتبع هذه البلاد للدولة الإسلامية، ولا ضير وقد تحقق مُرادي أن نترك البلاد لتُحكم بواسطة أهلها.

- إذاً أنت تمتن على دولتنا بما قدمته لها وتريد أن تفرض آراءك علينا وتحكم هذه البلاد من وراء حجاب؟

- حاشا لله يا سيدي الباشا، أنا لا أمتن على أحد، وليس بمقدوري أن أمتن على الإرادة السنية، إنها التي تمثل إسلامنا العزيز الذي أمرنا أن نمتثل لأولي الأمر فينا، وأن نغيّر المنكر إن رأيناه بأيدينا أو بألسنتنا أو بقلوبنا، وذلك أضعف الإيمان.

أعـاد الزبـير إسـماعيل باشـا إلى صمتـه وقـرر أن يبقيـه صامتـاً حتـى ينهـي حديثـه معـه، فأضـاف قائـلاً:

– ليكـن معلومـاً لديـك سـيدي الباشـا أننـي عندمـا جئـت لجنـوب السـودان، جئـت محمـولاً عـلى ظهـر الصدفـة، وسرت فيـه بيـد الأقـدار. كانـت دواخـلي ومنـذ سـنوات طويلـة وأنـا في موطنـي بقريتـي الجيـلي تهتـف لي بـأني تاجـر، ولسـت سـلطاناً أو ملـكاً، أنـا لم أسـعَ لذلـك في حيـاتي، ومـا تحقـق منـه سِـيق لي ولم أخـطُ نحـوه، ولعلـك تذكَّـر يـا سـيدي الباشـا خطـابي إليـك عندمـا دانـت بحـر الغـزال وشـكا لي، الـذي قلـت لـك فيـه ضمـن مـا قلـت: (أرسـلوا مـن يتـولى حكـم البـلاد التـي فتحتهـا بالنيابـة عـن خديـوي مـصر، فـإذا مـا وصـل الحاكـم وتسـلم البـلاد عـدتُ إلى تجـارتي، تـاركاً كل مـا أنفقـت مـن الأمـوال في الفتـح هديـةً للحكومـة السـنية، وانتظـرت مكافأتهـا الأدبيـة حسـب مـا تقتضيـه عدالتهـا وكرمهـا) إذا تمعنـت يـا سـيدي الباشـا في معـاني هـذه الرسـالة سـيتضح لـك جليـاً أننـي لسـت طالـب سـلطة، ومـا توليـت أمـر تلـك البـلاد إلا إذعانـاً لرغبـة الجنـاب العـالي الـذي يعـرف قـدر ولائـي، وهـي ذات الرغبـة التـي جـاءت منـك أنـت في كتـاب منـك إليَّ، وقـد كان بإمـكاني وليـس بإمـكان أي شـخص آخـر، أن أكـون الحاكـم المطلـق بـإرادتي وبقـوتي لتلـك البـلاد، ولـكل البـلاد التـي فتحتهـا، ولكـن كوابـح الدِّيـن ومعطيـات الـولاء للدولـة الإسـلامية تمنعنـي مـن ذلـك، وحتـى عندمـا عُيِّنـت الحاكـم عـلى بحـر الغـزال وبـلاد شـكا كنـت خائفـاً أن أكـون ظلومـاً جهـولاً، فـالله تعـالى قـال في محكـم تنزيلـه: (إِنَّـا عَرَضْنَـا الْأَمَانَـةَ عَـلَى السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَأَبَـيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَـا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَـا وَحَمَلَهَـا الْإِنْسَـانُ إِنَّـهُ كَانَ ظَلُومًـا جَهُـولًا)

(٦)

نظر إسماعيل باشا إلى وجه الزبير، فأدرك أن الرجل يتمسك بمبادئه وطاعته للدولة الإسلامية التي يمثلها هنا هو، ولا شك لن يستطيع أن يعصي له أمراً، فقال له بعد جدال طويل حول أمر الأمير حسب الله:

- أنا الحاكم وأرفض أن يتولى الأمير حسب الله الحكم، وآمرك بالذهاب إلى مدينة دارا والإقامة فيها بعساكرك، إلى أن أصدر إليك أمراً آخر بعودتك إلى بحر الغزال.

كان لا بُدَّ للزبير من الامتثال لهذا الأمر، ولم يمنعه غيظه، فاتجه بجيشه إلى مدينة دارا؛ تاركاً خلفه الأسرى وعلى رأسهم الأمير حسب الله والأمير محمد الفضل، اللذين تبخرت آمالهما لمصير يحدده الباشا إسماعيل أيوب حكمدار دارفور، وهو يعلم أن الغضب لن يتوقف في دارفور إلا بترك الحكم فيها لأهلها، وبلغ الزبير المصير الذي حدده الباشا إسماعيل لأولئك الأسرى، فقد أرسلهم وعلى رأسهم الأميران حسب الله ومحمد الفضل إلى القاهرة.

(٧)

لم يمكث الزبير سوى شهرٍ واحدٍ في دارا حتى حدث ما كان يتوقعه في جوف استغاثة حملتها رسالة من إسماعيل باشا، قال له فيها: (إن الأمير بوش، أخ الأمير حسب الله، شقَّ عصا الطاعة وجمع بقية أولاد السلاطين في جبل مرة، وملأ الدنيا عبثاً وإفساداً، فعليك أن تخرج إليه وتخمد ثورته).

امتثل الزبير للأمر، وقاد جيشه البازنقر والبحارة نحو جبل مرة للمرة الثانية، وعندما أدركه لم ينتهِ أمر بوش بالتسليم كما انتهى أمر شقيقه الأمير حسب الله، لتنشب الحرب بين الزبير وبوش واستمرت لخمسة عشر يوماً، قرر بعدها الأمير بوش أن يهرب من الجبل، فترك الزبير قسماً من جنوده يبلغون الألف ومئتي جندي في الجبل، وترك على رأسهم ابنه سليمان ليبدأ في مطاردة الأمير الهارب بوش.

أخذ الزبير يتتبع خُطى الأمير بوش بعزم لا يفتر، حتى أدركه في موضعٍ يقال له (صرف الجداد) بالقرب من الكلكلة أو كبيكبية، فالتحم معه في قتال شديد لتنتهي المعركة بمقتل الأمير بوش وأخيه سيف الدين وسبعة وعشرين من كبراء جيشه، وبذلك نجح نهوض الزبير في إخماد ثورة الأمير بوش تماماً، وبدأ الزبير يتوغل بجيشه غرباً، فدانت له ديار تامة والمساليت وقمر وسلا، وهمَّ بدخول دار وادي بغرض إخضاعها للحكومة الخديوية، غير أن سلطانها محمد شريف الذي كتب له بالطاعة وبرغبته في حكم بلاده تحت طاعة

الدولـة الإسـلامية مـع دفـع الجزيـة السـنوية، كان قـد أرسـل سراً وزيـره أحمـد تنقـة إلى مـصر عـن طريـق صحـراء سـيوة، مشـتكياً للخديـوي، فأمـر الجنـاب العـالي برجـوع الزبـير إلى الفـاشر، وهـو أمـر علـم بـه الزبـير فيـما ورد إليـه مـن كتـاب أرسـله لـه إسـماعيل باشـا أيـوب، فعـاد إلى هنـاك وفي قلبـه حـسرة عـلى ضيـاع هـذا الفتـح، وهـي حـسرة لم يخفـف مـن وقعهـا ذلـك التقديـر الـذي وجـده الزبـير في الفـاشر، فقـد وجـد أن الجنـاب العـالي أنعـم عليـه برتبـة اللـواء مـع منحـه لقـب الباشـا، فاسـتراح بعدهـا الزبير باشـا بعـد عودتـه مـن غـزوة دار وادي، التـي كانـت آخـر غزواتـه وحروباتـه التـي زادت عـن المئـة وعشريـن معركـة، وانتـصر فيهـا جميعـاً ولم تفشـل منهـا سـوى ثـلاث معـارك، وحنـق وغيـظ ومؤامـرات إسـماعيل باشـا تتواتـر وتـزداد، ثـم جـرت محاولـة خطـيرة لقتـل الزبـير باشـا في الفـاشر.

(٨)

بـدأ إسـماعيل باشـا أيـوب حكمـدار دارفـور إدارتـه لهـا بالـشروع في تحصـين عاصمتهـا مدينـة الفـاشر ببنـاء اسـتحكامات منيعـة، وخنـادق عميقـة، وأبـراج عاليـة، مـع بنـاء ثكنات عسـكرية، وامتـد البناء ليشـمل ديوانـاً للحكومـة وداراً للحاكـم، وقسـم البـلاد لأربـع وحـدات إداريـة هـي: مديريـة الفـاشر، ودارا، وكبيكبيـة، وأم شـنقة، ثـم وزع منشـوراً في كل البـلاد دعـا فيـه النـاس إلى الفـاشر لأخـذ الأمـان، فصـارت الوفـود تأتيـه مـن المديريـات الأربـع، فيؤمنهـم ويرجعهـم إلى بلادهـم، ثـم أمـر فعمـرت سـوق كبـيرة في الفـاشر، فعـاد النـاس إلى معاطـاة أعمالهـم بشـكل طبيعـي، غـير أن إسـماعيل باشـا أيـوب شرع في وضـع ضرائـب باهظـة عـلى المواطنـين، إذ فـرض مبلـغ خمسـين قرشـاً يدفعهـا الفـرد في السـنة، عـلى أن يدفـع المـوسرون منهـم أكثـر مـن ذلـك.

هـذا القـرار أعـاد لنفـس الزبـير ذكـرى قديمـة مؤرقـة، فقـد كان ذات يـوم مـن أيـام طفولتـه مجتمعـاً مـع ابـن عمـه وصديقـه قرب النيل في قريتهـما (الجيـلي) يحكـي لـه تفاصيـل مغامرتـه الليليـة عندمـا كان يبحـث عـن (الباسـلة) تلـك المهـرة التـي كـم تمنـى أن يقتنيهـا رغـم سـنه الصغـيرة. اجتمعا يراقبـان الزراع أعمامهـم وآباءهـم وهم يحصدون ما زرعوا بهمة ونشاط. أصاخ محمد إلى رفيقه الزبير وهو يورد التفاصيل بدقة، ثم يسأله بشغف ولكن ثمة أصوات دفعت بهما إلى دائرة الصمت والترقب؛ أصوات قابلها المزارعون بصمود وشجاعة، كان أصحاب تلك الأصوات المزمجرة وبعضها أعجمي أجش غرباء يركبون فوق جياد قوية، ويحملون العصي والسلاح ويلبسون الطرابيش ويسألون الجميع بفظاظة عن الضرائب.

(٩)

تلـك الذكـرى السـيئة كان لهـا أثـر بليـغ في نفـس الزبـير، شـكلت في نفسـه مـع أسـباب أخـرى شـخصيته العادلـة والرحيمـة، ولمـا سـمع قـرار إسـماعيل باشـا بفـرض تلـك الضرائـب عـلى أهـل دارفـور، ذهـب إليـه مغاضبـاً ومناصحـاً وقـال لـه:
- إسـماعيل باشـا أرجـو أن تسـمعني وتنفِّـذ مـا أقولـه لـك.
- مـاذا تريـد أن تقـول يـا سـعادة اللـواء الزبـير باشـا؟
- سبق أن قدمـت لـك نصيحـة بجعـل حكـم دارفـور لأهلهـا تحـت رايـات الدولـة الإسـلامية، ولم تأبـه لنصيحتـي ولم تأخـذ بهـا، بـل رفضتهـا جملـةً وتفصيـلاً، وأخشـى ألا تسـتبين نصيحتـي لـك إلا ضُحـى الغـد..!

ابتسم اسماعيل باشا أيوب ابتسامة فيها الكثير من التهكم وقال للزبير:

- أيهـا الباشـا الزبـير مـاذا تـرى بحـق الله؟ ألا تـرى أن النـاس هنـا قـد ارتضونـا حكامـاً وأتـوا إلينـا مـن جميـع الجهـات؟ ألا تـرى أيهـا الحاكـم أننـي فتحـت الأسـواق وأقـود هـؤلاء الفـور والأعـراب نحـو المدنيـة والتحـضر؟ أي حاكـمٍ منهـم يمكـن أن يُؤتـى حكمتـي حتـى نـترك لـه الحكـم؟
- هـذا الأمـر يئسـت منـه ومـن رفضـك المتواصـل لـه، وقـد فـات أوانـه بعـد أن قـدت أمـراء دارفـور ووارثـي حكمهـا إلى القاهـرة، ولكنـي أرى تحـت الرمـاد وميـض نـار أخشـى أن يكـون لهـا ضرام.

(١٠)

مسحة من غضب طافت على وجه الباشا إسماعيل وهو يقول للزبير باشا:

- هل جئتني لتعيد إلى مسامعي طلباً مرفوضاً، وأمراً قد جرت تحت جسره مياه كثيرة يا حضرة اللواء الزبير باشا؟
- لا يا سيدي، لم يكن هذا ما جئت من أجله.
- إذاً حدثني.

- جئت معارضاً ومعترضاً على ما فرضته من ضرائب على أهل دارفور.

عندها ترك إسماعيل باشا مقعده وانتصب واقفاً ودائراً حول الزبير وهو يقول له:

- ألا تدري أن الضرائب هي من أهم مواردنا؟ كيف سنقابل مصروفات الحكم وما يفرضه علينا من تداعيات، هل تريد أن نقدم للناس هنا العيش ولا نأخذ منهم ضرائب؟ كل الدول يا الزبير تفرض ضرائب على مواطنيها.

- أعلم ذلك، ولكن ما حددته هو مبلغ كبير لن يطيقه الأهالي هنا، وسيجعلهم ينفرون منا ولن يرضوا به، وصدقني سوف يرفضون ويثورون.
- من يرفض سنأخذ منه الضريبة قسراً، ومن يثور سنقطع رأسه..!

- لا نريـد أن نصـل إلى هـذه النتيجـة، وتفاديـاً لهـا أرى أن تجعـل الضريبـة مـن قرشـين إلى عـشرة قـروش كحـدٍ أقـصى، فـما فرضتـه يثقـل كاهلهـم.

- دعنـي أفكـر في الأمـر، ولكـن أنـا أدرى بـما يجـب أن أفعلـه، وعليـك الآن أن تعـود إلى بحـر الغـزال، وتفعـل ذلـك فـوراً.

تـرك الزبـير باشـا المـكان آمـلاً أن يأخـذ الحاكـم بنصيحتـه، ولكنـه لم يفعـل لتثبـت الأيـام بعـد ذلـك حكمـة الزبـير باشـا، وبُعـد نظـره، وسـلامة آرائـه، وصحـة توقعاتـه.

(١١)

كان القلق إزاء الضرائب المفروضة لا يزال يؤرق الزبير باشا، وحال وصوله إلى بحر الغزال بجيوشه أرسل رسالة رسمية لإسماعيل باشا أيوب، أثبت فيها رأيه حول الضرائب مطالباً بتخفيضها إلى الحد الذي بينه في نقاشه معه، فزادت الرسالة من حنق وغيظ إسماعيل باشا أيوب على الزبير باشا، وبدأ في التآمر عليه، فأرسل رسالة لخديوي مصر إسماعيل باشا محمد علي، حشدها برؤى حاقدة، وأكاذيب مغرضة، متهماً فيها الزبير باشا بالتدخل في إدارته لدارفور، وسعيه للاستقلال بها، طاعناً في إخلاصه وولائه، ونتيجة لذلك أرسل خديوي مصر تلغرافاً للزبير باشا يأمره فيه بعدم تعرضه للحكمدار إسماعيل باشا أيوب في إدارته للبلاد. لم تكن هذه نهاية التآمر على الزبير باشا من قبل إسماعيل باشا أيوب، بل بلغ تآمره عليه حداً خطيراً، عندما كان الزبير باشا يُبدي آراءه حول السياسات غير الرشيدة التي كان ينتهجها، قرر اغتياله عن طريق محمد باشا، أحد رجال إدارته، الذي استجلب نوعاً فاتكاً من السم من إسطنبول بتركيا، ليضع به حداً لحياة الزبير باشا الذي بلغ آنذاك الرابعة والأربعين من العمر، وقد انتهز محمد باشا الاجتماع الذي دعا إليه التجار وحضره الزبير باشا، باعتباره كبير التجار، فدس له السم في فنجان قهوته، وما أن استقرت القهوة في جوفه حتى أحسَّ وكأنَّ تلاً هائلاً قد انهار فوق رأسه، فأمر أن يُحمل إلى داره، حيث لزم فراشه بين الموت والحياة لمدة سبعة وأربعين يوماً، ورغم نجاته إلا أن صحته لم تعد كما كانت قبل هذه المؤامرة الخسيسة.

(١٢)

وضحت رؤية الزبير الثاقبة، فعندما بذل لهم نصحه بمنعرج اللوى لم يستبينوا النصح إلا ضُحى الغد، فلما أثقلت الضرائب كاهل الدارفوريين لم يلبثوا أن ولوا الأمير هارون الرشيد ابن الأمير سيف الدين ابن السلطان محمد الفضل سلطاناً عليهم، وثاروا معه على الحكومة، فأذاقوها الأمرين، وبعد عامين عاد إسماعيل باشا أيوب إلى القاهرة التي سبقه إليها الزبير باشا، فقام الخديوي بتعيين الإنجليزي غردون حاكماً على السودان، وآنذاك كان السلطان الثائر هارون الرشيد قد تمكن من محاصرة الفاشر التي كان يديرها حسن باشا حلمي الجويسر، وكاد يستولى عليها، وفي ذهنه وذهن ثواره ذلك العنف وتلك القسوة اللذين كانا سمة باشبوزق الحكومة في اقتضاء تلك الضرائب الباهظة، وعندما شعر حسن باشا باقتراب الهزيمة طلب المدد من الخرطوم، فأتاه منها جيش كبير بقيادة عبد الرازق باشا، فتصدى للثوار ونجح في رفع الحصار عنها وعن دارا وكلكل ثم طارد الأمير هارون الذي نجح في سحب من نجا من جيشه المهزوم، ولما علم غردون بأمر ثورة الأمير هارون أسرع إلى الفاشر فوجدها هادئة وأدرك أسباب الثورة، فأمر الجباة بالرفق في تحصيل الضرائب وعزل جانباً كبيراً من عساكر الباشبوزق القساة وعاد للخرطوم، غير أن الأمير هارون أعاده للفاشر وهو يجدد ثورته، وعندما عاد غردون لها أطلق رأيه بأن دارفور لن ينصلح حالها إلا إذا حكمها رجل من أهلها تحت طاعة الحكومة، وكان هذا هو رأي الزبير باشا ونصيحته السابقة التي لم يتبينوها إلا ضُحى

هكـذا عـاد غـردون وهـو يعيـد للأذهـان مـا قـال بـه الزبـير باشـا مـن قبـل، بإعطـاء الحكـم لأهـل دارفـور، فأصـدر حاكـم السـودان الجديـد قـراراً بموجبـه تـم عـزل حسـن باشـا حلمـي عـن الفـاشر وسـمى الضابـط الإيطـالي مسـاداليه بيـك مديـراً عـلى دارفـور، وكخطـوة أولى نحـو تسـليم الحكـم في دارفـور لأهلهـا قـام غـردون بتعيـين المقـدوم رحمـة قومـو مسـاعداً لمسـاداليه، وعمـل غـردون عـلى البحـث عـن عائلـة السـلطان إبراهيـم ليتخـير مـن بـين أبنائهـا أرشـدهم لحكـم دارفـور، ولكـن غـردون علـم أن الأمـير حسـب الله وعائلته وأتباعه البالغ عددهم ستة وتسعين فرداً من ذكور وإناث، قـد أرسـلهم إسـماعيل باشـا أيـوب إلى الخرطوم، فوصلوها وانضمـوا إلى أبناء السلطان إبراهيم قرض الذين تـم القبض عليهم بعد فرارهم وهم: محمد الفضل وعبد الرحمن جامع وعبد الرحمن شاطوط شقيق السلطان، ومعهم عائلاتهم وأتباعهم البالغ عددهم مائتـين وثلاثة وعشرين رجلًا، وبعد فترة وجيزة تـم نقلهم إلى القاهرة، حيث استقروا في الحي المعروف بسوق السلاح، وأجريت لهم المرتبات فعاشوا في سلام، وكان من بينهم الأمير عبد الحميد بن السلطان إبراهيم وتسعة عشر آخرون من إخوته، وفي خطوتـه التـي جـاءت متأخـرة عامـين عـما ارتـآه الزبـير باشـا، أرسـل غـردون في طلـب ابـن السـلطان إبراهيـم مـن القاهـرة ليوليـه دارفـور، وبالفعـل سـار موكـب ابـن السـلطان نحـو السـودان في مفاجـأة غـير متوقعـة، وبـدأ العـز القديـم يـتراءى لـه، ولكـن بوصولـه إلى مدينـة دنقـلا أنشـبت المنيـة فيـه أظفارهـا، فحـال المـوت دون بلـوغ الأمـل، وبقـي الحكـم في دارفـور كـما هـو.

(١٣)

قبل أن تجري كل هذه المياه كان الزبير باشا قد بلغ به ما بلغ من الاستياء من الإدارة في دارفور بواسطة حاكمها إسماعيل باشا أيوب، التي وصلت إلى حد المحاولة الخطيرة التي كادت تقضي على حياته، إضافة لما كان يوغر به إسماعيل باشا أيوب صدر الخديوي ضده، ورغم أن الزبير باشا كان يعلم تماماً أن هناك من كان يحسده على نبوغه التجاري واتساع رقعة أعماله وازدياد ثروته بشكل تضخمي، بسبب مواهبه الطبيعية حتى أصبح قوة يعمل لها ألف حساب في أي مكان، وما كان يغيب عن ذهن الزبير باشا أن المستعمر الإنجليزي كان يرى في تنامي قوته وارتباطه بمصر أمراً يدعو للقلق، خاصة وأنهم يسعون إلى إضعاف النفوذ المصري في السودان لإبعادها عن هذا المسرح والانفراد به، ويعلم أنهم يتوجسون من استقلاله بالسودان وليس خافياً عليه حنقهم عليه، وهو يتجاسر على حكم الجنوب السوداني بتعاليم الإسلام وسعيه لنشر الثقافة العربية على حساب الثقافة الزنجية الأفريقية، ما يعد هزيمة لمشروع التنصير القسري الذي كانت الكنيسة تخطط لتكريسه كمنفذ فكري غربي جديد، إلا أن الزبير باشا عندما طعن في ولائه المستمد من عقيدته الإسلامية فكر في السفر إلى مصر لمقابلة الخديوي.

لم يكن الزبير باشا وهو يفكر في السفر إلى مصر مدفوعاً بشيء غير إثبات ولائه ووضع المسائل الخلافية بينه وبين الحاكم إسماعيل باشا أيوب على طاولة الخديوي، غير أن مصر الخديوية

كانت تنظر إليه بعين الريبة والتوجس والخشية من عواقب تنامي قدراته العسكرية والاقتصادية، فساعدت على تنشيط المؤامرات ضد الزبير باشا ويمنعها الحياء من محاربة رجل قدم لها أعظم هدية، بضم تلك الرقاع الواسعة لسلطانها، وقد ساعدت أجواء سوء الإدارة وفساد الذمم والضمائر في عهد السودان التركي المصري الذي بلغ حداً كبيراً على تعرض الزبير باشا للمؤامرات والدسائس، ولكن الزبير باشا الذي كان صادقاً مع نفسه ومع دينه كان يعمل بما يمليه عليه ضميره، وتفرضه عليه عقيدته، وقد ساءه إلى حد بعيد أن يعمل إسماعيل باشا أيوب على تشويه صورته أمام الخديوي، بإرسال أكاذيبه ووشاياته عنه إلى القاهرة، ليبرزه في صورة المعارض للحكم والساعي لأهداف ومصالح تتعارض مع مصالح الدولة والحكم الإسلامي، كتفكيره في الاستقلال بالسودان.

لكل ذلك استقر رأي الزبير باشا على السفر إلى مصر، وهو أمر أقلق إسماعيل باشا أيوب وأفقده توازنه، إذ لا شك ستنكشف أكاذيبه أمام الزبير باشا صاحب الحجة والحق.

(١٤)

جمع الزبير باشا قادته ومعهم ابنه سليمان ومجموعة مستشاريه ومجالسه العدلية وشرح لهم بشكل وافٍ رؤيته السياسية وفساد الإدارة وظلم الناس، ولا يمكن أن يتم الإصلاح إلا بمقابلة الخديوي بالقاهرة وشرح الأمر له، انقسم المجلس في رأيه، فبعضهم أيد الزبير باشا في رؤيته والبعض رفض أن يسافر الزبير باشا، وكان دافعهم الخوف عليه من أعدائه وعدم تمكنه من العودة، غير أن الزبير باشا تمكن من أن تتم مباركة قراره بالسفر بعد أن أوضح للجميع وقال لهم إنني أسعى لمقابلة الجناب العالي لأعرض عليه حقيقة الحال وأنظر معه ومع رجال حكومته في تنظيم البلاد التي فتحناها على أيدينا، وما يمكن أن نضيفه إليها في المستقبل، بعدها أعد الزبير باشا رسالته للجناب العالي حوت تلك المعاني وطلباً للسماح له بمقابلته.

لم يمضِ وقت كثير حتى ورد الرد تلغرافياً من الجناب العالي على الزبير باشا، جاء فيه: (سعادتو زبير باشا لقد كانت أفكاري متعلقة بك، لكن بالنظر لما بيني وبينك من بُعد المسافة، ولما هو بالغ مسامعي عما أنت فيه من المشغوليات الجسيمة، ظننت أنه لا يتيسر حضورك، فلما ورد تلغرافك بطلب مقابلتي بمصر صرت ممنوناً، فبادر واحضر إلى مصر لأجل المداولة معك في تشكيل حكمدارية تكون مفوضة بك، وتحت إرادتك، وها قد تنبه على جميع طلباتك بغاية الإعزاز والإكرام)

(١٥)

بدأ الزبير باشا يتلو ما ورد إليه من سمو الخديوي إسماعيل باشا محمد علي، خديوي مصر، على أسماع قادته ورجاله، فهلل البعض وتبادلوا التهاني، وعندما رأى الزبير باشا أن الابتسامات علت الوجوه وأدها بتقطيبة ثم قال:

- كنت سأفرح مثلكم لو أن الخديوي سمح لي بالسفر إليه ومقابلته، ولكن ورود هذه البرقية بهذا الشكل دفع إلى نفسي بعض الهواجس، فسموه لم يسمع مني بعد، ولكنه يقول مسبقاً دعوته للمداولة لأجل تشكيل حكومة تكون مفوضة بي. هذا الأمر أقلقني وأشعرني أنه محض استدراج معه أحسُّ بأني لن أعودَ إلى السودان.

عندها شعر رجال الزبير بما شعر به، أخذوا يقترحون عليه بإصرار عدم السفر إلى مصر ويقولون له: (لا تسافر يا باشا) ولكن الزبير فاجأهم بقوله:

- رغم كل شيء إلا أني سأسافر، نعم سأسافر، لأنه من مقتضيات الإخلاص والولاء أن أستجيب لكلمة الخديوي، ومن دواعي شرف النفس الصادقة أن أحافظ على كلمة قلتها.

تداخلت المشاعر وتباينت في النفوس، فبدأ البعض ينظر إلى قائدهم الزبير باشا نظرة عميقة، وكأنهم يريدون أن يكرسوا صورته في أذهانهم للأبد، وكأنما الوقت وقت وداع والبعض يحدوه أمل آخر، وعلى كل بدأت الرحلة إلى مصر وكانت رحلة تاريخية خلدها الشعراء والشاعرات.

(١٦)

لم يخلُ وداع الزبير باشا وهو يتهيأ للسفر إلى مصر من الأشجان والدموع، فالزبير باشا لم يتخلَ في يوم من الأيام عن أهله ورجاله وقادته وأفراد جيشه، إلا عندما يكون في مهمة تلزمه النهوض سواء كانت تجارية أو سياسية أو حربية، لذا لم يكن يغيب كثيراً عن أعينهم، وهم الآن لا يدرون هل سيعود لهم قائدهم المحبوب أم لا، هل ستعانق أعينهم وجهه من جديد أم لا؟

وقفت القوة التشريفية من جيشه مصطفة فوق البساط، وامتطى الفرسان جيادهم وركب الهجانة جمالهم وأفراد سلاح المدفعية وقفوا خلف مدافعهم، والمشاة يتمسكون ببنادقهم بانتظام، وأفراد فرقة الموسيقى العسكرية يضعون أمامهم طبولهم وآلاتهم الموسيقية النحاسية، وأفراد الألعاب النارية يستعدون لإطلاق ما في أيديهم في يوم الوداع، وقواد جيشه يقفون في المقدمة بهامات مرتفعة وأجساد منتصبة ووجوه حزينة، البطل سليمان الزبير والبطل رابح فضل الله، والبطل حامد ود مزمل، والبطل النور عنقرة، والبطل الزاكي طمل، والبطل حمدان أبوعنجة، وفرسان وأبطال الجموعية بقيادة ابن عمه محمد عبد القادر وغيرهم من القادة، جميع من كان في ساحة الوداع المهيبة كان يلبس زيه العسكري كاملاً، وكل فرد يحمل رتبته وشارته، وفي الساحة ترتفع الأعلام عالياً كأنها تنظر للسحب التي تراكمت فوق السماء، وظللت الأرض، وكأنها تغازل تلك العصافير وهي تزقزق فوق أفنانها على الشجر.

الـكل كان يضـع كفـه مفـردة عـلى جانـب رأسـه، شـارعاً في التحيـة العسـكرية والزبـير باشـا بردائـه العسـكري ونياشـينه ورتبـة اللـواء يقـف منتصبـاً فـوق منصـة الـوداع، وهـو يحيـي جنـوده في اسـتعراضهم العسـكري الـذي كان يمـر مـن أمامـه والمدفعجيـة يطلقـون مئـات القذائـف في الهـواء والألعـاب الناريـة تـضيء الأفـق، ويعانـق الرصـاص وأزيـزه في سـمائه، كل ذلـك كان منسـجماً مـع الموسـيقى التـي كانـت تعزفهـا فرقـة الزنقـران دون توقـف. وخلـف المنصـة، كان هنـاك مـن يضـع اللمسـات الأخـيرة لركـب الزبـير باشـا الـذي ضـم حاشـيته وعائلتـه وبعـض أتباعـه والمـؤن اللازمـة، والهدايـا التـي قـرر أن يحملهـا للخديـوي ألـف جنـدي مسـلح، ومئـة جـواد مـن جيـاد الخيـل العربيـة، ومئـة وخمسـة وسـتين قنطـاراً مـن سـن الفيـل المتناهيـة الكـبر والجـودة، وأربعـة أسـود وأربعـة نمـور وسـت عـشرة ببغـاء. وعندمـا اكتمـل الاسـتعداد لهـذه الرحلـة التاريخيـة الضخمـة وانتهـت مراسـم الـوداع الرسـمية، وضـع الزبـير باشـا كفـه للتحيـة العسـكرية عـن وجهـه البهـي الـذي بـدا بشـاربين خفيفـين ولحيـة صغـيرة، وأخـذ يـودع الجميـع بحجابـه السـهل وقلبـه الذكـي وإرادتـه القويـة وطبعـه الكريـم وصوتـه الحديـدي ولهجتـه الفصيحـة، وداعـاً مؤثـراً، فحزنـت السـماء وتقاطـر منهـا شيء كأنـه رذاذ مطـر، كأنـه دمـوع.

(١٧)

ترجل الزبير باشا نحو موكبه المهيب الذي تمت محاصرته من جهاته الأربع بالأهالي الذين أحبوه، وبجنوده الأوفياء وقواده الأشاوس، وقبل أن يعتلي مركبه بدأت المزامير تطلق لحناً حزيناً لم يحتمله أحد القادة، فضرب ببروتكول المراسم عرض الحائط وأخذ ينطلق مهرولاً من الصف الأول للقادة تجاه الزبير باشا، وهبطت كفه فوق كتفه فالتفت إليه الزبير باشا، فرأى وجهاً قد عصف به الحزن والأسى، فقال له الزبير باشا:

- لا تحزن يا ابني رابح، أنا يا غرق يا جيت حازمها، ومخلي فيكم ولدي سليمان الحاج.

بشفاه مرتعشة رد رابح قائلاً:

- سمعاً وطاعةً له، ولكني أخشى ألا أرى وجهك الصبوح يا أبي مرة أخرى، أخشى أن يكون هذا وداعنا الأخير.

هنيهات من الصمت سمحت لساعدي رابح المضطربتين أن تلتفا حول عنق الزبير، فجذبه الزبير إلى أحضانه فخرج نشيج من جوف رابح، وعندما تمكن من لسانه استحال إلى بكاء مُر، ضرب آذان القادة فأحسوا في قلوبهم بوخزة وألم، فطاروا بالعناق نحو الزبير ورابح، واتسعت دائرة العناق وتساقط الدمع السخين في مشهد يعجز القلم عن تصويره، ولم ينتهِ ذلك العناق إلا بعد أن زأرت الأسود وضرضرت النمور في

أقفاصها في موكب الزبير، وطارت العصافير من أفنانها وهزيم الرعد ينتظم السماء والرياح بهزيزها تضرب الأشجار فتحف حفيفاً حزيناً.

اعتلى الزبير باشا مركبه في مقدمة الركب وهو يرفع للجميع كف الوداع، فارتفعت أكفهم لا تودعه فحسب، إنما تتمنى له سلامة الوصول والعودة بصدق ووفاء تكاد تنزف له القلوب، والأهالي الحزانى من حواليهم عقدوا أمرهم على شيء، فعندما تحرك ركب الزبير باشا اندفعت جموع الأهالي من خلفه بسيوف مسلولة وحراب مشرعة وهم يهرولون مودعين وباكين، ولم يعودوا حتى اختفى ركب الزبير في الأفق وفي رؤاه خواطر وأشجان. وهناك في ساحة الوداع والأحزان عندما جفت الدموع كان سليمان الحاج الزبير باشا ينظر للأفق الذي انسرب فيه والده، وعيناه لا تطيقانه، فأشاح بوجهه نحو الأشجار فرأى فوقها بومة تنعب وغراباً ينعق فقال: أعوذ بالله. وعندما تخلص من المشاعر التي انتابته وأثقلت نفسه التفت إلى القادة وإلى أفراد الجيش، وأخذ يصدر لهم الأوامر والتوجيهات، فعلم الجميع أن سليمان بات القائد المكلف لجيش البازنقر والبحارة، وكان ركب والده الزبير هناك يقطع الدروب والمسافات والسهول التي كان يعرف الباشا نهادها نهدة نهدة، ووهادها وهدة وهدة، وأخذ يضع الذكريات المضيئة في المواضع والقرى والبنادر التي كان يمر بها موكب الرحيل والسفر، فيخرج أهلها مستقبلين مستبشرين بمقدم الرجل العظيم، الرجال يحمحمون والنساء يزغردن والأطفال يتصايحون والكل يهلل ويكبر، حمحمات وزغاريد وصياح وتهليل وتكبير يأخذ ببعضه بعضاً على طول الطريق، حتى وصل الزبير باشا إلى مدينة الأبيض.

(١٨)

أنــاخ الزبــير باشــا رواحلــه في مدينــة الأبيــض وســط أجــواء مــن الاســتقبال الحميــم والفرحــة الكــبرى بمقدمــه ومــروره، وعندمــا أوغــل الليــل بــدأت الصــور تتداعــى في ذهــب الزبــير باشــا وهــي تنقــل لــه مشــاهد كثــيرة مــن الــوداع والاســتقبال الــذي كان يتجــدد في مســيرته نحــو مــصر، فبــدا في حالــة عظيمــة مــن الأشــجان ضاعفهــا هديــل القــماري الــذي كان يغشــى أذنيــه فيغــزو وجدانــه:

بَعَدْ مَا قُنَا رُقْنَا ومِنْ سَهَرْنَا هَجَعْنَا
كَرْ يَا قُمْري لا تْسَربْ عَلينا وَجعْنَا
حَبينَا البَوادي ومِن أهلنا نجعْنَا
يا رَيتْ كُنَا مِن أَولْ شُهُورَنا رَجَعْنَا..

غــير أنّ الأقــدار دائــماً مــا كانــت تنســج للزبــير باشــا حلــه وترحالــه، كأنــما كانــت تراجيديــا لا يفهــم معناهــا، ولعبــة لا تفصــح عــن مغزاهــا، والصبــاح يطــل وتكشــف الشــمس عــن الدنيــا ومــا فيهــا والركــب يســتعد لاســتئناف الرحلــة مــن جديــد صــوب الخرطــوم، غــير أنّ مــا وجــده الزبــير باشــا مــن حفــاوة في مدينــة الأبيــض عــروس الرمــال حــاضرة مديريــة كردفــان، جعــل حــال لســانه يقــول وهــو يغادرهــا بموكبــه المهيــب:

أفدي الأبيض أفدي النازلين بها**مثوى الأكارم أشياعي وأنصاري

إنّ الذي قد كساكم من صنائعه**ثوب الفضيلة عراكم عن العارِ

حوافـر الخيـول تـضرب الأرض وأخفـاف الجـمال تنهـب الطريـق، وركـب الزبـير باشـا يحفـه اسـتقبال وراء اسـتقبال، ويشـيعه وداع إثـر وداع حتـى وصـل إلى الخرطـوم.

قبـل مغـادرة الزبـير باشـا للأبيـض وفـد إليـه ملـكان أولهـما ملـك البرقـو الـذي جـاءه وفي نفسـه هـوًى وطاعـة راضيـاً بالخضـوع لـه ودفـع الجزيـة، واعـداً بفتـح الطـرق وتأمينهـا؛ جـاءه في وفـد مصطحبـاً فرسـين هديـة لـه فقـال لـه الزبـير:

– عليـك أن تسـارع وتلحـق بي في القاهـرة لأناقـش أمـرك وأمـر قومـك أمـام الخديـوي، وهنـاك نضـع معاهـدة بيننـا ونبصـم عليهـا.

وعندمـا ودعـه رد الهديـة بأحسـن منهـا أربعـة خيـول مطهمـة، فعـاد ملـك البرقـو لقومـه متلفحـاً بالبشـارة، سـعيداً بقـرب عهـد مملكتـه للانضـمام إلى دولـة إسـلامية عادلـة، يقـف عـلى رأسـها رجـل عظيـم يدعـى الزبـير باشـا.

ومـن منطقـة جبليـة في كردفـان جنـوب الأبيـض تدعـى تقـلي، أسرج ملكهـا خيولـه صـوب الزبـير باشـا وهـو يتهيـأ لمواصلـة رحلتـه التاريخيـة وفي نفسـه عـزم ألا يفوتـه شرف لقـاء الزبـير باشـا وضـم مملكتـه إلى أراضيـه، ليسـتظل بالرفاهيـة وإنقـاذ مجتمعـه مـن مـا هـم فيـه مـن بـداءةٍ وتخلـفٍ، وعندمـا أدركـه وأكـرم الزبـير باشـا وفادتـه، أعلـن الـولاء مرتضيـاً دفـع الجزيـة، معلنـاً قبولـه بحكـم تقـلي تحـت راياتـه، رغـم أن تقـلي كانـت تسـتعصي دائـماً للخضـوع لأحـد محافظـةً عـلى اسـتقلالها، نائيـةً عـن أطـماع حـكام دارفـور وكردفـان، غـير أنّ الزبـير باشـا شـأنه شـأن آخـر لـذا قـال

لـه:

- لقـد سـمعنا عنـك الكثـير سـيدي الزبـير باشـا، سـمعنا عـن عدلـك وإحسـانك وكرمـك وفروسـيتك، وإذا رأيـت أن تقبلنـا فإننـا سـنعلن جميعـاً الخضـوع لـك.

فأجابه الزبير باشا قائلاً:

- يسـعدني ذلـك يـا جلالـة الملـك، فقـط دعنـي أرتـب الأمـر مـع الخديـوي حـال وصـولي للقاهـرة.

(١٩)

آمالٌ وأمانٍ بدت تختلج في صدر الزبير باشا، راجياً أن تتحقق في زيارته للقاهرة، كانت تدهمه بشكل ملح فها هو الآن يدخل في طورٍ من أطوار مجاهداته الجديدة بعد أن حقق الكثير جداً، وبدأت الملوك والوفود تلتقيه أثناء سيره بولاءٍ وطاعةٍ وفرحةٍ، فيما ينبئ بتقبله زعيماً للسودان كله. إنها بشارات يستعذب حملها لخديوي مصر إسماعيل باشا إبراهيم محمد علي باشا، وفي خاطره أن إسماعيل باشا أيوب حاكم دارفور رجل تافه من سقط المتاع، ولكنه تأدباً لن يقول رأيه هذا للخديوي، ولكن سيقول له: (لقد قدم هذا الرجل سيدي الخديوي وهو لا يعلم شيئاً عن من سيحكمهم، ولم يفكر في شيء سوى أن يصبح غنياً، ولم يكن تعامله مع أهل دارفور لائقاً، فأول ما فعله هو إرسال كبار رجالها وأمرائها وحتى النسوة اللواتي ينتمين إلى عائلات ذوات مكانة رفيعة إلى القاهرة، لقد بعث بهم مسوقين بالأغلال حتى أن بعضهم مات في الطريق، هذه يا سيدي ليست الطريقة الأمثل للحكم، كان عليه أن يتخذ من رجال دارفور الأمراء والكبار أصدقاءً له، بدلاً من معاملتهم بهذه المعاملة التي لا تليق بهم، وليته توقف عند هذا الحد يا سيدي، لقد توغل في قسوته أكثر وهو يفرض على أهل دارفور ضرائب نقدية باهظة، فرضها على أناس لم يسبق لهم أن واجهوا ضريبة، لقد كان الزُّراع وغيرهم في تلك المناحي يؤدون ما كُتب عليهم عيناً من الحِنطة، أو بأي نوع من البضائع تكون في حوزتهم، أما الضريبة النقدية ضريبة الدقنية، فإنهم لا يستطيعونها ولو رغبوا في سدادها).

(٢٠)

كان الركب يسير نحو الخرطوم ولا تزال الخواطر ترتب للزبير باشا أفكاره ورؤاه التي ينوي أن ينثرها على طاولة الخديوي إسماعيل بقصر عابدين في القاهرة، ولم يزل أمر الضرائب يؤرقه، فيثير خاطراً من خواطره المناداحة فيقول لنفسه: (سأكون واضحاً وصادقاً مع الخديوي وأقول له: ارتفاع الضرائب وجبايتها بقسوةٍ وعنفٍ يا سيدي الخديوي، ملأ الناس فزعاً ورعباً، إنّ أغلبهم فقراء يا سيدي، لذا فرَّ أغلبهم، وهجروا ديارهم، واتجهت وفودٌ منهم صوبي متوسلين لأشفع لهم بالتوسط لدى حاكم دارفور، فذهبت إليه محتجاً ومعترضاً وقلت له: هذه ليست حكومة ولكنه سلب ونهب وفساد، وما تفعله بالناس هنا سيدمر البلاد وسيهب أهلها عاجلاً أم آجلاً ويقفون ضدك. عندما وردت سيدي الخديوي برقيتك التي أمرتني فيها بعدم التعرض لسياسات إسماعيل باشا أيوب ومعارضتها، علمت أنه من أوغر صدرك ضدي بالأكاذيب، ولكن الحقائق يا سيدي أن أيوب لم يصخ إلى قولي ولم يعمل بنصحي ولم يستمع لصوت العقل، ولم تكن لديه شفقة أو عطف لمن هم بحاجة إليه، ولم يشأ أن يغرس البذرة ويزرع بأناةٍ وصبرٍ، بل أراد أن يكتنز كل المحاصيل ويكنسها كنساً ويذهب بها، فدمر البلاد من أجل أن يحقق لنفسه الثراء. وأقول لك يا سيدي الخديوي إنه يجب الانتباه للحكام الذين تبتعثونهم لحكم أقاليم السودان المختلفة، إذ يجب أن يكونوا طيبين وشرفاء، فقد رأينا حكاماً يأتون فقراء ويعودون أغنياء، وكل من جاء جائعاً حل مكان من كان نصف قانع وراضٍ بحاله، ولن يكون والحال هكذا يا سيدي الخديوي سهلاً الاحتفاظ بالسودان وحتماً ستفقدونه).

(٢١)

نقعٌ كثيفٌ تثيره الحوافر والأخفاف وأصوات أبواق ونحاس، وأصوات رجالٍ ونساءَ، ومشاهد ذبحٍ ونحرٍ أخرجت الزبير باشا من خواطره ولقائه المتخيل بخديوي مصر، وأنبأت بوصوله للخرطوم. وبعد احتفاء الناس وأكابرهم به وتهنئته بسلامة الوصول، اتجه ركب الزبير باشا شمالاً متوقفاً بسراياه التي بناها بمنطقة السقاي وقريته الجيلي، حيث كان استقباله يجل عن الوصف، ارتفعت الرايات وتعالى صوت النحاس وابتسامة واهنة تشق طريقها من جوف والدته شمة وتحط بهدوءٍ على وجهها وقد كانت تعاني حمل المرض وحمل السنوات فوق أكتافها، وقالت له بصوتٍ واهنٍ:
- حباب ولدي حدباي، حبابك وحباب اليوم الجابك، يا ملك يا سلطان السلاطين، تعال لي جاي بدور أشم ريحتك بدور أودعك، قالوا لي مسافر لي مصر.

صمت الزبير باشا وتهدجت أنفاسه وهو بين أحضانها التي لم تعد قوية وقادرة على ضمه أكثر، فسأل الله أن يطيل عمرها ويعود وهي على قيد الحياة، ولكن الله اختارها إلى جواره وهو في مصر، فبكاها مُرَّ البكاء.

برفقٍ تخلّص من أحضانها ونظر إلى ذلك الرجل الذي كان يستعين بعصاه، وبدا ظهره محدودباً أكثر، إنه والده رحمة، فانكب يقبل جبينه ويديه ثم يودعه وداعاً مؤثراً، ولم يكن يدري أن هذا هو الوداع الأخير لأب فاضل قاده في دروب

العلـم والمجـد، وهـا هـو شـقيقه بطـران الـذي آثـر أن يبقـى في الشـمال ليحافـظ ويرعـى الأسرة وثـروة شـقيقه الزبـير باشـا ومخـازن أسـلحته، فقـال لـه الزبـير باشـا وهـو يودعـه:

- ابقَ عشرة على العَقَاب يا بطران.

عندمـا بـدأت خطـوات الزبـير باشـا تتجـه نحـو ركبـه المسـافر، قالـت والدتـه لبنتيهـا فاطمـة وعائشـة:

- قبـال مـا تودعـوا الباشـا شـيلو الـتراب مـن تحـت قدميـه مـن أتـرو عشـان يعـود لينـا بالسـلامة..!

الركـب يتجـه أكثـر نحـو الشـمال والزبـير باشـا ينظـر مـن البعـد إلى مسـقط رأسـه قريـة واوسي، وتنسـاب إليـه ذكريـات الطفولـة الباكـرة، ثـم يتوغـل الركـب أكثـر في ديـار الجعليـة وتبـدأ المواكـب تحفـه كوكبـاً كوكبـاً، وتودعـه صفـاً صفـاً، حتـى أدرك مدينـة بربـر التـي خرجـت عـن بكـرة أبيهـا لاسـتقباله ثـم وداعـه ليصـل إلى أبي حمـد، ويتجـه شـاقاً بـلاد الشـايقية فرحبـوا بـه وهـو يقـول لهـم: (انتـو مـا أولاد عمنـا)

(٢٢)

في العاشر من يونيو من عام ١٨٧٥م، حطَّ ركب الزبير باشا في أرض النوبة المصرية بطريق قرية كورسكو، ثم تجاوزها إلى أن بلغ هدفه بالقاهرة مدينة الجيزة، حيث انتهت هذه الرحلة التاريخية التي خلدتها شاعرته بت مسيمس حينما قالت:

في الخرطوم نزل ادلى بالبابور**وفي بربر رسا بالقهوة غفرو يدور
جابولو الجمال اتوجه العتمور**حلق الريف نزل قال لي مصر دستور
في بلد النصارى كم سحت بالبابور**كل صبح جديد راكب على الحنتور
من قومة الجهل إنتا المن قديم منصور**أدوك الأمان خايفين عليك الجور
في السودان قبيل ما بشبهوك الناس**ويا جبل الدهب الصافي ماك نحاس
بارود النصارى عن قمزة الكباس**خليت المجوس ألين من القرطاس
عدا عصرو زين في ديار بلاد الناس**وفي دار الغروب دقيت للرجال أساس
كم كتل سلاطين خلى ديارا يباس**ود رحمة الزبير تم الرجالة خلاس

كانت نفس الزبير باشا وفطرته الطبيعية ميَّالة للتحضُّر، ولهذا عمل ما في وسعه لنشر الحضارة والتمدين في المناطق التي آلت إليه في جنوب وغرب السودان، وعندما رأى القاهرة للمرة الأولى وهو يحط فيها بعد رحلته التاريخية، انبهر بمظاهر الحداثة والعمران فيها، وحشدته الأماني لينعم السودان بمثل هذا التطور على يده أو يد غيره. راعه جمال القاهرة تلفتاً وتحيراً، فقد كانت القاهرة آخذة بأسباب التقدم، شوارعها مضيئة بالغاز، ومياه الشرب العذبة تنتقل بالأنابيب إلى المباني والمساكن، فانزوى السقَّاءون للمقعد الخلفي. الميادين خضراء

والشـوارع فسـيحة، وقصـورٌ ومبـانٍ وجسـور تطـل عـلى النيـل، وحدائـق متناثـرة غنيـة بالأشـجار والنخيـل والنباتـات النـادرة. شـعر الزبـير باشـا بـأن كل هـذا الجـمال يرحـب بـه، وسـعد كثـيراً وهـو يضـع قدمـه في باحـة قـصر الجيـزة لمقابلـة خديـوي مـصر وتحيتـه يـداً بيـدٍ للمـرة الأولى. كان بالقـصر قاعـات وصالونـات تتميـز بألوانهـا الزاهيـة المختلفـة، ومفارشـها الفخيمـة، وسـقوفها التـي تضيئهـا الشـمعدانات الكبـيرة كبـدور عـلى صـدر السـماء. القـصر يحـوي مسرحـاً بمقاعـد ذات لـون ذهبـي، وكثـيراً مـن الأجنحـة والتحـف البديعـة ذات الثـراء التاريخـي البـاذخ. هنـاك أسـلحة عتيقـة نُسِّـقت بنظـام، فبـدت كمعـرض أخـذ لـب الزبـير، وهنـاك في ركـن غـير قـصي في باحـة مـن باحـات القـصر، يقبـع متحـف مقتنيـات أسرة محمـد عـلي باشـا، مـن أدواتٍ وأوانٍ مـن الفضـة والكرسـتال والبلـور الملـون وغـير ذلـك مـن التحـف النـادرة.

بـدا خديـوي مـصر إسـماعيل باشـا وهـو يسـتقبل الزبـير باشـا بحفـاوةٍ وقامـةٍ أقـرب للقِـصر، وجسـد أقـرب للامتـلاء والبدانـة. وجهـه الدائـري تلـف حولـه ذقـن زاحفـة بجـوار أذنيـه وتصـل شـعر رأسـه في تهذيـبٍ وتنسـيقٍ، وتمتـد أسـفل فكـه وتعلـو ملتحمـة بشـاربه الـذي يغطـي شـفته العليـا. طربـوش أحمـر أنيـق يرتـاح فـوق رأسـه، تحتـه عينـان ذكيتـان ووجـه وسـيم. البِذلـة الإفرنجيـة السـوداء المتدليـة إلى ركبتيـه تظهـر تحتهـا قميصـاً ناصـع البيـاض، مذهـب الأزرار، مجمـلاً بربطـة عنـق أنيقـة بالـكاد تطـل مـن تحـت بِذلتـه التـي تزينهـا نياشـين كبـيرة تحتـل جانـب صـدره الأيـسر. اللـواء الزبـير باشـا حاكـم شـكا وبحـر الغـزال بقامتـه المديـدة، ولباسـه الرسـمي المرصـع بالشـارات ورتبـة اللـواء، يتقـدم نحـو خديـوي مـصر الـذي مـدَّ لـه يـده مبتسـماً وهزَّهـا في مـودةٍ وهـو يقـول لـه: أهـلاً بسـعادة الحاكـم الزبـير باشـا في مـصر، مرحبـاً بـك وتهانينـا لكـم بسـلامة وصولكـم وقدومكـم إلينـا.
- شرف أن ألتقيك سيدي الخديوي أنا سعيد حقاً بهذا اللقاء.

- وأنا سعيد بزيارتك فأنت رجل تستحق احترامنا وتقديرنا.

- أنا سعيد لأنني أخدم الدولة الإسلامية.

كان اللقـاء ودوداً تعـددت فيـه الابتسـامات والضحـكات، وانتهـى بتقديم الزبـير باشـا هديتـه الفخمـة للخديـوي الـذي سـعد بهـا غايـة السـعادة، وأمـر بإنزالـه بقـصر الزعفـران بالعباسـية هـو وعائلتـه وأتباعـه، وترتيـب كل مـا يحتاجـون إليـه لتفـترق الخُطـى عـلى أمـل لقـاءٍ قريـبٍ.

(٢٤)

مكث الزبير باشا بقصر الزعفران زهاء الثلاثة أسابيع لا يشغله شيءٌ سوى التفكير في أمر بلاده، آملاً صدور الإشارة للقائه الرسمي الثاني بخديوي مصر، ليضع أمامه الرؤى والحقائق، فيصيب الهدف الذي من أجله سعى بهذه الزيارة. كان القلق ينتابه من حينٍ إلى آخر، وهو في انتظار تلك الإشارة. قلقٌ لم تكن تقطعه تلك الحفاوة الترحيبية البالغة من كبار رجال مصر ووزرائها. عندما وردت الإشارة تحمل في طياتها دعوة الخديوي إلى لقائه بقصر الجيزة، زال قلقه وخفق قلبه، وسارع في تلبية الدعوة محتقباً آماله وأمانيه ورؤاه الإصلاحية. وكعادته كان الخديوي إسماعيل ودوداً معه وكريماً على نحوٍ لا يُصدق. يجد الزبير باشا صعوبة في طرح كل ما لديه على الخديوي الذي كان يستمعُ إليه بطريقة جيدة. أخيراً قال له الزبير باشا:

- كل الأمر الآن بين يديك سيدي الخديوي، ونحن بانتظار رأيكم وأوامركم السنية. رد عليه الخديوي قائلاً:

- قطعاً سأفعل ما فيه الخير للبلاد والعباد، وأشكرك على وضوحك ورؤاك الصائبة، غير أنّ ما ذكرته لك سابقاً في برقيتي بشأن تشكيل حكمدارية تكون مفوضة بك وتحت إدارتك، يلزمه بعض الوقت لإصدار الفرمانات المناسبة، وهذا لا يمنع أن تستعد للسفر قريباً إلى السودان. بعد أحاديث متفرقة بينهما ودع الخديوي ضيفه الزبير بذات الحميمية والمودة التي استقبله بها، فخرج من قصر الجيزة وهو في غاية السعادة، وهذا ما لاحظته حاشيته وأتباعه بقصر الزعفران مقر إقامته بالعباسية، الذين تربو أعدادهم على ثلاثمئة شخص من

شمـاليين وجنوبيـين.

لم يخـفِ الزبـير باشـا سـعادته عـن زوجتـه السـيدة زينـب بنـت منصـور التـي رافقتـه إلى مـصر، بعـد أن انضمـت للرحلـة مـن الجيـلي، فقالـت لـه:

- إن شاء الله دائماً فرحان ومنصور يا باشا.

فقال:

- لقـد سـمعني الخديـوي جيـداً وأثنـى عـليَّ ووصفنـي بالرجـل المؤمـن، وأسـأل الله أن يمتـد بي العمـر لتقديـم المزيـد مـن الخدمـة للإسـلام والسـودان.

بعفويتها وبساطتها سألته:

- أهـا مـا كلمـك عـن الهديـة الجبتهـا ليهـو، إن شـاء الله يكـون مبسـوط منهـا؟

فرد عليها قائلاً:

- أبـدى لي سـموه سـعادته بهديتـي لـه، وإن قـال لي إن أعظـم هدايـاك هـي تلـك الرقعـة الواسـعة التـي ضممتهـا للدولـة الإسـلامية والتـي تعـادل مسـاحة دولـة فرنسـا أو أكثـر.

أخـذ الزهـو يغـزو كيـان السـيدة زينـب بنـت منصـور غـير أنهـا تذكـرت شـيئاً فسـألته:

- إنتا يا أبو ميسرة الألف نفر الجبتهم للخديوي ديل عبيد؟

ابتسم الزبير باشا وقال لها:

- بتعرفيني يا زينب زولاً بخاف ربي، أنا ما تاجر رقيق والألف نفر ديل من جنودي الذين أحبهم ويحبونني وبينهم خمسة وسبعون من أبناء ملوك وزعماء المناطق التي فتحتها، إنهم هنا دعم مني لحماية الدولة الإسلامية، لم آتِ بهم قسراً ولم أضعهم في الأغلال، كما فعل إسماعيل باشا أيوب، هم بكامل أسلحتهم وأزيائهم العسكرية، فضلاً عن هذا أريد أن أمنحهم فرصة لن تواتيهم أبداً لمشاهدة التقدم والتمدن هنا في مصر، ولن أسمح بمعاملتهم معاملة الرقيق.

(٢٥)

عندمـا كان الزبـير باشـا يسـتعد للعـودة إلى السـودان بحاشـيته ومرافقيـه الكُثـر، كان عليـه إنجـاز العديـد مـن الأعـمال وتلبيـة الكثـير مـن الدعـوات، وكانـت أحاسـيس التاجـر تعتمـلُ في دواخلـه، لـذا أقـدم عـلى شراء سـفينتين بمبلـغ ضخـم، ومـلأ هاتـين السـفينتين بشـتى أنـواع البضائـع، ولمـا فـرغ الزبـير مـن كل ذلـك وصـار مسـتعداً للسـفر، أخـذ ينتظـر الإذن لـه بالسـفر، غـير أن انتظـاره طـال وامتـد لخمسـة أشـهرٍ كاملـة، كان خلالهـا يلتقـي بالخديـوي في المناسـبات العامـة ويتحدثـان حديثـاً لطيفـاً حـول الشـأن العـام، وعندمـا يسـأله الإذن بالمقابلـة والسـفر ومناقشـة مـا تـم التصريـح بـه في شـأن السـودان ودارفـور، كان سـؤاله يُقابـل بالمماطلـة والتسـويف.

أخـيراً وبعـد كل تلـك المـدة أذن الخديـوي للزبـير باشـا بمقابلتـه، وقـال لـه بـكل صراحـة ووضـوح: لا لـزوم ولا فائـدة لأن نتحـدث معـاً أبـداً، فأنـا أعـرف أنـك رجـلٌ مقتـدر وأنـا واثـق مـن أنـك سـتحكم دارفـور حكـماً جيـداً، ولكنـي وبـكل صراحـة أنـا خائـفٌ منـك.! فقـد جعلـت نفسـك قويـاً جـداً، وإني لأخشـى إذا أعطيتـك السـلطة التـي تريـد أن تؤسـس إمبراطوريـة في دارفـور تنافـس بهـا، بـل ربـما تخضـع لهـا مـصر ذاتهـا، فمـصر ليسـت قويـة للحـد الـذي تحتمـل معـه وجـود جـيران لهـم مثـل مـا لـك مـن قـوة، ولذلـك عليـك أن توطـن نفسـك عـلى أن تعيـش معـي هنـا في القاهـرة، وسـأكفل لـك معاملـة كريمـة حسـنة، وسـتكون لـك الحريـة الكاملـة المطلقـة، فقـط لن يسـمح لك بالعـودة إلى السـودان

مـرةً أُخـرى..!

كلـمات الخديـوي كان لهـا وقـع الصاعقـة عـلى رأس الزبـير باشـا، رغـم مـا كان يتوقعـه وهـو في دارفـور قبـل أن تبـدأ رحلتـه إلى مصر التـي حـاول أعوانـه منعـه منهـا، مـن أنـه قـد لا يعـود للسـودان، ولكـن احترامـه لكلمتـه وشرف نفسـه حـالا دون أن يسـمع منهـم ذلـك، وهاهـم الآن يجولـون بخاطـره تجـوالاً مؤثـراً تصحبهـم رؤيـة مؤرقـة تقـول لـه: لـن تعـود لـترى مـسرح مجاهداتـك بعـد اليـوم، لـن تـرى الصحـاب ورفقـاء السـلاح والتجـار، لـن تـرى شـعبك الـذي أحببتـه وأحبـك، وأهلـك وعشـيرتك وأرض فطامـك ومـاضي شـبابك ومثـوى أحبتـك، ورحمـة وشـمة وبطـران وفاطمـة وعائشـة وتاجـك وقصـورك وأمـلاكك. فـيرد الزبـير باشـا عـلى تلـك الرؤيـة: قـدَّر الله ومـا شـاء فعـل.

رغـم طبيعتـه البسـيطة وسـليقته العربيـة الواضحـة، وعقيدتـه الإسـلامية الراسـخة، والـولاء الـذي قطعـه عـلى نفسـه للدولـة الإسـلامية، أدرك الزبـير باشـا أنّ السياسـة حيـل ومنـاورات ودسـائس، وأن ظاهـر مـا كان يقـال لـه اسـتبان باطنـه، وأن عقليتـه الإسـلامية السـودانية تتقاطـع كثـيراً مـع العقليـة التركيـة المصريـة، ولكنـه سـيظل عـلى عهـده في الـولاء والطاعـة للدولـة العثمانيـة الإسـلامية.

(٢٦)

كانت عينا الخديوي مثبتتين على الأرض إثر إطراقة خجولة، وعندما تخلّص منها واجهتا وجهاً صلداً ونفساً مؤمنةً وشفتين تقولان له:
- أمرك يا مولاي.

صمتٌ كالظلام حطَّ عليهما، ومشاعر لا توصف من الأسى أطبقتْ بهما، واستدارة كاستدارة الجبل تنتظم خُطى الزبير باشا تشده إلى الخروج من قصر الجيزة، والخديوي ينظر فيرى فوق ظهر مُغادِره حدبةً كالصخرة فيقول:
- زبير باشا لا تحزن، فلا تزال باشا ولن توضع في سجن أو معتقل، ستبقى في قصري ضيفاً عزيزاً مكرماً مع من معك من حاشية وأهل، وستجري لك ولهم المرتبات، وستصحبك الرفقة الأنيسة وتوضع أمام قصرك الحناتير، أنت حر في القاهرة وفي كل مصر. لن تكون محجوراً عن الذهاب في أنحائها أو الظهور في حفلاتنا ومهرجاناتنا، وسأحرص بنفسي أن تصلك الدعوات لها.

قال له الزبير باشا: شكراً يا مولاي، وعاد إلى استدارته دون أن يلحظ نهوض الخديوي، وسار إلى خارج القصر ودوائر سوداء قاتمة تسير أمامه وتوصله إلى قصر الزعفران في العباسية. وفيها لاحظت زوجته زينب بنت منصور ما عليه من أسًى، فسألته فأجابها، فحاولت التخفيف عنه، ولكنه فاجأها بنومٍ لا قلق فيه ولا اضطراب.

(٢٧)

لم يكـن مـن السـهل أن يغيـب أمـر اسـتبقاء الزبـير باشـا في مـصر بـالإرادة السـنية على حاشـية ومرافقـي الزبير باشـا، الذيـن أغضبهم الأمـر، فـكان لهـم أمـر آخـر دبـروه بليـلٍ، وأخـذوا تفاصيلـه للزبير باشـا، فتحـدث بـه إليـه عبـد الله أبـاروً مـن طاقـم إدارتـه قائـلاً:
- عندمـا جئنـا يـا سـيدي الباشـا إلى هنـا واسـتقبلوك بقذائـف المدافـع، باعتبـارك مـن الغـزاة الفاتحـين، لم يخطـر عـلى بالنـا أن يصـدروا أمـراً بحجـزك في القاهـرة، كنـا نترقـب أن يبنـوا لـك تمثـالاً يُزاحِـمُ السـحبَ، فالأمـر يـا سـيدي سـاءنا وأحبطنـا.

بـدا الزبـير باشـا هادئـاً وهـو ينظـر إلى أبـارو ويقـول لـه:
- ابنـي عبـد الله مـا عسـانا أن نفعـل حيـال الإرادة السـنية، غـير أن نعيـد لهـا طلباتنـا بالسـماح لنـا بالعـودة إلى السـودان؟
- لا يـا سـيدي، إنهـم لـن يسـمحوا لـك بالعـودة، هـم خائفـون منـك، وأرجـو أن تحقـق مخاوفهـم وأن تعود للسـودان وتحتلـه جميعاً.
ابتسـم الزبـير باشـا وقـال:
- كيـف أنـزع مـن دولـة الإسـلام السـودان وقـد قضيـت فيـه سـنواتٍ طويلـةً وأنـا أجاهـد مـن أجـل ضـم رقـاع جديـدة لـه، وفي سـبيل ذلـك صافحـت المـوت عـدة مـرات، ثـم قـل لي كيـف أعـود للسـودان دون إذن معـالي الخديـوي؟
- دبرنـا الأمـر يـا سـيدي، فأنـت حـر في مـصر ولم يضعـوا عـلى أعضائـك الأغـلال، بـل وضعـوك في قـصر تنـام فيـه عـلى وسـائد ريـش النعـام، ومـأذونٌ لـك بالتحـرك في جميـع أنحـاء مـصر، عليـه فقـد تخيَّرنا أقـوى الإبل لتقلـك سراً عن طريـق صحـراء العتمور إلى

السودان، وسيهب السودان أجمعه لاستقبالك استقبال الفاتحين.
مسحة من الغضب رانت على وجه الزبير باشا وهو يسأل أبارو:

- كم معركة شهدتها معي؟

- الكثير منها يا سيدي.

- هل رأيتني أهرب؟

- أبداً سيدي.

- إذن لماذا تعرضون الهرب عليَّ الآن؟

- الأمر يختلف الآن يا سيدي.

- لا، إنها كلها معارك..!

قبل أن يعلّق أبارو على ما قاله الزبير وهو يمثل المجموعة التي تريد أن تزين له الهروب إلى السودان قال لهم:
- أرجو أن تسمعوني جيداً، أنا لستُ بالأناني ولا بالرجل المتطلع الطموح، وإن كل ما أريده هو أن ألتزم الصدق أبداً، وأن أقوم بأداء العمل الطيب، وأن أفعل الخير وأحرص كل الحرص على اسمي وسمعتي، وأعلم أنني لستُ محتجزاً أو مصفداً بالأغلال أو موضوعاً خلف أو داخل أسوار القضبان الحديدية، أو مُحاطاً بالحراس، وإنه لمن السهل أن أغادر مصر التي منعوني من مغادرتها، وأن أهرب منها ولكن هذا خطأ،

فلو هربت للطخت ومرغت اسمي وشرفي وسمعتي وكرامتي في الوحل، هي أشياء أحرص أن أحتفظ بها طاهرة نقية ونظيفة إلى النهاية، وإلى الأبد حتى يقال عني فيما بعد، لقد عاش الزبير باشا رجلاً حتى مات.

(٢٨)

بعد رفضه للهرب التفت الزبير باشا إلى معركة إقناع الخديوي ليعود إلى السودان، غير أن الخديوي إسماعيل كان يبقيه في مصر بأعذار مختلفة، آخرها انشغال الدولة الإسلامية العثمانية بالحرب ضد روسيا، فأظهر الزبير باشا أسًى، وسأل الله أن يديم عز الدولة الإسلامية، وأن يبعد عنها شر أعدائها، خاصة الروس، الذين دخلوا في سلسلة من الحروب ضد الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر، لأطماعهم في غزو أراضي خانية القرم العثمانية، ولرغبتهم في السيطرة على البحر الأسود وممراته؛ البوسفور والدردنيل، نحو مياه المتوسط الدافئة، وبحلول عام ١٨٧٧م قادت الإمبراطورية الروسية قوات التحالف الأرثوذكسي الشرقي المتآلف من العديد من دول البلقان التي تصاعدت فيها الروح القومية تحملها الرغبة في استرداد الأراضي التي خسرتها أثناء حرب القرم، لتعيد نفسها للبحر الأسود ليدور القتال في البلقان والقوقاز.

ويعود الزبير باشا إلى قصره في العباسية تحمله أرجل الأسى، وفي الصباح كانت تقف أمام قصره مجموعة من العربات التي تجرها الخيول الملكية، وتعتليها مجموعة من أفراد القوات المسلحة يقودهم الأمير حسن باشا في زيارة مفاجئة للزبير باشا. لا شك أنه ضيفٌ كبير على الزبير باشا، ولكن ما الذي أتى به بكل هذه التشريفات؟ استقبله الزبير باشا في قصره وقال له:
ـ مرحباً بسمو الأمير الفريق حسن باشا. أنا جد سعيدٌ بهذه الزيارة، وإنه لشرف عظيم أن تزورني في داري.

ـ أنـا أيضـاً سـعيد بزيـارة اللـواء الزبـير باشـا.
ـ أرجو أن يكون والدك مولانا الخديوي إسماعيل باشا بخير.

ـ هو بخير وهو من أشار لي بزيارتك.

استـبشر كل مـن كان في قـصر الزبـير باشـا مـن حاشـية ومرافقـين بهـذه الزيـارة، التـي قـدَّم خلالهـا الأمـير حسـن للزبـير باشـا سـيفاً فضيـاً براقـاً وهـو يقـول لـه:
ـ هـذه هديـة والـدي مولانـا الخديـوي لسـعادتك اللـواء الزبـير باشـا.

بـدأت الآمـال ترفـرف والأحـلام تصـير أجمـل، والـكل يتـوق أن يكـون الأمـير حسـن باشـا يحمـل للزبـير باشـا مـع ذلـك السـيف إذنـاً لـه بالعـودة إلى السـودان، وفرمانـاً بتعيينـه حاكـماً عـلى دارفـور مـع بـلاد شـكا وبحـر الغـزال، البـلاد التـي بـذل مـن أجـل ضمهـا للدولـة العثمانيـة كل مُرتخـصٍ وغـالٍ، غـير أنّ الأمـر لم يكـن كذلك أبـداً.

(٢٩)

حكمـة الزبـير باشـا وحصافتـه أملتـا عليـه عـدم سـؤال الأمـير حسـن عـن سـبب زيارتـه المفاجئـة، رغـم أنـه كان يُمني نفسـه أن يكـون السـبب مـن وراء هـذه الزيـارة هـو إذن الخديـوي بعودتـه حاكـماً إلى السـودان، وبـدلاً مـن ذلـك جـرت أحاديـث الزبـير باشـا مـع الأمـير حسـن عـن حُسـن الضيافـة وامتنانـه لهدايـا الخديـوي إسـماعيل لـه، وأخـيراً أفصـح الأمـير حسـن عـن سـبب زيارتـه قائـلاً للزبـير:

- سـبق يـا فخامـة اللـواء أن قلـت لـك إن هـذه الزيـارة أشـار بي عليهـا والـدي الخديـوي، وقـد تعلـم يـا باشـا أن الجيـش العثـماني الإسـلامي في تركيـا والبلقـان بقيـادة السـردار محمـد عـلي يعـاني هجومـاً ضاريـاً وحربـاً شـعواء مـن جيـش الإمبراطوريـة الروسـية وأعوانهـا، لهـذا عهـد والـدي إليَّ قيـادة حملـة تتكـون مـن اثنـي عـشر ألفـاً للحـرب هنـاك، وقـد تـم ترشـيحك لقيـادة فرقـة تتكـون مـن أربعـة آلاف مقاتـل ضمـن حملتنـا ونرجـو موافقتـك.

صمـت الزبـير باشـا وجالـت بخاطـره مشـاهد حسـب أنـه قـد نسـيها، مشـاهد الحـرب والقتـال وصليـل السـيوف وزخـات الرصـاص وطعـم النـصر، وعندمـا تخلَّـص مـن صمتـه تخلَّـص الأمـير مـن قلقـه وترقبـه. قـال لـه الزبـير:

- هـذا الأمـر يسـعدني، فمدافعتـي عـن الإسـلام وأرض المسـلمين ليسـت محـل رجـاء، فانقـل لمعـالي الخديـوي موافقتـي، فقـط سـأصحب معـي جنـود البازنقـر الألـف الذيـن صحبتهـم

معـي إلى جلالتـه عنـد قدومـي إلى هنـا، إنهـم جنـود أوفيـاء متدربـون عـلى القتـال، بارعـون فيـه، ومُطيعـون لأوامـري.
ـ لك ذلك يا زبير، ولك امتناني وشكري.

خـرج الأمـير تشـيّعه كلـمات الزبـير المودعـة، واختفـى موكبـه مـن أمـام قـصر الزعفـران بالعباسـية، لتلتـف حاشـية وأهـل الزبـير باشـا حولـه يدفعهـم الأمـل وحـب الاسـتطلاع، فعرفـوا مـا جـرى، وأن الزبـير باشـا سـيعود محاربـاً، ولكـن ليـس في السـودان سـيعبر المتوسـط إلى بـلاد تنهمـرُ فوقهـا الثلـوج وينهمـر فيهـا الرصـاص. قالـت لـه زوجتـه زينـب بـت منصـور:
ـ سـجمي يـا الباشـا إنتـا مـاشي تحـارب الـروس في بـلاد العُجُـم أم بـرداً بكتـل..؟!

ـ إتي ماك عارفه الكتال ما بهمني؟

ـ والله إنتـا قـدرو وأكـتر، عـاد بترجـاك في القـصر ده لامـن تعـود بـإذن الله.

ـ لا لا يـا زينـب، إنتـي تسـوقي معـاك عيالـك وبتـين رامبـوه وتمـشي السـودان، إمكـن ربنـا كاتـب لي مـا أستشـهد ويسـمحوا لي وأجيكـم هنا ك .

ـ كلامـك مـا فيهـو تعقيـب يـا الباشـا أبـو الحـارث، وبنـات رامبـوه زي بنـاتي ربنـا يرحـم أُمَّهِـنْ.

(٣٠)

هكـذا شـاءت الأقـدار أن يسـطعَ نجـم الزبـير باشـا مـن جديـد وهـو يعتـلي السـفينة التـي مخـرت بـه عُبـاب البحـر الأبيـض وثبجـه العـالي، واقفـاً فيهـا كالصـاري، قائـداً لأربعـة آلاف مقاتـل، وعندمـا حـط بجيشـه بـأرض البلقـان كانـت معركـة مدينـة (صـارى نصـو حلـر) بـين الجيـش العثـماني والجيـش الـروسي عـلى وشـك الوقـوع، وتأهـب الجيـش العثـماني تحـت قيـادة الـسردار محمـد عـلي باشـا لمنازلـة الجيـش الـروسي تحـت قيـادة البرنـس الكسـندر ولي عهـد قيـصر روسـيا، ولكـن البرنـس الكسـندر كان قـد اتخـذ لـه تحصينـات منيعـة في تلـك المدينـة.

رأى قائـد الجيـش العثـماني أنـه لا يمكـن النيـل مـن القـوات الروسـية إلا بفتـح ثغـرة في حصـون المدينـة، ليتدفق الجيـش العثماني خـلال الجيـش الـروسي. فقـال الزبـير: أنـا لهـا. كانـت خطـوط العـدو وتحصيناتـه منيعـة وأقـوى أكثـر ممـا كان يتصـوره الزبـير أو غـيره، فحـاول الزبـير بفرقتـه أن ينـال مـن هـذه التحصينـات بالهجـوم عليهـا بالمواجهـة رغـم عنفهـا، إلا أنـه لم يسـتطع، فعـاد إلى معسـكره يشـغله التفكـير ولا يـزوره النـوم، ويقلقـه تصميمـه عـلى النـصر، وقبـل الفجـر واتتـه الفكـرة الجهنميـة، فوجـه قواتـه بالاسـتعداد وأن ينفـذوا مـا يأمرهـم بـه بدقـةٍ متناهيـةٍ.

في الفجـر فوجـئ الأعـداء والنـوم يداعـب أجفانهـم برجـال الزبـير وهـم يدفعـون أمامهـم حشـوداً مـن الخيـل، كان الزبـير قـد أمـر بـأن يوضـع فـوق صهواتهـا القـش، وأن تـضرم فيـه النـار،

فلما أحست الخيل بالنار فوق ظهورها مضت تعدو وتثب وتصهل ورجال الزبير من خلفها يوجهونها نحو صفوف الأعداء ويهتفون هتافات داوية، فما لبث الهرج والمرج أن وقع بين الأعداء الروس ومن والاهم جراء هذه المفاجأة الصاعقة، فانتهز الزبير هذه الفرصة وقذف إلى المعركة بكل قوته محارباً في صفوف قواته، وموجهاً وآمراً لهم، فلم يمضِ قليل من الوقت حتى كان قد زحزح الجيش الروسي عن مواقعه وفتح الثغرة المنشودة في صفوفهم، فلم يلبث الجيش العثماني أن تدفق من خلالها واحتدمت المعركة، واستمر القتال إلى ما بعد منتصف الليل، وانتهت المعركة بانتصار الجيش العثماني بفضل شجاعة ودهاء الزبير باشا.

وعندما انطلقت الألعاب النارية صوب السماء في صبيحة يوم الانتصار والزنقران يعزفون أناشيد النصر والجنود تحمحم حلوقهم بالجلالات التي طالما اشتاقوا إليها، جاء الأمير حسن باشا الابن الثالث للخديوي إسماعيل وقائد الحملة المصرية يزور الزبير في معسكره والثلوج تتساقط على الرؤوس، وهو يسقط بين أحضان الزبير ويعانقه ويقبِّله، ثم يشد على يده مصافحاً بقوةٍ ويقول له:

– لم أكن أصدق كل ما كان يقال عن شجاعتك ودهائك في القتال في ربوع السودان، ولكنني بعد أن رأيتك بالأمس وأنت كلما سقط من تحتك جواد تستبدل به غيره ثم تمضي متقدماً الصفوف، آمنت أن ما يقال عنك إنما هو في الواقع شيء قليل بالقياس لما أنت عليه، كنت أظنُّك بما تملك من عقلية عسكرية فذة، أنك درست في أعتى الكليات الحربية بالعالم، وما ظننت أن خبرتك في القتال في ربوع السودان قد أكسبتك

هـذه العقليـة، وهـذا الدهـاء العسـكري غـير المسـبوق، جنـودك الآن يعزفـون أجمـل ألحـان النـصر، الشـكر لـك يـا فخامـة اللـواء الزبـير باشـا.

فرد عليه الزبير قائلاً:

- لا تشـكرني يـا سـمو الأمـير عـلى واجـب يتحتـم أداؤه، إنـما نحن نحـارب مـن أجـل حمايـة عقيدتنـا وصـون إسـلامنا، فهـل هنالـك واجـب أدعـى مـن هـذا؟ نعـم سـمو الأمـير كسـبنا معركـة مهمـة ولكنـا لم نكسـب الحـرب بعـد، وإن شـاء الله يكـون النـصر حليفنـا ضـد أعـداء المسـلمين مـن الـروس وأتباعهـم، وسـأظل جنديـاً مخلصاً مـن أجـل الإسـلام، وسـأظل أحمـل الرايـة أو أسـقط دونها.

(٣١)

بقـي الزبـير باشـا يـذود عـن حيـاض المسـلمين في تلـك الأصقـاع النائيـة لا عزمـه وَهِـيَ، ولا يـده كلَّـت، ولا سـيفه نبـا. غـير أن طبيعـة تلـك البـلاد ذات الأجـواء البـاردة والموجـات الثلجيـة القاسـية أوقعتـه فريسـة للمـرض، فحـاول أن يتحامـل عـلى نفسـه ليبقـى دائـماً بفرقتـه في طليعـة المهاجمـين، ولكـن حالتـه الصحيـة سـاءت للحـد الـذي فـرض عـلى القيـادة إعفـاءه مـن التقـدم وإرسـاله إلى المستشـفى بالأسـتانة للعـلاج، حيـث بقـي هنـاك إلى أن تماثـل للشـفاء، فعلمـت عائـلات تركيـة كـبرى أن البطـل الزبـير باشـا في المستشـفى، فقادهـم الإعجـاب بـه لزيارتـه لتطـل عليـه إحداهـن وقـد تملكهـا الإعجـاب بالزبـير باشـا، وقـررت أن ترتبـط بـه ارتباطـاً أبديـاً، فتزوجهـا وسـط فرحـة أهلهـا ورفاقـه، وكان السـلطان عبـد الحميـد سـلطان الدولـة الإسـلامية العثمانيـة قـد وصلتـه أخبـار بطولـة الزبـير باشـا وحُسـن بلائـه في معركـة (صـارى نصـو حلـر)، فأمـر (يـاوره) بالسـهر عـلى راحتـه طيلـة مـدة إقامتـه في الأسـتانة، وأتبـع أمـره أن يقيـم الزبـير باشـا في أحـد قصـوره المطلـة عـلى خليـج البوسـفور..!

بقـي الزبـير باشـا في أحـد قصـور السـلطان عبـد الحميـد الثـاني المطـل عـلى خليـج البوسـفور مصطحبـاً زوجتـه التركيـة ذات الأصـول الشركسـية، حتـى جـاءه خـبر فـرح لـه كثـيراً، وهـو دعـوة السـلطان عبـد الحميـد الثـاني لزيارتـه. فيـا لـه مـن شرف عظيـم ودعـوة كريمـة. اليـوم سـيزور السـلطان الـذي عـرض عليـه اليهـود أمـوالاً طائلـة مـن أجـل أن يسـمح بتهجيرهـم لأرض

فلسطين الواقعة تحت سلطانه فقال لهم: إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً، فلن أقبل ما تطلبون، إن أرض فلسطين ليست ملكي، إنما هي ملك للأمة الإسلامية، وما حصل عليه المسلمون بدمائهم لا يمكن أن يُباع، وربما إذا تفتت دولتي يوماً يمكنكم أن تحصلوا على فلسطين دون مقابل.

(٣٢)

جاءت عربة فارهة أقلت الزبير باشا من قصره إلى قصر دولما باهتشة، قصر السلطان عبد الحميد الثاني ومقره الإداري لشؤون الدولة الإسلامية العثمانية، وهو قصر يقع في منطقة الباشيك طاش بإستانبول على الساحل الأوروبي من مضيق البوسفور، وكان بمثابة المركز الإداري الرئيسي للإمبراطورية العثمانية منذ عام ١٨٥٦ حتى ١٩٢٢م. وهو قصر يقع على جزء من الشريط الساحلي الذي يمتد من قر كوي وحتى ساري ير بين منطقتي القباطاش والباشيكطاش، وهو موازٍ لمنطقة اسكودار على الساحل الغربي بالمنفذ البحري الممتد من بحر مرمرة وحتى البوغاز ايجي. القصر السلطاني آية في الروعة والجمال، كأنما قد سُرق من الفردوس، واستقبال السلطان عبد الحميد الثاني فيه للواء الزبير باشا كان استقبالاً احتشد بالحفاوة والمودة والإعجاب ببطولته وغيرته على الإسلام والمسلمين.

قال له السلطان عبد الحميد:

– أهلاً بك في دارك وكل ديار المسلمين ديارك، ويشرفنا نسبك ومصاهرتك، فهذا فخرٌ لنا، فخرٌ أن تجري فينا دماء البطولة والشجاعة.

ـ سيدي السلطان أنا فخور وسعيد بلقائك وكرمك وحسن حديثك، أدامك الله عِزّاً للمسلمين وحامي ديارهم.

بعدهـا دارت الأحاديـث بـين الرجلـين، فعـرف السـلطان عبـد الحميـد تفاصيـل دور الزبـير باشـا في السـودان وأعجـب بذلـك كثـيراً.

قبـل أن ينتهـي هـذا اللقـاء التاريخي وقـف السـلطان عبـد الحميـد وقلّـد الزبـير باشـا النيشـان العثـماني الثالـث، وأنعـم عليـه برتبـة الفريـق، فصـار الفريـق الزبـير باشـا أول عـربي وإفريقـي ينـال هـذه الرتبـة العسـكرية الرفيعـة.

بنفـسٍ امتـلأت فخـراً وعِـزّاً وسروراً، عـاد الفريـق الزبـير باشـا إلى مـصر، وتـم اسـتقباله في القاهـرة اسـتقبال القائـد المنتـصر، وفي مقـر إقامتـه بقـصر الزعفـران بالعباسـية بـدأت نفسـه تحدثـه عـن اتسـاع حظوظـه بالفـوز بـإذن الخديـوي إسـماعيل باشـا للسـماح لـه بالعـودة إلى السـودان، غـير أنّ الخديـوي لم يحقـق لـه أملـه وهـو يقـول لـه:

- ابنـك سـليمان ينـوي أن يقـودَ ثـورةً ضدنـا في جنـوب السـودان متعلـلاً بأسرنـا لـك، هنـا أنـت يـا باشـا ضيـف عزيـز علينـا وليـس أسـيرنا.

(٣٣)

الأمـر أقلـق الزبـير باشـا ولم يكـن يـدري أن مـا وصـل للخديـوي كان مجـرد وشـاية خبيثـة، اختلـق تفاصيلهـا المدعـو السـعيد بيـك حسـين الـذي عينـه غـردون مديـراً عـلى شـكا، وكان السـعيد يعمـل لـدى سـليمان بـن الزبـير، وهـو مـن قبيلـة الجميعـاب، فاسـتماله غـردون قبـل أن يعينـه مديـراً عـلى شـكا، فكتـب الزبـير رسـالة لابنـه سـليمان يحثـه فيهـا عـلى طاعـة الحكومـة وعـدم الثورة في وجههـا.

كان البريطانيـون يعـدون الجنـرال غـردون بطـلاً قوميـاً، وجنديـاً تشـبعت حياتـه بـروح العهـد الفيكتـوري. كان نحيفـاً وقـوي البنية الجسـدية، ويملـك طاقـة لا تنضـب، يحـب الحركـة ولا يعـرف الراحـة أو السـكون. رغـم أن البعـض يـراه مجنونـاً، ويظنـه البعـض سـكيراً، ويعتـبره البعـض مهووسـاً دينيـاً، إلا أن نوبـار باشـا أول رئيـس لـوزراء مـصر أُعجـب بـه وعـرض عليـه العمـل في الخدمـة الخديويـة، فوافـق بعـد أن نـال موافقـة الحكومـة البريطانيـة.

في عـام ١٨٧٤م وصـل غـردون إلى القاهـرة وفي ١٨٧٥م، العـام الـذي غـادر فيـه الزبـير باشـا إلى مـصر، وتـم تعيـين غـردون الـذي يصغـر الزبـير باشـا بعامـين حاكـماً عـلى الإسـتوائية، وعندمـا نشـبت الحـرب بـين الدولـة العثمانيـة والإمبراطوريـة الروسـية في عـام ١٨٧٧م، التـي شـارك فيهـا الزبـير باشـا عُـيِّن غـردون حاكـماً عامـاً للسـودان، لتبـدأ خصومتـه لسـليمان الزبـير ووالـده الزبـير باشـا بقصـص أشـبه بالتراجيديـا، وبمؤامـرات ملؤهـا الخِسـة

والغـدر والخيانـة، وكان سـليمان بعـد مغـادرة والـده إلى مـصر قـد قـاد جيوشـه متجهـاً بهـا إلى مدينـة شـكا، حيـث أقـام فيهـا، وبعـد حضـور غـردون إلى دارفـور أرسـل إليـه أمـراً بمقابلتـه وجيشـه في دارفـور، فاسـتجاب سـليمان للأمـر وكان وراء هـذا الأمـر تلـك الوشـاية التـي بثهـا السـعيد بيـك حسـين في أُذني غـردون. بوصـول سـليمان زاره غـردون الـذي كان ينتـوي تفريـق جيـش سـليمان، فأصـدر إليـه أمـراً بذلـك، قبلـه سـليمان مسـتصحباً رسـالة والـده لـه، غـير أن غـردون عـاد وزار سـليمان مـرة أخـرى وطيَّـب خاطره وأنعـم عليـه بالرتبـة الثانيـة مـع لقـب بيـك، وجعلـه مديـراً عـلى بحـر الغـزال..!

(٣٤)

لم تتوقـف وشـايات الحاقديـن، فأشـعلت في نفـس غـردون غضبـاً عـلى سـليمان، فقـد سـعى إليـه إدريـس أبـتر بكذبـة أخـرى، وهـي أن سـليمان يعتـزم الاسـتقلال ببحـر الغـزال، دفعـه لذلـك تحريـض والـده لـه بخطـاب بعـث بـه إليـه مـن مـصر، رغـم أن الخطـاب كان يحمـل معنيًمغايـراً، وفيـه ينصـح الزبـير ابنـه بطاعـة الحكومـة. الغـدر والخيانـة أنسـيا إدريـس أبـتر وهـو يسـعى بفتنتـه أن الزبـير والـد سـليمان هـو مـن أنقـذه عندمـا كان يرسـف في أغلالـه عبـداً أسـيراً في قافلـة مـن قوافـل البـلالي، وهـو مـن اختـاره ليكـون وكيـلاً لـه في مندقبـا عندمـا خـرج لقتـال الرزيقـات، فعـاث في أرض مندقبـا فسـاداً وخـان الأمانـة والعهـد، وعبـث بتجـارة الزبـير وممتلكاتـه، وأحـال مندقبـا إلى سـوق للنخاسـة، وهـا هـو اليـوم يـأتي بكذبتـه لغـردون الـذي امتـلأ غضبـاً وأصـدر أمـراً بعـزل سـليمان وتعيـين إدريـس أبـتر مكانـه، لتبـدأ الثـورة تشـتعل في نفـس الشـبل الـذي هـو مـن ذاك الأسـد، فكيـف يتـم تعيـين خـادم والـده مكانـه بوشـايته الكاذبـة، الأمـر الـذي أشـعر سـليمان بالإهانـة.

(٣٥)

عندما بدأ غردون يراجع نفسه كان السيف قد سبق العذل، وأخذ سليمان يستعد للثورة رغم نتيجة التحقيق التي رُفعت لغردون من إبراهيم فوزي باشا، الذي كلفه غردون بالتحقيق في الأمر، وكان من الشخصيات العسكرية المصرية في السودان، الذي أثبت في تقريره أن اتهام إدريس أبتر لسليمان الزبير مجرد وشاية كيدية، لا أساس لها من الصحة، وأن إدريس اختلقها اختلاقاً لذر الرماد في العيون، لإخفاء ما ارتكبه من جرائم ومخالفات ومفاسد في الإقليم، خلال فترة توليه مقاليد الأمور نيابة عن الزبير باشا.

في ذلك الوقت كانت آمال الزبير باشا تتجدد للعودة إلى السودان، وذلك عندما أصدر السلطان عبد الحميد الثاني فرماناً قضى بإقالة خديوي مصر إسماعيل باشا، وفي هذا المعنى أُرسلت له رسالة تقول: (إلى سمو إسماعيل باشا خديوي مصر السابق، إن الصعوبات الداخلية والخارجية التي وقعت أخيراً في مصر قد بلغت من خطورة الشأن حداً، يؤدي استمراره إلى إثارة المشكلات والمخاطر لمصر والسلطنة العثمانية، ولما كان الباب العالي يرى أن توفير أسباب الراحة والطمأنينة للأهالي من أهم واجباته، ومما يقضيه الفرمان الذي خولكم حكم مصر، ولما تبين أن بقاءكم في الحكم يزيد المصاعب الحالية، فقد أصدر جلالة السلطان إرادته بناءً على قرار مجلس الوزراء بإسناد منصب الخديوية المصرية إلى صاحب السمو الأمير توفيق باشا، وأرسلت الإرادة السنية في تلغراف آخر

إلى سموه بتنصيبه خديوياً لمصر، وعليه أدعو سموكم عند تسلمكم هذه الرسالة إلى التخلي عن حكم مصر احتراماً للفرمان السلطاني).

ثلاثة أيام أمضاها إسماعيل في الاستعداد للسفر، وجمع كل ما استطاع من المال والمجوهرات والتحف الثمينة من القصور الخديوية، ونقلها إلى اليخت (المحروسة) وهي الباخرة نفسها التي أقلته من قبل مراتٍ عدة إلى سواحل أوروبا وهو في قمة المجد، ولأن السلطان العثماني رفض استقبال الخديوي المخلوع في الأستانة، فقد غادر إسماعيل مصر متجهاً مع زوجاته وحاشيته من الإسكندرية إلى نابولي. لم ييأس إسماعيل، وظل يرسل التماساً وراء الآخر من منفاه في أوروبا، حتى تعطّف السلطان عبد الحميد الثاني أخيراً ووافق على حضوره للأستانة التي انتقل إليها للإقامة بقصر إميرجان المطل على البوسفور، ولم يعد إلى مصر إلا ميتاً، بعدما قضى نحو ستة عشر عاماً في منفاه..!

الفصل السادس والأخير

(١)

لم يكـن قلـب الزبـير باشـا النبيـل يحمـل ضغينـةً أو حقـداً عـلى الخديـوي المخلـوع إسـماعيل باشـا، في ظـرفٍ تجـوز فيـه الضغائـن والأحقـاد، فقـد كان تحديـد إقامتـه جـبراً في مـصر بأمـرٍ مـن هـذا الخديـوي المعـزول، غـير أنـه لم يلُمـه عـلى ذلـك فقـد كان مدفوعـاً بذلـك التخـوف الـذي بثـه في كيانـه حاكـم دارفـور وبعـض الإنجليـز والوشـاة، وهـذا أمـر يقـدره ويسـتوعبه. كـما أنـه كان يثمـن كـرم الخديـوي السـابق معـه الـذي لم يحوجـه لـشيءٍ، فخصـص لـه قـصراً في العباسـية لإقامتـه، وعندمـا عـاد مـن حـرب البلقـان اسـتقبله بحفـاوة بالغـة في مقـره الـذي انتقـل إليـه بقـصر عابديـن، وأمـر بـأن يقيـم بمقـره السـابق قـصر الجيـزة، لـذا لم يبـدِ سـعادة لعزلـه وفـاءً لهـذا الكـرم والتزامـاً بخطـه ومنهجـه العقائـدي الصـارم، بإطاعـة أولي الأمـر. غـير أن ريـاح الأمـل ضربـت عليـه بلطـف وحرضـت مشـاعره أن تخـبره بـأن أسـباب التخـوف ربـما تـزول عـن نفـس الخديـوي الجديـد توفيـق باشـا، بـما يسـمح بعودتـه للسـودان، ولكـن ابنـه سـليمان يشـتعل غضبـاً وثـورةً في جنـوب السـودان، لم يسـلم منهـا الخائـن إدريـس أبـتر الـذي تمـادى في أكاذيبـه ضـد سـليمان، فـما أن ينهـي واحـدة حتـى يبـدأ في نسـج أخـرى، وأخطرهـا كان اتهامـه لسـليمان بالهجـوم عـلى أحـد المراكـز الحكوميـة والاسـتيلاء عـلى جميـع مـا فيـه مـن أسـلحة وذخائـر، وكان مـن السـهل عـلى المحقـق اللـواء إبراهيـم باشـا اكتشـاف أباطيـل هـذا الرجـل، بـما قـام بـه مـن اسـتقصاء للحقائـق.

(٢)

ظل إدريس أبتر على نهجه الاستفزازي ضد الفتى سليمان الزبير، فبعد أن كتب إلى رؤساء الزرائب يخبرهم بتعيينه مديراً على بحر الغزال، ويأمرهم بالحضور إليه لتقديم فروض الولاء والطاعة، كتب لسليمان يدعوه للتسليم، فاستاء سليمان من أسلوب تابعه السابق، وبلغ به الحنق مبلغاً كبيراً، فرد عليه برسالة غاضبة قال له فيها: (إن ولائي للحكومة يمنعني من الخروج على طاعتها، إلا أن شرفي لا يسمح لي بالتسليم إلى من كان خادمي وخادم أبي من قبلي، ولا يمكنني أن أأتمنك على نفسي وأموالي بعد الذي رأيته من خيانتك وإنكارك للجميل، لأنك لو كنت أميناً وذاكراً للجميل لحفظت عيشنا وملحنا وتربيتنا لك، وعليه لا تنتظر مني التسليم، ولو كانت الحكومة قد أرسلت إليَّ رجلاً غيرك، ولو كان عبداً، لسلمته وذهبت معه إلى غردون وأطلعته على جلية أمري وبينت له نفاقك والسلام).

لما بلغ هذا الخطاب إدريس أبتر استشاط غضباً، وبدأ التحضير لقتال سليمان ويهيئ معسكره للهجوم عليه، وفي سبيل ذلك ترك جنده في عُهدة أخيه عثمان أبتر، وكان رجلاً فظاً غليظ القلب، بينما طفق إدريس أبتر يطوف على زرائب التجار ويحرِّضهم على قتال سليمان الزبير، باذلاً لهم الوعود الكاذبة، والسب المقذع في حق سليمان الزبير.

كان سليمان منتبهاً لما يدور وأدرك أن إدريس قد أعلن الحرب عليه، فصاح في القائد رابح وصحبه الميامين أن هبوا معي

لاستئصال شأفة هذا الخائن، فبدأت أمواج البازنقر والبحارة تعلو وتزمجر وتتدفق إلى شواطئ إدريس أبتر، فتم تدمير معسكره وسقط الكثير من جنوده قتلى، كان بينهم شقيقه الفظ عثمان أبتر، ونجا شقيق آخر له فأسره سليمان، غير أن إدريس هرب من أرض المعركة وفرَّ من أمام سليمان الزبير، كما فرت حُمُرٌ من قسورة، فعاد سليمان إلى شقيقه الأسير ومنحه الأمان، وطلب منه أن يرشده إلى مكان شقيقه الهارب إدريس، ومن ثم بدأ سليمان في مطاردة إدريس مطاردة طار لها لبُّه، لكنه نجح في النجاة بنفسه ووصل إلى اللواء الباشا إبراهيم فوزي، الذي كان يعرف دخيلته ودسائسه وتآمره وسوء نيته، فقبض عليه بتهمة إثارة الفتنة في بحر الغزال وأرسله لغردون في الخرطوم مخفوراً، فقام غردون بعزله ووضعه في السجن وعيَّن بديلاً منه صديقه الضابط الإيطالي رومولو جيسي، الذي التحق بخدمة الحكومة المصرية في السودان، وقد دخله وفي جيبه عشرة جنيهات وخرج منه بعد سبع سنوات وبحوزته نصف مليون جنيه وعشرة آلاف أوقية من الذهب وكميات من العاج والفضة، غير أنه لم يستفد من هذه الثروة الطائلة المنهوبة، إنما اقتسمها رفاقه عندما مات مباشرة بعد أن خرج من السودان ووصل إلى السويس في مصر.

(٣)

عند تعيين جيسي على بحر الغزال كان سليمان الزبير قد استولى عليها بثورته التي اندلعت في ظروف بالغة التعقيد، محتشدة بأجواء المكائد والدسائس والمؤامرات، مشتعلة الأُوار تذكي نيرانها السياسة الإنجليزية الرامية إلى إبعاد رجل السودان القوي الزبير باشا عن مسرح الأحداث وتدمير منجزاته ومحو آثاره، فخرج عليهم ابنه فقرروا قتله وتصفية جيشه وانتزاع بحر الغزال من يديه، لذا عندما شرعت الباخرة بوردين في الإبحار من شواطئ الخرطوم نحو بحر الغزال بجيسي ـ هذا الضابط الإيطالي الهادئ الصلب القوي البنية والقصير القامة ـ كان صديقه غردون يضع يده فوق كتفه ويقول له وهو يودعه:

- أعلم أنك عبقريٌ بفطرتك ولن تعجز عن تحقيق أهدافنا في بحر الغزال، وأولها القضاء على سليمان الزبير وتصفية جيشه، وقد زودناك بالقوات اللازمة والعتاد الكافي، وكن حذراً ألا يصله أي خطاب من والده.

ردَّ عليه جيسي قائلاً:

- سيدي غردون إنّ هذا الطفل المغرور المدعو سليمان الزبير لن يحوجني إلى وقتٍ حتى أقضي عليه ومن معه، بإمكاني أن أغريه بلعب أطفال..!

ضحك غردون وشدَّ على يد صديقه جيسي وقال له:

- أعلم أنك داهية يا صديقي، وداعاً وليعينك الرب.

(٤)

أبحرت الباخرة ورأس جيسي تمر عليه الخطط والأفكار، غير أنه حينما اصطدم بسليمان أدرك أنه يواجه رجلاً وليس طفلاً تغريه اللعب، واحتاج زهاء العام ليحسم أمر هذا الصنديد، وما كان له هذا لولا تلك الإمدادات التي طلبها، ولولا تلك الحِيل التي لجأ إليها وسكب فيها كل خبرته العسكرية، ولولا ذلك الغدر الذي حاق بسليمان.

بدأ جيسي زحفه نحو خور غطاس فوصله بعد صعوبة ومشقة شديدتين أفقدتاه بعضاً من جنوده بالهرب أو الموت، ولكنه واصل زحفه فوصل إلى أبي قرون في نفس اليوم، حيث انضم إليه بعض الزنوج المسلحين فعوضوه خسارته ليستمر زحفه، وظهرت إحدى طلائع قوات سليمان بقيادة القائد أبي بكر منصور الناعمابي الجميعابي، فصلاهم ناراً حامية على مدى يومين كاملين من الضفة المواجهة لمعسكر جيسي، فشاع فيه أن هذه المناورات ما هي إلا غطاء لسليمان وجيشه لعبور النهر بأعداد كبيرة، فدبَّ الذُّعر والقلق وسط معسكر جيسي، وكثرت أعداد الهاربين منه منضمين لقوات سليمان، غير أنّ جيسي بادر بالزحف فعبر النهر تحت حماية قذائف مدفعيته، وتوجه إلى محطة تجارية كبيرة في الطريق إلى واو تسمى (كوتشوك) فألفاها مدمرة ومحروقة من قِبل سليمان حتى لا يستفيد منها جيسي، فتركها وتقدم نحو واو فوجدها في نفس حال زريبة كوتشوك، ولكنه ارتكز فيها وتحصن داخلها، وأصبح مسيطراً على مجرى النهر، وأضحت مؤخرته

آمنة من أي هجوم، ساعده في ذلك ظروف الخريف وبعض الإمدادات، فأخذ يناوش مقدمة قوات الزبير ريثما يتحسن موقفه، وكان سليمان متحصناً بجيشه داخل ديم إدريس الحصين، واحتل الخيران المحيطة به جاعلاً منها كمائن يتصيد منها قوات جيسي، الذي أدرك أنه يواجه عدواً عنيداً ورجلاً صنديداً، وليس مجرد طفل..!

(٥)

أدرك جيسي أن الأهالي ينحازون لخصمه سليمان الزبير ويجد منهم المعاونة، لذا استعصت عليه مواجهته وجهاً لوجه، فأخذ يلجأ للخداع والمداورة والأساليب التي لا تتسق وأخلاق الفرسان، فقام بأسر فقيه من رجال سليمان وتعذيبه وهدده بالقتل وأجبره على كتابة رسالة ممهورة بخاتم الزبير لسليمان، يخبره فيها كذباً أن جيسي يزحف على نحو عاصمته ديم سليمان، وأن عليه الإسراع لحمايتها، وما أن وصلت الرسالة لسليمان حتى أسرع بمعظم قواته لعاصمته بغرض حمايتها من الهجوم المزعوم، فاغتنم جيسي الفرصة، واحتل ديم إدريس الحصين دون قتال يُذكر، فكانت هذه أول وأكبر ضربة يتلقاها سليمان نتيجة لهذه الخدعة الماكرة، فقرر مهاجمة جيسي في حصونه المنيعة بديم إدريس فقام باحتلال موقع يقال له ديم جلابة بقوات هائلة، فقد كانت قوات سليمان تربو على الأحد عشر ألف مقاتل يتزايدون في كل يوم، ثم اتجه نحو ديم إدريس وأخذ يهاجمه من أرضٍ مكشوفة، فأخذ جيسي يسرف في استخدام الرصاص من داخل حصونه المنيعة، وكبَّد سليمان خسائر فادحة في الأرواح، فآثر سليمان الانسحاب في اللحظة التي أوشك فيها على الانتصار، حمايةً لأرواح مقاتليه، وجيسي لم يكن يتوقع هذا الانسحاب وعدَّه انتصاراً في معركة توقع فيها الهزيمة من جيش سليمان الذي تعوَّد القتال على الطريقة الأوروبية، بخبرة استقاها من حروبه السابقة مع الزبير في دارفور وغيرها، وبذخائر وأسلحة استولى عليها عندما احتل الزرائب وما غنمه من قوات إدريس أبتر التي هزمها شرَّ هزيمة.

لم يـترك سـليمان جيسي في حالـه، بـل عـاود مهاجمتـه وأخـذ يـضرب مواقعــه الحصينــة مــن جديــد بقنابــل أشــاعت الرعــب في نفــوس قواتـه، غـير أنّ الدخـول لتـك الحصـون لم يتحقـق لـه، فقـرر سـليمان احتـلال مزرعـة ذرة تحيـط بموقـع عـدوه، وقطـع مجـرى الميـاه الـذي كان يمـد ذلـك الديـم ليحاصرهـم، ويمنـع عنهـم المـاء والغـذاء تمهيـداً لهجـوم كاسـح يحسـم بـه هـذه الحـرب، وبعـد وضـع الخطـة اللازمـة للتنفيـذ نهـض أحـد الخونـة مـن معسـكر سـليمان وأفشـى أمرهـا لجيـسي، وبعـد وقوفـه عـلى تفاصيـل الخطـة قـام بإعـداد كمين مضـاد بقواتـه المسـلحة التـي اتخـذت مـن أعشـاب المنطقـة الكثيفـة سـواترَ، ومـا أن تقدمـت قـوات سـليمان لاحتـلال المواقـع المسـتهدفة حتـى فوجئـت بالرصـاص الكثيـف ينهـال عليهـا مـن جميـع الجهات بغـزارة وفجائيـة غـير متوقعـة، وهـم فـوق أرض طبيعيـة مكشـوفة وعدوهـم ينهـال عليهـم مـن وراء تلـك السـواتر، ولما أفاقـت قوات سـليمان مـن هـول المفاجـأة بـدأت تستبسـل وتقاتـل، فاحتدمـت المعركـة واسـتمر القتـال لسـاعات طويلـة، واسـتؤنف في صبـاح اليـوم التـالي دون أن يتمكـن سـليمان مـن تحقيـق هدفـه في الاسـتيلاء عـلى مزرعـة الـذرة أو مجـرى المـاء، فآثـر الانسـحاب مـن معركـة لا جـدوى مـن الاسـتمرار فيهـا.

(٦)

ركد الموقف بعدها ركوداً متقطعاً تتخلله مناوشات ومعارك صغيرة، كحرب استنزاف، غير أنّ سليمان استمر محاصراً لمعسكر عدوه لفترة طويلة كانت أضرارها جسيمة على الطرفين، فبينما قلت ذخيرة الرصاص في معسكر جيسي وتفشى داء الجدري بين رجاله وبدأ يحصدهم حصداً سريعاً، كانت قوات سليمان تعاني الجوع بسبب نفاد المؤن من الملح والطعام، وتذمر القوات من البحارة بسبب هذا الجوع.
بدا الموقف غير مريح للقائد سليمان، وما أراد أن يترك أمر حربه ضد جيسي يتخذ هذه الميوعة، فقرر حسم الحرب بوضع خطة هجوم كاسحة على معسكر جيسي، وبنى خطته على المباغتة والاستدراج، فكان لسليمان ما أراد، فأمر أن تتم مراقبة معسكر جيسي المحصور والمحاصر في نحو ثلاثة أرباع كيلو متر مراقبة جيدة من جميع الجهات، فأسفرت المراقبة بعد أيام عن رؤية أعداد كبيرة من جنود جيسي وهي تخرج لجلب حطب الوقود، فاستغل سليمان تفوقه العددي وشن عليهم هجوماً فقضى عليهم قضاءً مبرماً، وعندما خرجت طلائع أخرى من جنود جيسي بدأ سليمان يُعمِل خطة الاستدراج التي وضعها بإحكام، فتظاهر بالتقهقر تجاه معسكره فانطلت الخطة على العدو وخرجوا من مواقعهم الحصينة وأخذوا يطاردون قوات سليمان، وفجأة استدار سليمان عليهم ونفذ هجوماً كاسحاً وعنيفاً، وأدار معركة شرسة اشترك فيها قائد الأعداء جيسي بنفسه في القتال يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فقُتل من تحته جوادان ودنا منه الموت كثيراً، وبعد أن بلغت خسائره في الرجال مبلغاً كبيراً، أدرك أنها الهزيمة فانسحب وفلوله سريعاً من أرض المعركة، وأصبح متاحاً أمام سليمان العودة إلى متاريسه واستحكاماته التي حرمها منه جيسي طويلاً.

(٧)

في معسكره الذي فرَّ إليه جيسي مع فلوله وجرحاهُ؛ بدا حزيناً ومكتئباً، وبينما كان يحاول علاج الجرحى طوال الليل كانت أناشيد النصر وصوت الطبول تقرع مسامعه من معسكر القائد المنتصر سليمان الزبير، فأخذ يكتب رسالة لصديقه غردون يقول فيها: (أشعر بالحُمى يا صديقي وأحسُّ بأني سأفقد صوابي، وأحتاج سريعاً لنجدتك، لقد ظللت طوال الليل أعالج جرحاي بقدر ما في طاقتي من العلاج الطبي، بينما كانت تقرع مسمعي طبول الفرح التي كانت تدق في معسكر سليمان الذي كان رجاله يشعلون طوال الليل ألعاباً نارية مصحوبة بطلقات البنادق، احتفالاً بانتصاره، وكان عدد جرحاي يفوق حد التصور، أنا الآن في حالة من الضعف والانحطاط، أنجدني يا صديقي وإلا أغرقني الطوفان) ما أن وصلت الرسالة إلى غردون حتى سيَّر سريتين من أجل إنقاذ صديقه جيسي، تبعتها تعزيزات كبيرة لقلب ميزان القوة لصالحه، وبوصولها تدفقت في شرايين جيسي دماء المقاتل وتأهب للهجوم على معسكر سليمان، وبالفعل قاد هجوماً لا يبقي ولا يذر، أشعل به معسكر سليمان وأحال المخازن التي تحوي المؤن والعتاد إلى حرائق ورماد، فحاول رجال سليمان الخروج إلى المتاريس الأمامية فردهم رصاص جيسي على أعقابهم بخسائر جسيمة، وعند الظهر وصلت النيران إلى مواقعهم الدفاعية وفشلت محاولات رجال سليمان لإطفاء تلك الحرائق بالتراب، بسبب قلة المياه ثم انعدامها في الوقت الذي لم يكف رجال جيسي عن إطلاق النار عليهم، فاشتد بهم اليأس وأعياهم الظمأ ومضت النيران تلفح وجوههم

بحرارتها، ولم يجدوا بُدّاً سوى الخروج في جماعات والقتال في العراء وهم مكشوفون بالكامل لعدوهم، فانتهت المعركة إلى نهايتها المحتومة باحتلال جيسي مواقع سليمان التي كانت النار قد أحالتها إلى أكوامٍ من الرماد، تتناثر فوقها الجثث المحترقة. رأى سليمان أن يعودَ ومن معه من الناجين إلى عاصمته وآخر محطاته (ديم سليمان) وفيها بدأ أنصاره يزودونه بمدد جديد لخدمة مجهوده الحربي، غير أنّ جيسي بدأ يزحف إليه بعد أن وصلته المزيد من الإمدادات من الخرطوم لتمكينه من حسم الحرب نهائياً ضد سليمان الزبير وقتله، غير أنّ سليمان ترك عاصمته قبل أن يصل إليها جيسي بثلاثة أيام، فاحتلها جيسي دون أن يطلق طلقة واحدة. ولم يكن انسحاب سليمان من عاصمته إلا لرغبته في نقل الحرب بينه وبين جيسي إلى الشمال بعيداً عن بحر الغزال، ليفرض على عدوه ظروف حرب كما يختارها هو، فارتكز في موقع يقال له (غرة) يقع بالقرب من الكلكلة منتظراً وصول جيسي إليه، وبذلك واتت جيسي فرصة أن يطلق يده في بحر الغزال كلها، فمضى يخضع الديم والزرائب ويعمل القتل والذبح فيمن بقي بهذه المناطق من أنصار سليمان، لا سيما الجميعاب والجموعية والجعليين، حتى استطاع أن يشيع الرعب في منطقة الديم كلها، ولكن الحرب بين الرجلين لم تنتهِ بعد.

(٨)

بـدا جيـسي حكيـماً وهـو يقـرر تأجيـل متابعـة زحفـه في أثر سـليمان الزبـير الـذي كان ينتظـره في موضـع (غرة) قـرب الكلكلـة إلى وقت لاحـق، وانـصرف إلى تطهـير مناطـق بحر الغـزال من خلايا سـليمان واحتلالهـا جميعـاً وتأمينهـا، بحيـث ينقطـع كل أمـل لـدى سـليمان بإمـدادٍ يأتيـه منهـا، وهـذه الرؤيـة التـي نفذهـا الداهيـة جيـسي بدقةٍ أبقـت سـليمان الزبـير محصـوراً في (غـرة) لا يملـك مـن أمـره شـيئاً.
بعـد أن فـرغ جيـسي مـن تأمـين بحـر الغـزال وتأمـين مؤخـرة جيشـه والاطمئنـان عـلى مؤنـه وخطـوط إمداداتـه، وبعد أن أرسـل إلى حاكـم دارفـور صديقـه (مسـداليا) و(ريجوليـه) حاكـم منطقـة دارا، وهمـا طلائـع الحكـم الأجنبـي في السـودان، وجاءتـه ردودهمـا الإيجابيـة بالموافقـة عـلى تزويـده بثلاثـة فصائـل نظاميـة مـن الجنود، بـدأ زحفـه نحـو الكلكلـة لمهاجمـة سـليمان الزبـير في غـرة، وقـد رأى سـليمان أن ليـس مـن الحكمـة أن يواجـه جيـش جيـسي مـن مرتكـزه، وعندمـا نـما إلى علمـه أن جيـسي اسـتعد تمامـاً للهجـوم عليـه؛ اتجـه إلى الجبـل الـذي كان يتحصـن فيـه الأمـير هـارون، أحد أمـراء الفـور الـذي كان يقـود ثـورة الأهـالي عـلى الحكـم المصري في دارفـور، احتجاجـاً عـلى الضرائـب الباهظـة التـي فرضهـا عليهـم.

(٩)

أراد جيسي أن يزعزع الروح المعنوية لسليمان وجيشه لاجئاً لإحدى ألاعيبه، فأرسل إلى سليمان إنذاراً قال له فيه: (إنني أمهلك خمس دقائق فقط للتسليم، فإذا مضت دون أن يصلني منك رد، فسأقوم بالهجوم عليك من كل صوب).

لم تعد مثل هذه الألاعيب تنطلي على سليمان وجيشه الباسل، ولم يؤتِ الإنذار النتيجة التي كان يأمل فيها جيسي، غير أنّ سليمان قام بالرد على جيسي رداً لم يكن يتوقعه، كان الرد بضرب مدفعي عنيف، وبدأت المعركة التي أبلى فيها جيش البازنقر بلاءً جيداً بقيادة رابح البطل الصنديد، واستمر القتال طوال اليوم بعنفٍ وقسوةٍ، وعُدَّت هذه المعركة من أقسى ما نشأ بين سليمان وجيسي من معارك.

عندما بدت تلوح في الأفق بوادر هزيمة جيسي والشمس تدنو نحو مغيبها، تراجع جيسي ولم يفكر في معاودة هجومه في اليوم التالي، بل أرسل يطلب إمداداً جديداً من صديقيه مسداليا وريجوليه، وأخذ يستميل مَنْ حوله مِنْ قبائل الرزيقات التي لم تكن قد نسيت بعد ما أصابها على يد الزبير باشا والد سليمان فانحازت لجيسي. رغم ذلك كان هجوم جيسي الأخير الذي صده سليمان هو آخر المعارك الحربية بين الرجلين في هذه الحرب الطويلة التي جرت بينهما واستغرقت عاماً كاملاً، وبدآ بعدها يستعدان لمعركة فاصلة تحسم الحرب، ولكنها لم تحدث وحلت مكانها أحداثٌ تراجيدية أخرى.

في الوقت الذي كان فيه سليمان يستعد للمعركة الفاصلة وهو الأضيَّق فُرصاً والأكثر إنهاكاً، وصله خطاب من والده الزبير

باشـا، وكان خطابـاً طويـلاً يبـين معتقـد الزبـير السـياسي ويمتلـئ بالحكمـة والنصيحـة والرجـاء أن يتوقـف سـليمان عـن حـرب الحكومـة، وأنّ تماديـه في الحـرب يضعـف مركـزه الأدبي في القاهـرة ويـضر بـه. نصـح الزبـير ابنـه سـليمان بـأن يـترك الحـرب ويذهـب لمقابلـة غـردون بالخرطـوم أو دارفـور، وهـو عـلى يقين أنه سيحسـن معاملتـه؛ لأنّ الـشرف وكـرم السـجية يوجبـان عليـه ذلـك، لا سـيما وأنـه قـد أوصـاه بـه عنـد سـفره مـن مـصر ووعـده خـيراً. إنّ وصـول هـذه الرسـالة إلى سـليمان متأخـرة سـتة أشـهر مـن تاريـخ كتابتهـا، يؤكـد الألاعيـب والمؤامـرات التـي دبرهـا غـردون وصنيعتـه جيـسي، وأن تسـليمها لـه في ذلـك الوقـت بالـذات وقـد اقتربـت الحـرب مـن نهايتهـا وراءه مـا وراءه مـن اسـتمرار الخِـدع، ناهيـك عـن الحيلولـة دون وصـول العمـدة محمـد آدم إلى سـليمان في الوقـت المناسـب، وهـو الـذي كلفـه الزبير باشـا بإيصـال الرسـالة.

(١٠)

عندما وصلت الرسالة لسليمان الزبير في الوقت الذي أراد لها غردون وجيسي أن تصل إليه، أخذ يقرأ ما ورد فيها بتمعنٍ عدة مرات، ليتدبَّر أمره على ضوء معانيها وعلى هُدًى من موقفه الميداني الذي هو فيه. وعندما تيقن جيسي أنّ سليمان قرأ رسالة والده التي يعرف جيسي كل حرف ورد فيها، أطلق رسالة لسليمان قال له فيها: (إن المشاكل التي بيننا يا سليمان يمكن حلها إن جلسنا معاً للحوار، ولك الأمان إن سلمت نفسك ورجالك لي)..!

ورث سليمان فيما ورث عن والده الزبير باشا حب الشورى والتنظيم، لذا عندما وصلته رسالتا والده وجيسي جمع حاشيته ومجلس حربه للتداول في أمر الرسالتين، فأوقع الأمر خلافاً في الرأي في مجلس الشورى الذي دعاه سليمان للانعقاد، فكان خيار مجلس الحرب بقيادة رابح يرى رفض التسليم لجيسي، وقد عبَّر رابح نفسه عن هذا الرأي بفكرٍ ثاقبٍ عندما قال:

- أخي وقائدي سليمان، لقد ناوأت جيسي فلا تتوقع منه عفواً إذا صرت في قبضته، ونحن سنقاتل معك إذا اخترت القتال، وإلا فيؤسفني الانفصال عنكم بعد أن شاركتكم في السراء والضراء هذه السنين الطوال، ولكنني لن أُسلِّم نفسي لجيسي، وإن كان أوروبياً؛ لأنّ الدناقلة محيطون به وهو مطواع لهم.

قبل أن ينهي رابح حديثه ذكَّر سليمان بالعداوة القديمة بين الطرفين، وأشار إليه بالانسحاب غرباً وفتح بلدان جديدة أو برفع شكواه إلى الحضرة الخديوية بمصر أو إلى غردون. تبنى هذا الرأي من كانوا أقلية في المجلس، أما رأي

الأغلبيــة فقــد نــادى بالتســليم رضوخــاً لمشــيئة الوالــد الزبــير باشــا وتوجيهاتــه الواضحــة، لا ســيما وهنــاك وعــود إيجابيــة مــن جانــب العــدو ووعــد بالأمــان، واستشــهدوا بالآيتــين الكريمتــين: (وَإِن جَنَحُــواْ لِلسَّــلْمِ فَاجْنَــحْ لَهَــا وَتَــوَكَّلْ عَــلَى اللّهِ إِنَّــهُ هُــوَ السَّــمِيعُ الْعَلِيــمُ * وَإِن يُرِيــدُواْ أَن يَخْدَعُــوكَ فَــإِنَّ حَسْــبَكَ اللّهُ هُــوَ الَّــذِيَ أَيَّــدَكَ بِنَــصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِــينَ). صــدق الله العظيــم. لم يكــن ســليمان يــدري أنــه قــاب قوســين أو أدنــى مــن الوقــوع في براثــن المكــر وألاعيــب السياســة؛ وهــو ينصــاع لــرأي الأغلبيــة بالتســليم، فــودع زميــل الكفــاح رابــح وصحبــه الذيــن رفضــوا التســليم لجيــسي، وبينــما أخذهــم رابــح غربــاً يقودهــم ويقــود نفســه نحــو صناعــة مجــد جديــد حفــل بــه التاريــخ، كان ســليمان يقــود نفســه وتوجــه ومعــه ثمانيــة مــن أقاربــه ونحــو ســبعمائة رجــل نحــو حتفهــم مســلمين أنفســهم لجيــسي، الــذي لم يفكــر في عهــده المكتــوب، ولم يتذكــر مواثيــق الــشرف العســكري، فأقــدم عــلى اغتيــال ســليمان ورفاقــه غيلــةً مــن وراء ظهورهــم.

(١١)

قبل ذلك كانت الحكومة المصرية قد أبرقت غردون ليرسل سليمان إلى القاهرة ولكنه علّق قائلاً:

- سأمنح جيسي ألف جنيه إذا نجح في القبض على ابن الزبير، وآمل أن يشنقه؛ لأنه لو أُرسل إلى القاهرة لرحبوا به..!

ظهر في أفق هذا الموت المأساوي صديق قديم للزبير باشا وهو قناوي بيك أبو عموري، وبكى سليمانَ كثيراً ودفنه ورفاقه في قبرٍ بذلك المكان. عندما وصل خبر إعدام ابنه الحبيب سليمان رمياً بالرصاص على يد الضابط جيسي، بتحريضٍ من غردون باشا مع ثمانية أو عشرة آخرين من أهله، كاد الأسى يقتل الزبير، وبدأ الحزن والغضب يتمازجان في دواخله، خاصةً عندما وصلته مرثية شاعرته بت مسيمس:

كم يا سليمان شدولك على المتبور
وإيدك يا اب نفل تفعل قدر ما تدور
كم كمَّلْ عيالاً تضبط الكبسور
كم كتل رجالاً فوقا الحرابة تدور

كانت أحزان الزبير باشا عميقة وعاصفة ليس على إعدام ابنه سليمان فحسب، بل على كل الشهداء الذين قتلهم جيسي غدراً وخيانةً، فأخذت وجوه أحبائه من القتلى الشهداء

تطوف في مدار أحزانه، فيبكي بكاء الرجال وزوجته التركية بعد أن وضعت له إبراهيم تواسيه وتقول له:
- خُذ قلبي يا زبير واجعله منديلاً لأحزانك.
فيقول لها:

- فقدتُ رجالاً لا يمكن تعويضهم؛ حسن الضقيل، وحامد ود مزمل، وأبا بكر ود منصور، وموسى ود الحاج، وأحمد ود إدريس، وإبراهيم ود حسن، والأرباب محمد ود دياب، ومحمد عبد القادر ود الإمام، وسليمان محمد، والقائد برنج. كانوا إخوتي، كانوا أهلي، كانوا سندي وعضدي، واجهوا الغدر بشجاعةٍ، والخيانة بصبرٍ، والموت ببسالةٍ، فليرحمهم الله جميعاً مع ولدي، ولينزلهم منزل الصديقين والشهداء.
لم يخذل الزبير ابن عمه الشهيد وأحد قادة جيشه الأشاوس حامد ود مزمل، الذي أوصى قبل أن يموت أن يستوصي الزبير بزوجته بلتنا بت عمر الناعمابية خيراً، وبعد أن صارت بلتنا أرملة أرسل الزبير في طلبها زوجةً له، فتزوجها وأنجبت له حمزة وأسماء، وهكذا كان الزبير وفياً لأهله وأصدقائه ودماء الشهداء.

(١٢)

كان لا بُـدَّ أن يشـتعل العـداء بـين الزبـير وغـردون بعد هـذا الحادث المأسـاوي الـذي اتسـم بالخِسـة، فحمَّـل الزبـير مسـؤوليته لغـردون الـذي كان يأمـل فيـه خـيراً، فـإذا بـه كاذبٌ أشر وخصـمٌ مبـين. سـعى جيـسي ومـن بعـده غـردون لتبريـر مـا فعـلاه بروايـات سـاذجة، فقـال جيـسي وهـو يتحـرى الكـذب:

- اضطـررتُ لقتـل سـليمان بعـد تسـليمه؛ لأنـه حـاول أن يؤلِّـب عـليَّ رجـالي، وأن يثـير الفتنـة في صفـوف الجيـش..! لـن نصـدق مـا قالـه جيـسي؛ لأنـه قـول لا ينسـجم مـع الواقـع الـذي اسـتمر حافـلاً بالدمـاء المهـدرة خِسـةً وخيانـةً، فقـد طـارد جيـسي الذيـن لم يسـلموا لـه وأمـر مديـر الفـاشر الفرنـسي مسـداليه بتصفيتهـم، فقـام بإعـدام كل مـن أهدر غـردون دمه مـن الجميعاب، فقتـل رميـاً بالرصـاص كلاً مـن موسـى ود جـلي، وإدريـس ود سـلطان، ومحمـد ود فضـل الله، والريـس أبي القاسـم، وعبـد البـين الأسـود، واسـتمرت المجـزرة لتشـمل أسرة صباحـي الجميعابيـة، فأُعـدم رميـاً بالرصـاص كل مـن صباحـي محمد حمـد السـيد، وابناه أحمـد ومحمـد، فانتـشر الذعـر وعـمَّ الخـوف، وأخـذت شـاعرة جيـش سـليمان تطلـق أشـعارها الحزينـة، وتحـذِّر مـن بطـش رجـال جيـسي واسـتحلالهم للنسـاء، فنصحـت أرامـل الشـهداء أن يهربـن حفاظـاً عـلى شرفهـن، فهمـن عـلى وجوههـن سـيراً عـلى الأقـدام وقطعـن السـهول والسـهوب والمفـازات والمسـافات والوديـان الموحشـة بغـير هـدى، وهـن يجتـزن ديـار النوبـة وحمـر والمسـيرية والحوازمـة، وأهلهـا يجيروهـن بأخـلاق الفرسـان وقيـم العربـان،

وقبل أن يصلن إلى ديارهن ديار الجميعاب في الجيلي، كانت زوجة الزبير باشا وأم ابنه محمد الفضل الزبير باشا آمنة بت دبيسا قد فاضت روحها في الطريق أثناء هذه الرحلة القاسية. وكن قبل ذلك يرتدين لباس الحرب ويقبضن السيوف كالرجال ويستنفرن القبائل العربية ضد العدو الغاصب.

(١٣)

استشعر غـردون الورطـة التـي وجـد نفسـه فيهـا، فقـد كان مصرع سـليمان ورفاقـه غيلـةً ينـافي الأعـراف العسـكرية الشريفـة، وأن قتل الأسـير المستسـلم يناقـض الأخـلاق والمبـادئ الحربيـة، ويثبـت وحشـية وبربريـة غـردون ومخلـب قطـه جيسـي، لذا سـعى غـردون بكافـة الطـرق غـير الشريفـة لدفـع هـذا الوزر غـير الأخلاقـي وغير القانـوني عنـه، وتمـادى في ذلـك بغـير وازع مـن خُلـقٍ أو ضمـيرٍ، وهـو يسـعى لإلصـاق تهمـة التحريـض بالزبـير باشـا قائـلاً إنـه مـن حـرض ابنـه سـليمان عـلى الثـورة في وجـه الحكومـة، وحـاول زعزعـة مكانـة الزبـير باشـا لـدى الخديـوي وتجريـده مـن كافـة الامتيـازات التـي كان يتمتـع بهـا وحاشـيته في مـصر والسـودان. قـام غـردون بمصـادرة أمـوال وممتلـكات الزبير باشـا وإيـذاء عائلته وأقاربـه، والعمـل عـلى إشـانة سـمعته والقضـاء عـلى كل نفـوذ لـه أو أثـر في بـلاده وبـين مواطنيـه، وتسـليط الضـوء عـلى الاتهامـات الملفقـة ضـده، كالاتهـام الباطـل الـذي طالـه كأكـبر تاجـر رقيـق. في سـبيل ذلـك أرسـل غـردون للخديـوي مطالبـاً بالقبـض عـلى الزبـير باشـا ووضـع الحديـد في يديـه ومصـادرة أموالـه وبيعهـا لصالـح الحكومـة، وكان رد الزبـير داحضـاً هـذه التهـم والطلبـات بحجـج قويـة، ممـا جعـل الخديـوي يـرد عـلى غـردون قائـلاً:

- لا يؤخذ الأب بجناية ولده.

رغـم ذلـك قـام غـردون بمصـادرة أمـوال الزبـير في السـودان والتنكيـل بعائلتـه وأقربائـه، وقطـع شـوطاً بعيـداً في إشـانة سـمعة الزبـير، اعتـماداً عـلى ادعاءاتـه ودعـاوى جمعيـة إبطـال الـرق البريطانيـة.

(١٤)

بـدأ الإمـام محمـد أحمـد المهـدي ثورتـه في السـودان ولا يـزال الزبـير باشـا يـرزح تحـت وطـأة إقامتـه الجبريـة في مـصر، ونشـأ خـوف أن يتصـل الزبـير باشـا سراً بالمهـدي الثائـر، فبـدأت مراقبـة الزبـير باشـا ومراقبـة محـل إقامتـه حتـى فوجـئ بفرقـة تفتيـش تجـوب قـصره وتبحـث في كل شـبرٍ فيـه عـن أي مراسـلات بينـه وبـين المهـدي، فلـم يجـدوا شـيئاً ولكنهـم تركـوا في نفـس الزبـير كل الأسـى.
كان غـردون قبـل ذلـك الوقـت قـد قـدم اسـتقالته وعـاد إلى إنجلـترا، وعندمـا تحرجـت الأحـوال في السـودان وباتـت قريبـة مـن رؤيـة الزبـير باشـا بـأن مـصر سـتفقد السـودان في ظـل الفسـاد والمؤامـرات والضرائـب الباهظـة، تـم اسـتدعاء غـردون نتيجـة لضغـط الإنجليـز عـلى الحكومـة المصريـة لإخـلاء السـودان في الوقـت الـذي أخـذت فيـه الثـورة المهديـة تنمـو وتنتـشر بسرعـة حتـى عمـت كل أنحـاء السـودان، فأصـدرت حكومـة نوبـار باشـا في مـصر قـراراً عهـدت فيـه إلى غـردون مهمـة إرجـاع الجنـود والموظفـين الملكيـين والتجـار إلى مـصر، وذلـك مـع حفـظ النظـام في البـلاد بإعادتهـا إلى سـلالة الملـوك الذيـن كانـوا يحكمونهـا قبـل الفتـح المـصري.
لم يكـن قـرار الـوزارة المصريـة إلا صـدًى لسياسـة التخـلي عـن السـودان، وبموجبهـا أبـرق اللـورد قرانفيـل وزيـر الخارجيـة موصيـاً بإعـادة اسـتخدام غـردون في السـودان للاسـتفادة مـن خبرتـه ونفـوذه السـابق مـع القبائـل، لحراسـة حاميـة الخرطـوم والجاليـات المصريـة والأوروبيـة أثنـاء انسـحاب الجميـع منهـا إلى سـواكن.
كان غـردون لا يـزال عنـد رأيـه وخصومتـه للزبـير باشـا، وأنـه العنـصر الخطـر الـذي يمكـن أن يزيـد مـن إذكاء ثـورة المهـدي في السـودان ويهـب للتعـاون معهـا، وعندمـا وصلـت السـفينة المقلـة لغـردون إلى بور سـعيد

كان الزبير باشا حاضراً في ذهنه، وتذكَّر كيف أنه فشل في نفيه إلى جزيرة قبرص أو إعدامه، وبينما كانت تجول في رأسه هذه الخواطر وغيرها من المهام الجسيمة التي أُلقيت على عاتقه بإخلاء السودان، وصلته رسالة يحملها رسول من القنصل البريطاني بارنج يأمره فيها بالحضور فوراً إلى القاهرة، وهو أمر لا يملك له رفضاً، رغم أنه ما كان يرغب في الحضور للقاهرة بعد أن تقدم فيما مضى باستقالته من حكم السودان وغادر لإنجلترا مغاضباً ومتفوهاً بإساءات ضد توفيق باشا خديوي مصر، فاستقل قطاراً لوحده إلى القاهرة، وفيها رافق القنصل وقابلا الخديوي الذي قبل اعتذاره وثبته كحاكم عام من جديد على السودان، وحُددت مهام وظيفته وهي إخلاء السودان، وكان ذلك الوقت هو الوقت المناسب لإخلاء الحاميات وإلا تعذَّر إخراجها بعد ذلك، وكان لا بُدَّ من إيجاد نوع من الحكم هناك، ولم يكن إحياء الشياخات القديمة ونظام زعماء القبائل كافياً، وكان لا بُدَّ من إيجاد شخص يملك من السلطة ويتمكن من توحيد تلك الشياخات في ظل وحدة فيدرالية. عندها تقدم غردون باقتراح أذهل الجميع: لماذا لا يكون ذلك الرجل هو الزبير باشا..؟!

(١٥)

بدت الدهشة أكثر على وجه الخديوي توفيق وهو يسمع من خصم الزبير وعدوه اللدود غردون اقتراحه بأن يكون الحاكم في السودان هو الزبير باشا، بعد أن يصحبه في مهمة إخلاء السودان، فقال له والدهشة لا تراوح مكانها من وجهه:
- هل هو نفس الزبير الذي طالبت من قبل بنفيه ثم إعدامه ومصادرة أمواله؟ هل هو نفس الزبير الذي صادرت أمواله بالسودان واتهمته بتحريض ابنه سليمان الذي أعدمته؟
ردَّ غردون قائلاً:

- نعم سيدي الخديوي، إنه ذات الرجل الذي أعنيه.
أدارت الدهشة وجه الخديوي إلى وجهٍ آخر هو وجه جليسه الثاني السير إيفيلين بارنج القنصل العام، فوجد ذات الدهشة تجلس عليه وهو يسأل غردون:

- لماذا هذا الرجل يا غردون؟

فقال غردون:

- شعورٌ صوفيٌ غامض يساورُني حوله..!

فردَّ عليه قائلاً:

- أنا لا أثق في تلك الأدلة القائمة على الشعور الديني، فهل لديك أسباب واقعية تجعلنا نوافق على تعيين الزبير حاكماً على السودان؟

بعد صمتٍ قصيرٍ ردَّ غردون قائلاً:

- إذا كانت يا سيدي المهمة المطلوبة هي فقط إخلاء السودان بأسرع وقت مع المحافظة على سلامة المواطنين المصريين، فلستُ بحاجةٍ للزبير، أما إذا كان عليَّ أن أترك خلفي في السودان تسوية مُرضية للأمور، فإن وجود الزبير معي يصبح عندئذٍ بنداً مهماً لا غِنَى عنه.
في ذلك الوقت كان الفريق الزبير باشا يعيش في رغدٍ من العيش كفله له مرتبه الكبير وهو بقصر (القللي) الذي أهداه له الخديوي توفيق دون أن يفرض عليه أية قيود تمس حريته الشخصية، غير أنّ قلبه كان يحمل كرهاً لغردون لا حد له.
في ذلك القصر كان الزبير باشا يخضع طبياً لعلاج الآثار المرضية التي خلفها في جسده ذلك السم الذي دسه له إسماعيل باشا أيوب في دارفور، وما أُصيب به من اعتلال في حرب البلقان، وكانت ممرضته السستر مدام كوخ الفرنسية الإنجليزية الأصل تداعبه عند انتهاء جلسات العلاج وتقول له:
- خلاس يا زبير أنت زي الحصان.

كان يرى في عينيها الخضراوين حباً ومودةً دفعتاه أن يقول لها:
- تتزوجيني يا كوخ..؟!

تعثرت كوخ في مرطها وارتعشت خطاها وغادرت مسرعة دون أن تغادرها الفرحة، وعندما عادت له قالت:
- أقبل يا سيدي الباشا، ومن هي تلك المجنونة التي ترفض عرضاً كهذا من رجلٍ مثلك؟
فسألها الزبير:

- مسيحية أنت أليس كذلك؟

فقالت:

- نعم.

فقال لها:

- أرغب قبل أن أتزوجك أن تدخلي الإسلام.
صمتت مدام كوخ وقالت:

- منذ أن خُلقت وأنا مسيحية، وصعبٌ عليَّ أن أترك ديني، أنا أحبك وأحترم ديانتك، ولو لا ذلك لما قبلت بك زوجاً، وأعلم أن الإسلام دين عدل وسماحة ولا يرفض للمسلم التزوج بكتابية.
ردَّ عليها الزبير قائلاً:

- إنّ الإسلام والمسيحية يقفان ضد الإلحاد بناءً على حقائق جوهرية مشتركة بينهما، وهي أن لهذا العالم خالق واحد لا يموت ولم يكن وجود هذا العالم صدفةً وعبثاً، كلانا يؤمن بالقضاء والقدر وبالبعث والحساب بعد الموت، وبالجنة جزاءً للمحسن وبالنار عقاباً للمسيء.
صمت الزبير ثم أضاف قائلاً:

- لكل ذلك سمح لنا ديننا الإسلامي بالزواج من الكتابيات، لذا سأتزوجك على مسيحيتك، ولعل حياتي معك تقنعك بالدخول في الإسلام.

قالت:

- من يدري.

فقال:

- فقط تأكدي إن مِتُّ عنك فلن ترثيني فاختلاف الدين بيننا يمنعك من إرثي.

فقالت:

- أعرف ذلك، وأنا أقبل بك رجلاً لا صاحب مال، أنا أطمع فيك زوجاً وحبيباً وأباً لأولادي فحسب.
فقال لها:

- لن أتركك نهباً للظروف، بل سأسجل باسمك ما يؤمن لك العيش الشريف بعد مماتي.
أرادت مدام كوخ أن تفعل شيئاً، غير أنّ نظراتِ الحاشية وحياءها منعاها.

هكذا تزوج الزبير مدام كوخ وبقيت زوجة له لآخر العمر.

(١٦)

وفي صباح وردي يتوشح بنسائم باردة من عام جديد هو عام ١٨٨٤م في شهر يناير، أي بعد تسعة أعوام قضاها الزبير مُقيماً في مصر، حملت له زوجته مدام كوخ دعوة جاء بها أحد الرسل، وكان الزبير يظن أنها كسائر الدعوات التي كانت تصله من باشوات مصر ووزرائها وأعيانها لاحتفائيات وتشريفات ومشاريع دينية وثقافية، كان قد أنجزها أو بدأها، ولكنه عندما فضها وجد عليها خاتم وتوقيع رئيس وزراء مصر نوبار باشا، يدعوه من خلالها لاجتماع تفاكري.
كان غردون قد سجل رأيه رسمياً من خلال طلبٍ تقدم به إلى السير إيفيلين بارنج قال فيه: (يخبرني شعوري أن تعاون الزبير معي سوف يحسم موضوع السودان، فأنا أثق في قدرته على حكم السودان والقضاء على ثورة المهدي باجتذاب أتباعه، لأنهم أصلاً كانوا قادةً لدى الزبير، وأثق في عظمته وقدرته القتالية، ومستعد لتحمل مسؤولية الاعتماد على الزبير؛ لأني مقتنع به رغم عدائي الشخصي معه، وعليه أرى تنظيم لقاء يضمني معه في حضوركم وحضور معالي رئيس الوزراء نوبار باشا).
بوصول رسالة غردون التي تحمل طلبه، اعتبر اللورد قرانفيل والسير بارنج أن تأييد غردون للزبير والتمسك به دليل على عدم توازن شخصيته، وكتب وزير الخارجية للقنصل العام يقول له: (إن خطابات غردون تثير قلقي، فتغيره نحو الزبير لا أستطيع أن أفهم كنهه).
ألحَّ غردون في طلبه مؤكداً من جديد أن الزبير هو الرجل الوحيد الذي يعادل نفوذه نفوذ المهدي، وسيجعل الزعماء

السودانيين المنتمين إليه يهجرونه، وأن السودان يحتاج للزعيم الزبير باشا قبل أن يحتاجه هو الجندي الإنجليزي، وأضاف: أنا أحتاج لرجل في قامة الزبير باشا ليحل محلي بعد إتمام الجلاء ليتولى السلطة بأي شكل، واسم الزبير ونفوذه سيفرضان ذلك على السودان وأهل السودان، فهو من أصلٍ شريفٍ، وينتسب إلى العباسيين، وقد تمكن بشجاعته وثروته أن يصبح من رجال السودان المعدودين.

(١٧)

استطاع غـردون أن يقنـع الإدارة العليـا في مـصر والبريطانية الممثلـة في وزير خارجيتهـا وقنصلهـا في مـصر بوجهـة نظـره، وأنـه عـلى اسـتعداد لطـرح مسـألة اصطحـاب الزبـير وتعيينـه حاكـماً عـلى السـودان عـلى المجتمعـين للتصويـت عليـه، لـذا وصلـت الدعـوة للزبـير باشـا التـي تسلّمها مـن يـد زوجتـه مـدام كـوخ، وفي الموعـد المحـدد وقفـت عربـة التشريفـات لتقـل الزبـير إلى موقـع الاجتـماع، فأخذت العربة تشـق شـوارع القاهـرة، وعندما لم تتجـه لمقـر رئيـس الـوزراء سـأل الزبير باشـا مدير المراسـم المرافـق، فأخبره أن الاجتـماع يخـص الشـأن السـوداني ويؤمـه قـادة عسـكريون وسياسـيون، ويضـم غـردون باشـا حاكـم السـودان والمكلـف بمهمـة إجـلاء السـودان، ومـا أن سـمع الزبـير اسـم غـردون حتـى أحـسَّ بفقـد ولـده، وأنّ جرحـاً بـين جنبيـه قـد تجـدد، إذن سـيلتقي خصمـه هـذا النهـار، في ذلـك الوقـت كان الحضـور منتظـماً في مقـر الاجتـماع وغـردون يقـول للسـير بارنـج:
- إنّ الزبير هو السوداني الوحيد المؤهل لقيادة البلاد، هذا إذا رغبنا في تهدئة الأحوال في تلك الديار المضطربة. إنه رجل استثنائي رائع. لكم كنت أود لو أنّ زوجتك الليدي بارنج رأته..!

إنّ الزبير يـا بارنـج سيعيد الأمن والاستقرار للبلاد خلال شـهرٍ واحـد، وإنّ محمد أحمدسيتوقف عن إطلاق كلمة المهدي عـلى نفسه. بقامتـه المديـدة، وجسـده الأقـرب للنحافـة، وبزتـه الشـديدة السـواد المطـرزة بالنياشـين، وطربوشـه الشـديد الحمـرة، وأكتافـه العريضـة التـي تحمـل شـارة الفريـق، وخمسـين ونيفـاً مـن السـنوات، دخـل الزبـير باشـا إلى الاجتـماع وبـدأت المواجهـة المثـيرة.

(١٨)

نهضت في نفس غردون باشا آمالٌ وأحلامٌ هجست له بصفح نبيلٍ من الزبير باشا، وأمنيةٌ عزيزةٌ بقبوله لعرضه ليرافقه إلى السّودان، وأن يكون حاكمه بعد ذلك رغم علمه بمدى غضب الزبير منه. والزبير باشا الذي وجد نفسه في مواجهة غردون وثلة من أكابر السياسيين والعسكريين، كان منتصب القامة على وجهه صرامة وأحزان عميقة، وفي جوفه أسىً وغضب يبحثان عن وجهه وشفتيه الصامتتين، أوعز ذلك للحاضرين أنّ عاصفة في طريقها لتثور، وبدا الموقف عصيباً على وجه رئيس الوزراء نوبار باشا والسير إيفيلين بارنج المعتمد البريطاني صاحب المنزل الذي ضم الاجتماع، كما كان واضحاً على وجوه كل من السير إيفيلين وود وجيرالد بورتال والميجور الأونورايل منتيج ستيورات ورتلي والكولونيل واطسون وجيلجر باشا وضابط المخابرات البريطاني السير ريجنالد ونجت، كانوا هم النخبة السياسية والعسكرية التي ترغب في إنقاذ السودان من الفوضى وحقن الدماء. بتلك المشاعر نهض غردون نحو الزبير موعزاً للمترجم أن يتبعه إلى حيث الرجل الذي لم يتقدم نحوه خطوة واحدة، وما أن أدركه ابتسم ومدَّ يده ليصافح الزبير، بيد أنّ الزبير لم يمد يده لمصافحته، فأثار هذا التصرف غردون فاستشاط غضباً، وسأل الزبير وهو يتميز من الغيظ عن سبب إمساك يده عن المصافحة. حينها بدأت العاصفة وردَّ الزبير على الفور قائلًا:

- لقد وقعت بيدك هذه على وثيقة إعدام ابني سليمان. كيف لي أن

أمسَّ اليد التي تلوثت بدم فلذة كبدي؟

أجابه غردون وبسرعة:

– يا زبير أنت الذي تسأل عن من قتل ابنك؟! لقد سطرت أنت لابنك هذا الذي تتحدث عنه خطاباً من القاهرة، تحثه فيه بالتمرد على سلطتنا. إن خطابك هذا موجود ضمن ملف القضية التي نظرتها المحكمة العسكرية، ويمكننا أن نجد الآن خطابك هذا في مكاتب وزارة الحربية بالقاهرة.
ردَّ الزبير على ذلك الاتهام قائلًا:

– هذا ليس صحيحاً البتة، إنه محض كذب وافتراء ولن تجد هذا الخطاب أبداً، لأنه ليس موجوداً إلاَّ في مخيلة الوشاة والكاذبين. لم يحدث أبداً أن كاتبت ولدي في الشأن الذي تزعم، بل على العكس من ذلك، فقد كتبت له خطاباً أحثه فيه على التوقف عن عصيانه وقتال الحكومة، وإن كان لديك الخطاب الذي تزعمه دعني أراه.
هنا أمر غردون السير ونجت بالذهاب إلى وزارة الحربية، وأن يبحث في المحفوظات عن محاضر المحكمة العسكرية تلك ويعود بها كلها فوراً، فهي تتضمن ذلك الخطاب.

(١٩)

كان الزبير في قرارة نفسه يتمسك بسذاجة هذا الاتهام ونسيجه الكاذب، موقناً أن رسول غردون لن يعود بشيء لغردون الذي كان يسيطر عليه الغضب من الإهانة التي وجهها له الزبير برفضه مصافحته، وهو لا يدرك حتى تلك اللحظة أنه كان ضحية للأكاذيب وجهله باللغة العربية، وكان الزبير غاضباً أيضاً وهو يتذكر تلك المحاكمة الغيابية التي أجراها ضده هذا الغردون في الخرطوم بتهمة تحريضه لابنه على الثورة وقضت بإعدامه، وهو حكم رفضه الخديوي، وها هو غردون الآن يجهد نفسه لعرض ذلك الدليل المتمثل في الخطاب المزعوم الذي استند إليه في إصدار الحكم بإعدامه. لقد خدعوه وقالوا له إن هذا الخطاب وجده جيسي عند سليمان قبل إعدامه، فصدق قولهم بعد أن استغلوا جهله باللغة العربية. رغم تلك الخواطر التي تدعو للغضب إلاّ أن الزبير وبمنطق عالٍ قال للاجتماع دون أن يفقد وقاره وسيطرته على نفسه:

- حدثوني كيف أحرض ابني على الثورة في وجه الحكومة وأنا أعلم جيداً نتائج ذلك، وهو القضاء عليه من قبل قواتها، خاصة وأن الكثير من أتباعي تخلوا عنه واستحالوا أعداءً له، يحيكون له المكائد والوشايات لدى غردون هذا ولدى جيسي الذي يجهل شرف الملوك أمثال الخائنين إدريس أبتر والسعيد بيك حسين، وهل من مصلحتي أن أقوم بمثل هذا التحريض فأفقد احترام الحكومة لي، وأعرض ما تبقى لي من أموال للمصادرة؟ وكيف يتبادر لذهن غردون أن أقوم بمثل

هـذا العمـل ضـد حكومـة الخديـوي التـي أنزلتنـي منـزل الراحـة، ووثقـت بي وأوكلـت لي قيـادة إحـدى فرقهـا لحـرب الـروس في البلقـان، وأنعم عـليَّ سـلطاننا العثماني بالرتـب والنياشـين، وأهدتني القصـور، هـل لي بعـد كل ذلـك يجـوز لي أن أنحـدر لـدرك الخيانـة. سـاد الصمـت الجميـع وهـو صمـت لم يقطعـه سـوى غـردون الـذي قـال:

- بينـي وبينـك الدليـل المسـتندي القاطـع الـذي سـيأتي بـه السـير ونجـت بعـد قليـل.

لأول مـرة تغـزو شـفتي الزبير ابتسـامة خرجـت من مواقـع التهكم، وحطـت باهتـةً فوق ثغـره، غير أنّ ونجـت روى ترقـب الجميع وهو يدخـل حامـلاً بـين يديـه كافـة ملفـات تلـك المحاكمـة العسـكرية. امتـلأ قلـب غـردون حماسـةً واندفـع إلى تلـك الملفـات يصحبـه المترجمـون، ففضـوا أختامهـا وأزالـوا شـموعها الحمـر التـي أُغلقـت بهـا منـذ خمـس سـنوات، عقـب انتهـاء المحاكمـة التـي قضـت بإعـدام الزبـير الـذي قـال لهـم إن وجدتـم مـا قـال بـه غـردون فأنـا عـلى اسـتعداد لتقبـل حكـم المـوت الصـادر، وإلاّ إعـلان بـراءتي واسـتحقاقي لطلبـي دم ابنـي وإعـادة أمـوالي التـي صادرهـا هـذا الرجـل. بـدأوا يبحثـون عـن الخطـاب التحريـضي الـذي زعـم غـردون أن الزبـير باشـا قـد أرسـله إلى ابنـه سـليمان، واسـتمر البحـث والتقليـب في تلـك الملفـات ملفـاً ملفـاً، وورقـة ورقـة بدقـة شـديدة، وأُسـقط في يـد غـردون، التـي قبضـت الريـح وارتـدت خائبـة عـن العثـور عـلى الخطـاب المزعـوم، فامتقـع وجهـه وأحـسَّ بحـرج بالـغ، وأدرك أنـه كان ألعوبـةً في أيـدي أعـداء الزبـير مـن الوشـاة والحاقديـن الحاسـدين.

حالـة مـن الإحباط أصابـت غـردون، وضعفأمله باصطحـاب الزبير إلى السـودانإذ أن قبـول الزبـير باشـا بعرضه قد أصبح الآن محل شـكٍ كبيرلكـن هـذا لم يمنـع غـردون مـن الاعتراف بأسـفه العميـق فقال:
- إنّ الأمـر كان مأسـاةً..! حقـاً إنّ العـدل قـد انحـرف عـن مجـراه، وعـليَّ الآن أن أعمـل مـا في وسـعي لترضيـة الزبـير..! نعـم، أعـترف بـما وقعـت فيـه مـن خطـأٍ فـادح يـا سـادتي بحـق الزبـير، وأعتـذر عـن ذلـك وأطلـب موافقتـه ليرافقني إلى السـودان لإنجـاز مـا كُلِّفـت بـه مـن مهمـة، ويخلفنـي في حكـم السـودان.
هكـذا وبـكل شـجاعة اعتـذر غـردون وطلب مـن الزبـير أن يرافقه، غـير أنّ الزبـير لم يوافـق عـلى ذلـك إلا بعـد أن جـادل غـردون مجادلـة عنيفـة أوقعـت في نفـس أغلـب الحاضريـن معنًـى لم يقصـده الزبـير، الـذي لم يكـن يقصـد إلا تصفيـة النفـوس مـن غِلهـا. كانـوا يتداولـون ذلـك المعنـى بقولهـم: همـا طرفـا نقيـض، وأن السـماح للزبـير باشـا بالعـودة للسـودان مغامـرة غـير مضمونـة العواقـب، رغـم أن الزبـير صافـح غـردون بعـد ذلـك وقبـل عرضـه، إلا أنّ المجلـس طـرح الأمـر للتصويـت، وبفـارق ضئيل فـاز الـرأي الذي يعـارض عـرض غـردون، غـير أنّ ذلـك لم يـزد غـردون إلا حماسـةً لرأيـه وتمسـكاً بـه، مـا جعلـه يكثـر مـن طلباتـه وحججـه الداعمـة لوجهـة نظـره الخاصـة بالزبـير وتعيينـه حاكـماً عـلى السـودان، حتى وصـل الأمـر لمجلس العمـوم البريطـاني والـرأي العـام البريطاني..!

(٢٠)

كانت عربة التشريفات تفترق خطاها عن بقية عربات العسكريين والسياسيين الذين أمُّوا الاجتماع، وهي تحمل الزبير باشا لتعود به إلى مقر إقامته بقصر القللي، شاقة شوارع القاهرة المزدانة بالمصابيح، فقد غابت الشمس بعد انتهاء ذلك الاجتماع الطويل الذي انتهى برفض طلب غردون باصطحاب الزبير ومن ثم تعيينه حاكماً عاماً على السودان، ولم تكن مشاعر الأسى التي خلفها وقع رفض اقتراح غردون على الزبير أثراً من آثار حبه للسلطة التي أكل منها حتى شبع، أو الجاه الذي شرب منه حتى ارتوى، ولكن إشفاقه على السودان الذي بات على باب قوسين أو أدنى من الفوضى والدماء كان يحزنه.

بهذه المشاعر عاد الزبير باشا لمقره وغردون باشا يحاول ما في وسعه للإجابة إلى طلبه، ولكن دون فائدة، فمجلس العموم والحكومة البريطانية كانا تحت تأثير جمعية مكافحة الرق البريطانية التي كانت تعد الزبير باشا بناءً على معلوماتها المغلوطة، أكبر تاجر رقيق عرفه التاريخ، ولا شك أن مثل هذا الرأي كان له تأثير كبير على الرأي العام، فسقط اقتراح تعيين الزبير باشا حاكماً على السودان، وكان الزبير باشا ينفي عن نفسه هذه التهمة ويفنِّد تفاصيلها بحجج قوية، ويعزو أسبابها لأولئك الحاقدين والحاسدين من أعدائه في الداخل والخارج.

(٢١)

بقصره كان يحاول معالجة أساه بالنظر إلى طفله سعد الدين الذي أنجبته زوجته المصرية السيدة عطيات، ومداعبة طفله الآخر محمد الجميل ابن زوجته المغربية خديجة عمر السنوسي.

لاحظت السيدة خديجة السنوسي الأسى يرقد في وجه زوجها الزبير باشا، فسألته عن السبب فأجابها:

- رفض الإنجليز تعييني حاكماً على السودان بسبب اتهامهم الباطل لي بأني تاجر رقيق. إنّ الأوروبيين هم أول من ألصق بي هذه التهمة لدفعها عنهم، ولأنني صرت تاجراً ميسوراً ومرموقاً، وقائداً فاتحاً وحاكماً لمناطق في السودان، ما جعلهم ينظرون إليَّ كأفضل من يلصق به هذا الاتهام، وأبرزهم كان غردون الذي يريد أن يستنجد بي الآن، فقد كان عدوي ومن تسبب في مقتل ابني سليمان، وأتحداهم جميعاً أن يثبتوا أنني قد بِعتُ رقيقاً واحداً، وهم يتحدثون عن أنني أكبر تاجر رقيق.

فسألته خديجة:

- ما الذي يسندهم في ذلك وأنت تقول إنك لم تبع رقيقاً واحداً؟

قال لها:

- يا خديجة إن تجار الرقيق كانوا يستخدمون اسمي زوراً وسراً،

حينما يتم القبض عليهم واعتراضهم من الجهات الرسمية.

فقالت له:

- ولكنك أهديت ألفَ رجلٍ للخديوي إسماعيل.

ابتسم الزبير ابتسامة هازئة، وقال لخديجة:

- لا بُدَّ أن تعلمي أن أولئك الرجال ليسوا عبيدي، إنهم جزء من جيشي (البازنقر) أحضرتهم معي من السودان إثباتاً لحسن النية والتسامح، وبث روح الصلح، وقد تم ضمهم إلى جيش الخديوي كجنود مهرة. أنا يا خديجة لم أكن أستهدف اصطياد الرجال في حروبي كرقيق، وإنما كنتُ دائماً إما فاتحاً أو مدافعاً عن نفسي وتجارتي وتأمين طرقها، وكنت أطلق سراح أسراي بعد هزيمتهم.

لم يكن الزبير باشا موقناً بأنه قد ترك الأثر الكافي في نفس زوجته خديجة فقال لها:

- أريد منك أن تفهمي عني أنني كنت تاجراً، وأنني قمت فعلاً بشراء عدد كبير من العبيد لأجندهم، ولكني لم أكن تاجر رقيق قط في أي يوم من الأيام. ربما يظن بي ذلك، ولكنني لم أكن كذلك إطلاقاً، ولقد حاولت أن أجعلك تفهمين أنه بالنسبة للموقع والموضع الذي كنت أحتله، سيكون ذلك أمراً مستحيلاً. إن المهم في الأمر هو رأيي عما إذا كانت تجارة الرقيق عملاً صحيحاً أم خطأ؟ أو إن كنت أتحدث لكِ عن الحقيقة بصدق أو غيره، ولو أنني تاجرت بالرقيق إذاً لكان ذلك سيفضي إلى أن يدمرني تماماً، وقد كنت

علـى رأس تجـارة واسـعة ومتنوعـة سـبق لي أن تحدثـت إليـكِ عـن فروعهـا المختلفـة، تجـارة يتوقـف نجاحهـا كليـةً عـلى الأمـن وتوفُّـر الاسـتقرار في جميـع المناطـق المحيطـة بي، وكان رخائـي ونعيمـي الاقتصـادي شـخصياً؛ ورخـاء الأهـالي المحليـين يرتبطـان كأمـر واحـد، فالمواطنـون المحليـون إن كانـوا ممـن اصطيـدوا أو مـن الذيـن يخشـون أن يباعـوا فـلا يمكـن أن يتاجـروا معـي، وإذا هـم لم يتاجـروا معـي فلـن أسـتطيع المتاجـرة بـدوري مـع القوافـل. كـما يجـب أن تعلمـي أن اتخـاذ الجـواري واسـتجلاب العبيـد لخدمـة النسـاء أمـرٌ يحرمـه القـرآن، وهـو دسـتورنا الـذي نحترمـه وننفـذ أوامـره ونتجنـب نواهيـه.

صمتت خديجة قليلاً ثم سألت الزبير:

- ألم يكن بإمكانك محاربة هذه التجارة المحرمة؟

ردَّ عليها بتحسُّر:

- إنّ تجـارة الرقيـق مـن أكثـر ضروب التجـارة البشريـة فظاعـةً وظلـماً وقسـوةً، وإن كانـت لسـوء الحـظ هـي في نفـس الوقـت أكثرهـا عائـداً وربحـاً، ويؤسـفني أن أقـول لـك إن الجمـع بـين محـاولات إبطـال الإتجـار في الرقيـق مـع السـماح في الوقـت ذاتـه بجـواز تملـك العبيـد، هـو أمـر مسـتحيل، ومـا دام العبيـد يُشـترون في القاهـرة وإسـطنبول فسيسـتمر إرسـالهم مـن منابـع ومصـادر الإمـداد، ومـن الصعـب أن تقـوم بـأي شيء في مناطـق ليـس بهـا حكومـة مسـؤولة، فليـس ثمـة مـن أحـد يمكـن أن تعالـج معـه الأمـور.

عادت وسألته:

- إذاً ماذا فعلت؟

ردَّ عليها والحسرة تتملكه أكثر:

- كنت أحاول أن أغيّر من عادات أولئك البدائيين بتعليمهم وهدايتهم وأخذهم تدريجياً لطريق العمل الزراعي والتجاري، وقد كان السبيل الوحيد هو أن يُغزوا وأن يمدنوا بالتدريج، وكل حرب خضتها كانت من أجل تأمين طرق التجارة الشريفة؛ لأن في حريتها وتأمينها تعزيزٌ للأمن والنظام، وتوفير للخبرات والمعارف، ومن أجل هذا الهدف حاربت الرزيقات وفتحت دارفور ولم تكن لي مشاكل أخرى مع العرب، ولم أُرِد من سلاطين دارفور شيئاً إلاّ أن يُقلعوا عن اصطياد البشر من الطريق، وأن يسمحوا للقوافل أن تمر بسلام. فعلت الكثير في نطاق المديرية التي كنت أتولى حكمها، غير أنّ كل ما قمتُ به في ذلك التمدين قد نُقض وتقوَّض وصار مُضاعاً وهباءً منثوراً، وأصبح الآن كله نهباً للضياع.

(٢٢)

اضطر غـردون للسـفر بحملتـه للسـودان ولا يـزال اسـم الزبـير باشـا يـتردد عـلى لسـانه وفي برقياتـه، والزبـير باشـا في القاهـرة يحـاول أن يُصحـح وجهـة النظـر التـي قصفـت برغبـة غـردون دون طائـل، فانـصرف لنشـاطه الدينـي والاجتماعـي والثقـافي في القاهـرة حتـى فاجـأه غـردون بتلغـراف مـن الخرطـوم مسـتنداً فيـه عـلى سـلطته كحاكـم عـلى السـودان، قـال لـه فيـه: (سـعادة أفنـدم الزبـير باشـا بمـصر، نحـنُ عيَّنـا سـعادتكم وكيـلاً لحكمداريـة عمـوم السـودان، فيكـون معلومـاً سـعادتكم بذلـك) في هـذا التلغـراف المفاجـأة أبـدى غـردون اسـتعداده لإرسـال وابوريـن ليقـلا الزبـير مـن القاهـرة إلى الخرطـوم، غـير أنّ الزبـير باشـا ردَّ عليـه بتلغـراف قـال لـه فيـه ضمـن مـا قـال: (نعـرف سـعادتكم أننـا في غايـة التشـكر ونهايـة الممنونيـة مـن حسـن التفـات سـعادتكم، وجميـل توجهاتكـم، ويسـوءني أن أعـرِّف جنابكـم مـع غايـة الأسـف بـأن الحالـة الحـاضرة لا تسـعف بالمرغـوب، وأرجـو الله تعـالى أن يديـم سـلامتكم ويتـم نجاحكـم بـما فيـه الخـير والصـلاح العمومـي أفنـدم)

نظـر غـردون لـرد الزبـير باشـا وكاد الأسـى يقصـف بـه، فأمسـك ورقـةً وأخـذ يكتـب فيهـا رسـالةً رقيقـةً لأحـب شـقيقاته في إنجلـترا، قـال لهـا في ختامهـا: (قـد تكـون هـذه آخـر رسـائلي إليـك) وقـد كان..!

(٢٣)

عـدم الأخـذ باقـتراح غـردون بشـأن الزبـير الـذي تمسـك بـه حتـى وهـو في الخرطـوم، أنبـأه بـأنّ النهايـة قـد اقتربـت، وهـي النهايـة التـي كتـب فصولهـا عنـاد الحكومـة البريطانيـة رغـم تأييـد الكثـير مـن الإنجليـز أنفسـهم والمصريـين لاقـتراح غـردون بتعيـين الزبـير باشـا حاكـماً للسـودان بعـد خروجـه واسـتيوارت مـن الخرطـوم، غـير أنّ الزبـير باشـا نفسـه رفـض اسـتدعاء غـردون لـه لفـوات الوقـت، ولمـا آلـت إليـه الأمـور. كـما رفـض الزبـير باشـا أيضـاً اقتراحـاً آخـر للاسـتعانة بـه في القضـاء عـلى تمـرد عثـمان دقنـة في شرق السـودان، لتقـوى بعـد ذلـك الشـكوك حـول تعـاون الزبـير باشـا واتصالـه بالمهدويـين في السـودان، لتصـدر الأوامـر إلى قـوات البوليـس لمحاصرة قـصر الزبـير في القلـلي ومهاجمتـه لتفتيشـه والبحـث عـما يثبـت اتصالـه بالمهديـين، وبعـد عمليـة تفتيـش دقيقـة لم يعثـروا عـلى شيء يؤيـد شـكوكهم، فعـادوا ولكنهـم كانـوا يضمـرون شـيئاً ضـد الزبـير باشـا، وتشـاء الأقـدار بعـد خمسـة أيـام أن تـرد الوقائـع الدمويـة عليهـم عندمـا فشـل غـردون في مهمتـه بالخرطـوم، بعـد أن تُـرك وحيـداً مـع مسـاعده اسـتيوارت يصارعـان المهـدي وجيوشـه، فـصرع اسـتيوارت أثنـاء توجهـه إلى مـصر لاسـتعجال حملـة الإنقـاذ، وعندمـا تمكنـت جيـوش المهـدي مـن دخـول الخرطـوم قُتـل غـردون عـلى عتبـات القـصر، وترتـب عـلى ذلـك أن أشـاع أعـداء الزبـير باشـا أنـه يمهـد للهـروب مـن مـصر كـي يشـارك المهـدي في ثورتـه وقيادتهـا، ومـن ثـم الهجـوم عـلى مـصر، فصـدرت الأوامـر سراً بالقبـض عـلى الزبـير باشـا، ولكـن الخديـوي توفيـق رفـض فكـرة القبـض عـلى الزبـير. لم يفُـت عـلى الزبـير باشـا ذلـك الحـزن الـذي ارتسـم فـوق وجـه

زوجتـه مـدام كـوخ، وقـد كان الحـزن مُسـيطراً عليهـا إلى الحـد الـذي كبَّـل لسـانها، فسـألها الزبـير باشـا عـن سـبب حزنهـا فقالـت:
- لسـتُ حزينـةً فحسـب، إنـما غاضبـة أيضـاً، فالسـودانيون الدراويـش يـا باشـا قتلـوا غـردون باشـا وقطعـوا رأسـه.
ردَّ عليها الزبير قائلاً:

- غـردون لم يقتلـه السـودانيون يـا مـدام كـوخ، لقـد قتلـه الإنجليـز، وقـد تذكريـن أن السـير بيرنـج عندمـا جـاءني وفي معيتـه ثلاثـة مـن الجنـرالات الإنجليـز، ونصحتهـم بـأن اللجـوء للحـرب خطـأ كبـير وسـينجم عنهـا تخريـب للبلـدان وتدميرهـا وتخويـف النـاس وترويعهـم، بـل ومـن المحتمـل أن يذبحـوا غـردون قبـل الوصـول إليـه، فـإذا مـا صدقتمـوني فاتركـوا لي أن أقـوم بتدبـير هـذا الأمـر ليتـم بـدون إراقـة دمـاء، وإنّ عائلتـي وأطفـالي موجـودون معـي هنـا، فاحتفظـوا بهـم كرهائـن ودعـوني أذهـب إلى هنـاك ولـن أطلـب منكـم أي عـون مـالي ولا سـلطان، سـأذهب بمفـردي وعـلى حسـابي الخـاص، ولـن يقـع بينكـم وبـين السـودان دم، وسـأتعهد بـأن أعيـد غـردون بسـلام. قلـتُ لهـم ذلـك يـا كـوخ مـراراً وتكـراراً، حاثـاً عـلى قبولـه، لأننـي كنـتُ أوقـن بـأن السـير بالجيـش إلى السـودان أمـر لا يفيـد، ولكنهـم لم يصدقـوني وظنـوا بي الظنـون، فـإذاً هـم مـن قتـل غـردون بجهلهـم وجبنهـم ونفوسـهم التـي لا تُصغـي إلاَّ للـشر.
هكـذا نجحـت خطـة الإنجليـز في إبعـاد المصريـين عـن السـودان، وحـدث كـما توقـع الزبـير باشـا أن فقـدت مـصر السـودان، وكان عـلى الزبـير باشـا أن يبقـى بمـصر مُحاطـاً بمخـاوف الإنجليـز، وأن يفعـل ما كان يفعلـه (أنشـطته المختلفـة) حتـى مـات المهـدي في الخرطـوم بعـد خمسـة أشـهر مـن سـقوطها عـلى يديـه، لتتواتـر بعدهـا إلى الزبـير باشـا الأخبـار عـن حمـلات التنكيـل التـي قادهـا خليفـة المهـدي عبـد الله

التعايشي ببشاعةٍ وقسوةٍ ضد قواده جيش البازنقر السابقين الذين حاربوا مع المهدي، فأبو عنجة مات مسموماً، والزاكي طمل قُبر حياً، والنور عنقرة سُلخت رجلاه تعذيباً وإذلالاً، وأبو قرجة أُودع سجن الرجاف، وحتى السعيد بيك حسين الذي انسلخ عن الزبير باشا في وقت مبكر، رغم أنه كان يمت إليه بصلة القرابة، قد قُتل شر قتلة بعد أن قُطعت أطرافه، وهناك في منطقة يقال لها الجنيد كان بطران شقيق الزبير باشا الأكبر يشرف على مشروع الزبير باشا الزراعي ويحتفظ بأسلحة شقيقه الزبير تحت الأرض، فهي أمانة من بطل عزيز لا يمكن التصرُّف فيهاوعندما علم بها الخليفة التعايشي أرسل وفداً وطلب منه تلك الأسلحة فرفض، ولكنهم عادوا إليه وبحثوا عن الأسلحة والذخائر في المطامير حتى وجدوها فأخذوها وقيَّدوا بطران بالسلاسل وحملوه معهم على ظهر بعير للخليفة الذي أودعه السجن.

(٢٤)

أيقن الزبير باشا أنّ السودان من بعده يسير في طريق الفوضى تحت قيادة رجلٍ فلت عُنقه من سيفه ذات يوم، ولكن هكذا هي الأقدار، وهذه هي مشيئة الخالق، والزبير كعادته يتقبَّل ما يخطه له القدر، ويؤمن بأنّ كل شيءٍ هو بتقدير المولى العزيز، ولكنه لم يكن ينقطع عن التفكير أبداً في شؤون بلاده وأهلها وشؤون مصر موطنه الثاني. وبينما كان في دوامةٍ من التفكير ذات مساء؛ حضر إليه محمد الحبيب ابن أخيه من عمومته وقال له:
- عمي الزبير باشا هل تسمح لي بخطبة ابنتكم آمنة؟
فقال له الزبير باشا:

- إنها ابنة عمك، ولك أن تتزوجها، فقط لا تنسى يا محمد أنها ابنة الأميرة رانبوه وحفيدة الملك تكمة ولد زنقابور سلطان النمانم ببحر الغزال.

فقال محمد الحبيب:

- أعلم ذلك يا عمي، وقد أدركت قصدك، أنها ملوكية وتستحق معاملة الأميرات.

ضحك الزبير باشا وانطلقت الأفراح في قصره تنبئ بزواج الأميرة آمنة من ابن عمها محمد الحبيب. وعندما بدأت شهور الصيف رافق محمد الحبيب بصحبة زوجته آمنة عمه الزبير باشا إلى مدينة الإسكندرية التي قرر أن يقضي فيها شهور الصيف، تلبيةً لدعوة صديقه وصهره الشيخ

عمر السنوسي العالم المغربي في قصره بتلك المدينة الساحلية. كان الزبير باشا وعائلته ومن معه من الحاشية والأهل سعداءَ بكرم وضيافة الشيخ السنوسي، رغم ما خلَّفه الحكم الجديد في السودان بأنفسهم من مرارات، غير أنّ الاحتفاء بالزبير وما لقيه في الإسكندرية من ودٍّ وتقديرٍ ودعواتٍ، كان كفيلاً بمحو بعض تلك الآثار، ومن تلك الدعوات كانت دعوة من قائد السفينة (أنديانا) التي رمت مراسيها على ساحل البحر المتوسط، وقد أبلغه بهذه الدعوة بكل رقةٍ ولطفٍ أحدُ الضباط الإنجليز، ولم يتردد الزبير باشا في قبول دعوة قائد السفينة لحفل شاي على ظهر سفينته؛ لأنه كان قد تعرَّف عليه من قبل في دار المحافظة التي زارها من قبل. شكر الزبير باشا الضابط الإنجليزي ثم قال له:

- سنكون هناك عند الرابعة بعد الظهر تماماً.

قبل أن يستدير الضابط الإنجليزي حيَّا الزبير باشا تحيةً عسكريةً صميمةً وانصرف.

بعد صلاة الظهر بدأ قصر السنوسي يشهد حركة الحاشية والأهل وهم يستعدون لمرافقة الباشا لهذه الدعوة، والعروس الأميرة آمنة تتخيَّر أفضل ما لديها من ملابس، ليبدأ بعد ذلك موكب الزبير باشا في التحرك، وبوصولهم شدَّ قواد العربات ألجمة خيولهم المزينة، وتقدم الزبير باشا الركب فأفسحوا له حتى دخل السفينة، فحياه قائدها تحيةً ومودةً ورافقه إلى سطحها، لتبدأ وقائع حفل الشاي الراقي والجميع ينظرون للمدينة التي بدت كعروس البحر، ولكنهم لم يكونوا ينظرون للمفاجأة الصاعقة التي كانت في انتظارهم. أنديانا السفينة الرائعة من مظاهر الحضارة، والتقدم الذي كان يصبو إليه الزبير باشا ويعمل لأجله ويتمنى أن يتحقق

في بلاده السودان، فقد كان من أهم أهدافه التمدين، فكل الشعوب تسعى نحو الرفاهية والحضارة بالعمل والإنتاج والابتكار، رأى ذلك في مصر وتركيا وما سمعه من الخديوي إسماعيل باشا عن فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية، وما حدثته به معرفته وثقافته، فيتحسر وينظر للأفق حزيناً وهو يقارن كل هذا بأحوال موطنه العزيز السودان، الذي أرهقته الحروب ودمره الجهل والتخلُّف، وهو يرزح تحت وطأة الجهل والفاقة والظلم والفساد والاستبداد.

واقعٌ تمنى لو استطاع أن يغيِّرهويغيِّر واقع أهله الذين صاهر أغلب قبائلهم من أجل الوحدة والمساواة، ومن أجل أن يكون مقبولاً لديهم، ولكنهم هل يعلمون الآن أين هم من الشعوب؟ لو علموا ذلك لقضوا حُزناً وإشفاقاً..!

(٢٥)

بينما كانت هذه الخواطر تدور في رأس الزبير على سطح السفينة (أنديانا) وهو ينعم بكرم قائدها الإنجليزي، كانت زوجته المصرية ماريام خضر عطية تتآنس مع ضرتها الست زينب بنت منصور، وهي تنظر إلى بطنها المتكورة وتقول لها:

- مُش كان لازم تيجي معانا يا زينب، دا إنتي على وش ولادة.
نظرت إليها قائلة:

- الزبير ده ما بخليهو ليك براك كلو كلو..!

ثم تضحكان.

عدالة الزبير الدائمة بين زوجاته كانت تفرض عليهن احترامهن المتبادل لبعضهن بعضا.

الفرحة كانت تسيطر على العروس الأميرة آمنة الزبير باشا وعريسها محمد الحبيب، وهما يضعان أيديهما على سياج السفينة أنديانا، وينظران إلى زُرقة البحر ويستمتعان بمشاهدة أسماكه المتقافزة. وفي مكان آخر من السفينة كان محمد الفضل ابن الزبير باشا يمسك بيد أخيه علي فائق الزبير باشا ويتمليان جمال السفينة، بينما تنظر إليهما في مودةٍ قريبتهما آمنة بنت أحمد ود رحمة الناعمابية التي كانت سعيدة بمرافقة الباشا إلى هذه السفينة، وتقول لنفسها: (والله خوتهم أخير من الشقاقة..!)

حـول الجميـع كانـت تطـوف ضحـكات الحاشـية والأهـل والعشـيرة مـن الذيـن رافقـوا الزبـير باشـا إلى هـذه الدعـوة الراقيـة، وبعـد أن فـرغ الجميـع مـن تنـاول الشـاي وقضـوا وقتـاً ممتعـاً، كان الزبـير باشـا عـلى سـطح السـفينة ينهـي أحاديثـه الـودودة مـع مضيفـه قائـد السـفينة (أنديانـا) ويتأهـب للمغـادرة. هـي ذات اللحظـة التـي اهتـزت فيهـا أكـواب الشـاي وبقايـا الكيـك الإنجليـزي في أطباقـه، فقـد رفعـت فيهـا السـفينة مراسـيها وبـدأت تتحـرك ماضيـة نحـو عـرض البحـر، بطريقـةٍ لا تُفـسَّر، اندهـش لهـا الضيـوف، ولكـن الزبـير باشـا فهـم كل شيءٍ، غـير أنـه التفـت إلى قائـد السـفينة وكأنـما يسـأله تفسـيراً لهـذا الإقـلاع المفاجـئ، فرنـا إليـه قائـد السـفينة وقـال لـه في رقـةٍ متناهيـةٍ:

- لقـد صـدرت لي الأوامـر يـا سـيدي الباشـا أن أنقلـك إلى جبـل طـارق، ومنـذ هـذه اللحظـة أنـت أسـيري..!

(٢٦)

أمر الزبير باشا الجميع بالهدوء وصمت مذعناً لواقعه الجديد، والسفينة تمخر عباب البحر نحو معتقله في جبل طارق، في مؤامرةٍ دبرها السير بارنج بعد أن رفض الخديوي فكرة اعتقال الزبير باشا لاتهامه بالاتصال بالمهديين في السودان، وعزمه غزو مصر بعد أن يقود مع المهدي ثورته، فانتهز بارنج وجود الزبير باشا في مدينة الإسكندرية تلبيةً لدعوة صديقه وصهره الشيخ عمر السنوسي لقضاء شهور الصيف معه، فأمر الضباط الإنجليز هناك بالقبض على الزبير ونفيه إلى جبل طارق، الواقع بين النقطة الأوروبية وخليجكالالاس المطل على المضيق بالجزيرة الإسبانية التي كانت محمية بريطانية.

كانت السفينة تمخر عباب البحر وثبجه العالي والنفوس تمور بمشاعر لا يمكن وصفها، والزبير الأسير يقول لنفسه: (إذن فقد نجح الإنجليز في استدراجي وإبعادي عن مصر بهذه الطريقة التي تنم عن المكر والخِسة، بعد أن فشلوا في مواجهتي بما يثبت اتهامي أو يبرر نفيي، فهم ليسوا شجعانَ بالقدر الكافي، وما كان لرجل مثلي أن يلقى ما لقيته من هؤلاء الجبناء، بالفعل هم جبناء)

عادت الذكريات تفرض على الزبير نفسها بقوةٍ، وتذكَّر كيف تحركت به مركب أبي عموري بغتةً في أعوام ماضية وهو نائم دون إرادته التي جاءت به لإعادة ابن عمه محمد عبد القادر إلى موطنهما بالجيلي. يا إلهي أين محمد الآن؟ لقد قتله جيسي

رمياً بالرصاص مع ابني سليمان وبعض العشيرة، فذهبوا شهداءً في سبيل الأولين والآخرين.

لا تني الذكريات المحزنة تتوالى على الزبير، فقد أبقاه الخديوي إسماعيل جبراً في مصر، وفي ذلك الخضم المثقل بالذكريات كان يقول لنفسه: (ها أنا الآن أغادر أوطاني مثل الطريد، فما ودعتُ خِلاً ولا أدركت ثاراتي..!)

(٢٧)

حطت السفينة على الساحل بجانب الجبل، والست زينب بنت منصور تصرخ بآلام المخاض، لقد كان ألمها مضاعفاً هذه المرة، وقائد السفينة يقول للزبير:

- تفضَّل يا باشا فقد وصلنا.

نظر إليه الزبير وقال:

- قدَّر الله وما شاء فعل.

فعلَّق القائد:

- ستقيم هنا كما كنت تقيم دائماً، ستقيم في قصر الملكة فيكتوريا، ولك حريتك في هذا المكان، وسيكون معك من تشاء، وسنحضر لك من تشاء من قومك وأصدقائك وأحبابك.

سأله:

- وكم سأقيم هنا؟

ردَّ قائلاً:

- لا أدري يا سيدي الباشا.

فقال الزبير:

- إذن دعنا نصادق قدرنا الجديد.

هبط الزبير ومن معه وأخذ يتملى الجانب الغربي من صخرة جبل طارق، وينظر إلى الساحل الذي تُحدِّق به أشجار الفلفل والصنوبر، وأشجار النخيل تتفرَّق هنا وهناك في الحدائق وكأنّها أكاليل تزيِّن مفرق المدينة المزدحمة القاصية بحشودها وشوارعها البيضاء، وزرقة البحر من تحتها وزرقة السماء من فوقها، فتبدو مرتعشة ومتوهجة في ألقٍ من النور، ومن ورائها يطل الجبل المشمخر صاعداً في خطوطه وتعاريجه الحادة صوب السماء، بينما تنبسط تلال الساحل الإسباني متدحرجة لتسترخي في نعومةٍ ورخاوةٍ ولينٍ تحت بساتين البرتقال والكافور وأشجار الفلين، والمدن البيضاء الأخرى تومض على طول حافة البحر.

كانت تحين من الزبير التفاتة إلى الميناء، فيرى السفن غادية ورائحة، فيكتظ ويمتلئ كامتلاء الشوارع. كانوا يحدثونه أن هذه النقطة هي نقطة التقاء المسافرين من الهند والمغرب وإسبانيا. وعندما يستدير يرى الصخرة الرخامية تسمق بعتوٍ وعلى مدىً بعيدٍ مكونةً حائطاً عالي المرتقى نحو البحر، حيث ينكسر تحت القمم الصخرية المنتصبة عمودياً على الساحل.

وضع الزبير رجله في الكوخ الملكي الذي بُني على ارتفاع مائة وخمسين متراً من البحر، في موضع به صخور ناتئة وغائصة تحت الماء، وعندما تسوق الرياح الشرقية الأمواج المتلاطمة وتدفعها، يتصاعد رشاشها المالح متواثباً فوق السقف، بينما

الصبَّـار والماريقولـد يلتصـق بجـدار الصخـر، وقـد انمحـى كل أثـر لأي خُـضرة إلى مـا بعـد الأكمـة، وكأنهـا تخلـص نفسـها مـن ربطـة وثـاق البحـر وقبضتـه. وعندمـا ارتحلـت عينـا الزبـير شرقـاً رأى امتـداداً منبسـطاً لا يحـده شيء سـوى خـط التقـاء البحـر بالسـماء عـلى مـدى الأفـق. ولم يجـد الزبـير بـين منزلتـه الجديـدة وبـين خليـج جبـل طـارق الهائـج سـوى كُتـلٍ مـن الصخـر. عندمـا يهـدأ المـكان ويلفـه الصمـت والسـكون تتعمـق العُزلـة في ذاتـه، ويغمـره الأسـى رغـم مـا لقيـه مـن تقديـرٍ واحـترام في منفـاه. غـير أنّ هـذا الصمـت وذلـك السـكون فلقتـه صرخـةُ القَادمـةِ الجديـدةِ إلى الحيـاة، فتخلَّصـت السـت زينـب مـن آلامهـا، وقـرر الزبـير أن يطلـق عـلى طفلتـه اسـم رُقيـة، التـي سـجل التاريـخ قصتهـا مـع ملكـة

(٢٨)

كان خـبر ونفـي وأسر رجـل بحجـم الزبـير باشـا خـبراً في غايـة الإثـارة، فالرجـل يعرفـه العـالم أجمـع، لـذا دارت المطابـع سريعـاً فخرجـت الصحـف وهـي تحمـل هـذا النبـأ العاصـف في كل مـن مـصر وتركيـا وبريطانيـا وأسـتراليا ونيوزلينـدا وأمريـكا، ولا تنـي تلـك الصحـف والإعـلام العالمـي يتنـاول بإثـارة قصـة الزبير باشـا مـن زوايـا مختلفـة ورؤى متباينـة، فاكتسـب لقـب أُسـطورة القـرن العشريـن، وكان كل ذلـك تقـع عليـه الكاتبـة الصحافيـة البريطانيـة بعينيهـا الزرقاويـن، فأثارتهـا سـيرة الرجـل، وبعـد أن تأكـدت أنّ الزبـير مسـموحٌ لـه بمقابلـة زواره في جبـل طـارق، طرقـت بـاب مديرهـا في مقـر مجلـة المراجعـات المعـاصرة التـي تصـدر في لنـدن عـن صحيفـة (بـول مـول) وقالـت لـه:

- سـيدي أفكِّـر في زيـارة زبـير باشـا في منفـاه، أريـد أن أسـمع مـن الرجـل قصتـه الحقيقيـة، أريـد أن يرويهـا لي بنفسـه، ينتابنـي إحسـاس بـأنّ الرجـل قـد ظُلِـم.

نـزع المديـر عـن وجهـه نظارتـه السـميكة العدسـتين، وبانـت الدهشـة أكثـر في عينيـه ووجهـه وهـو يقـول لهـا:

ـ فلـورا مـاذا تقولـين؟ أحقـاً تُريديـن السـفر إلى تلـك الصخـور الجـرداء؟

ـ نعم سيدي، وآمل أن أعود لك منها برواية حقيقية ومثيرة.

ـ فلـورا شـو أعلـم أنك بارعـة في الكتابـة، وتملكـين أسـلوباً ناصعاً،

وبيانـاً مشرقـاً، وإفصاحـاً مبينـاً، وأنّ هـذا الأمـر لـو تـم سيكسـبنا صيتـاً، ولكـن أخشـى مـن فشـل مهمتـك وأنـت توثقـين لتاجـر رقيـق، ممـا سـيدفع علينـا اللعنـات.

ـ لـو كنـتُ أفكـر في الأمـر بهـذه الصـورة، لمـا فكـرت في عبـور البحـار لقضـاء وقـت طويـل في مهمـةٍ تافهـةٍ، فنصـب عينـي يـا سـيدي تحـدي الرجـل لـكل العـالم، أن يثبتـوا أنـه قـد بـاع رقيقـاً واحـداً. مـن تحداهـم يـا سـيدي فشـلوا جميعـاً في الإتيـان ببرهـانٍ واحـدٍ عليـه، فأنـا أصر عـلى إنجـاز المهمـة لنـرى مـاذا سـيقول لنـا الرجـل.

لم يكـن أمـام مديـر فلـورا سـوى أن يأمـر لهـا بنثريـات الرحلـة، وبوصولهـا إلى هنـاك التقـت بحاكـم مسـتعمرة جبـل طـارق السـير جـون آدي، وشرحـت لـه مهمتهـا وطلبـت إذنـاً للالتقـاء بالزبـير باشـا. قـال لهـا: الزبـير باشـا ضيـفٌ مكـرّمٌ أكثـر مـن أنـه معتقـل، ومسـموحٌ لـكِ ولغـيركِ بزيارتـه، أتعلمـين أنـه صـار صديقـي؟

ـ واو.. حدثنـي عـن ذلـك. قـال: حسـناً سـأحدثك الآن، فعنـد حضـور الزبـير باشـا واكتـمال وصـول مرافقيـه وحاشـيته التـي وصلـت أعدادهـا لأكثـر مـن ألـف شـخص، عملـت ما في وسـعي أن أُخفـف عنـه وطـأة الحجـز والنفـي، لمعرفتـي بتاريخـه البطـولي ولإدراكـي لمكانتـه السـامية في نفـوس المصريـين والسـودانيين عـلى حـدٍ سـواء، بـل هنالـك قسـمٌ مـن الإنجليـز أرادوه حاكـماً عـلى السـودان، إذن فلـديَّ معتقـل مـن وزنٍ خـاصٍ، أمـروني بوضعـه في قـصر جلالـة الملكـة الصيفـي، فكلفـت مـن يديـر لـه شـؤون هـذا القـصر، وهـو بـكلِّ أسـفٍ يجهـل الإنجليزيـة، فعينـت لـه مترجمـين وسـمحت أن يُرسِـل ويتلقـى الرسـائل، وأن تُنفَّـذ رغباتـه في حـدود الممكـن وحـدود إمكانياتـه، وبـدأت أزوره بانتظـام وأقـضي

معـه أوقاتـاً ممتعـةً، فالرجـل يتسـم بالبسـاطة والـروح الطيبـة وروح الفكاهــة، نلعــب الشــطرنج والطاولــة والدومينــو التــي تعلمــتُ بعضــاً منهــا عــلى يديــه، فهــو تعلمهــا مــن الضبــاط الأتــراك والشراكســة أثنـاء اشـتراكه في حـرب البلقـان ضـد روسـيا.

(٢٩)

بعد أن أعادت فلورا شو فمها الصغير إلى وضعه الطبيعي، وخفضت حاجبها من أثر دهشتها، قالت للسير آدي: الآن يا سيدي الحاكم أنا في حالةِ توقٍ أكثر للقاء الباشا، فدعني أذهب له، فقط مُرْ من يجري بيننا الترجمة ورتب لي معه المواعيد.

ـ لكِ ذلك يا سيدتي.

كانت فلورا شو فتاةً جذابةً مشرقةَ الوجهِ والعينين، تميل للبدانة، وعندما وضعت قدميها في قصر الزبير باشا وبدأت في إجراء لقاءاتها الأسبوعية معه، التي امتدت إلى أربعةِ أشهرٍ؛ بدأت الغيرة تغزو قلبي الست زينب والسيدة ماريام خضر زوجتي الزبير:

ـ إنتي يا بت خضر حكاية الخواجية دي شنو، كل أسبوع ناطة على الباشا..؟!

ـ ياختي دا نا متخضة زيك، إمكن يعملها يا زنوبة ولا رايك آيه..؟!

ـ الله يكفينا شر الخواجات ديل، هم بلاهم الجاب الباشا لي هنا شنو، الله يقطع خيتم.

ـ بقولكِ ننده على حامد.

ـ حامد المترجم؟

ـ أيوه عليك نور.

كان واضحاً بعد ذلك لحامد الغرض الذي لأجله تم استدعاؤه، فقال لرسولهما: السيدة فلورا شو متزوجة من السيد فريد ريك جون لوقارد؛ حاكم نيجيريا.

ببلوغ الخبر لهما قالت مريام خضر لزينب: اطَّمني يا ستي طلعت متجوزة.

ـ أحمدك يا ربي حمداً يصل لا عندك..!

عندما أكملت السيدة فلورا شو تحقيقاتها الصحفية تحت عنوان (قصة الزبير باشا كما رواها بنفسه) نشرتها بمجلتها، فأماطت اللثام بصورة واضحة عن أُكذوبة تجارة الرقيق التي ألصقها أعداء الزبير به، وتلقفتها جمعية إبطال الرق ونفخت فيها وضخمتها حتى أصبحت عقيدةً راسخةً لدى الحكومة والمجتمع الإنجليزي خاصة، والأوروبي عامة، وبدأت أوساط الرأي العام البريطاني تتعاطف مع الزبير باشا وتنقِّب في التهم الأخرى التي أسندها إليه الإنجليز، مما مهَّد لقرار إطلاق سراحه من المنفى الذي كان يحسُّ به الزبير إحساساً مؤلماً، فيقول مع الشاعر:

سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها** تفك الأسارى دونه وهو موثقُ..

فما هو مقتولٌ وفي القتلِ راحةٌ** ولا هو ممنونٌ عليه فيطلقُ..!

في ذلك المنفى وذات مساءٍ وصل إلى قصر الزبير باشا حاكم جبل طارق السير آدي جون، وقال لصديقه الزبير باشا: سيتم عقد اجتماع في الغدِ هنا بقاعة الاجتماعات في قصركم هذا، هي ذات القاعة التي تعقد فيها الملكة اجتماعاتها عند قضائها لفصل الصيف هنا، وهو اجتماعٌ في غاية الأهمية أرجو أن تكون حاضراً. في الموعد رأى الزبير باشا في قاعة الاجتماعات الحاكم العام لمستعمرة جبل طارق و(ياور)

خاص بجلالة الملكة فيكتوريا وبعض الضباط الإنجليز والمترجمين، وكان حديثهم يدور حول تولي الزبير باشا حكم السودان منفصلاً عن مصر..!

كان الزبير باشا يستمع لذلك المؤتمر الملكي وشبه العسكري ويفهم ما يدور بواسطة المترجمين، حتى ألقوا عليه باقتراحهم لحكم السودان. نهض الزبير باشا ثائراً وقال قبل أن يغادر الاجتماع غاضباً: اقتراحكم غريب يملؤني بالاشمئزاز والغضب، فقط انظروا إلى أنفسكم فستجدون أنكم من اتهمتموني يوماً عند خديوي مصر بالعمل على استقلال السودان عن مصر، لقد فتشتم قصري ليلاً بالقاهرة كما تُفتش منازل الخونة بحثاً عما يثبت اتصالي بالمهدية، لقد صادرتم أموالي بالسودان وقتلتم ابني سليمان غدراً، وهذا الاقتراح في غاية الوقاحة، تريدون به أن تجعلوني أجيراً لمصلحتكم لأحكم السودان عن طريقكم، أنا لستُ عميلاً، أنا صاحب نوازع وطنية، وخادمٌ للدولة الإسلامية، ومرتبطٌ بفكرة وحدة وادي النيل ولا يسعني الآن سوى أن أرفض اقتراحكم جملةً وتفصيلاً..!.

رغم ذلك أصدرت الحكومة البريطانية قراراً بإلغاء قرار نفيه والسماح له بالعودة إلى القاهرة بعد عامين ونصف العام؛ قضاها في منفاه، وقبل أن يغادر زارته الملكة فيكتوريا بالقصر بجبل طارق، ومنحته وساماً بريطانياً، في إشارة لاعتذار بريطانيا وسعيها لإرضائه وتعويضه عما لحق به، وعندما أرادت تقليده الوسام كان البروتكول الملكي يلزم الزبير باشا بالانحناء للملكة فرفض، وقال إنه لن ينحني لغير الله، فقامت الملكة بتقليد الوسام لطفلته رُقية، ما أكسبها فيما بعد لقب الملكة فيكتوريا..!

(٣٠)

عندما تخلَّص الزبير من معتقله ومنفاه تمت إعادته لمصر، وكان هذا أخف القدرين، وكان يقول لنفسه وهو يتنسم هواء مصر: بعد هذه الشهور الطويلة في الأسر تأكدوا من براءتي، أو زال السبب الذي أخافهم من بقائي في القاهرة، ولكني لن أتركهم حتى يعوضوني على كل أذًى ألحقوه بي. كان في ذلك الوقت قد بلغت الثورة المهدية أوجها، مما أيقن معه الزبير باشا أن مصر لن تسمح له بالعودة إلى السودان، غير أنَّ الخديوي محمد توفيق استقبله وأهداه عربةً فاخرةً تجرها الجياد، وسيفاً أثرياً رُصِّعَ مقبضه بالذهب والماس، وأعاده لقصر الجيزة الذي أهداه له الخديوي إسماعيل من قبل، ورغم أن الزبير قد ترك خلفه ثلاث أسر وعشر سنوات من الذكريات في مصر، إلاَّ أنه كان تواقاً للعودة إلى السودان، ولكنها رغبة لم تتحقق إلاَّ بعد مُضي ثلاثة عشر عاماً كاملة، فقد كانت الحكومتان المصرية والإنجليزية تخشيان عواقب عودته، ورغم ما كان يحيط بالزبير من أجواء الأُبهة والثراء التي وصفها ونستون تشرشل حينما كان ضابطاً صغيراً في القاهرة، إلاَّ أنه كان مُصرَّاً على موقفه بالمطالبة بتعويضه تعويضاً مجزياً، بإعادة كل ما صادره غردون من أمواله في السودان، وما صرفه من حُرِّ أمواله على فتح دارفور، وما نجم عن تدمير تجارته وبضائعه. وعندما لقي تسويفاً أوكل المحامي الإنجليزي السير ماريوت ليقوم عنه برفع دعوى تعويضٍ مدنيةٍ ضد الحكومة المصرية.

لم تُوقف إجراءات رد الاعتبار التي اتخذتها الحكومتان البريطانية والمصرية لصالح الزبير باشا سيره في دعواه وإثناءه عنها، ولم يشفع لهما في ذلك زيارة الملكة له في جبل طارق قبيل عودته واعتذارها

الضمني أو عرض الإنجليز له حكم السودان منفصلاً عن مصر، أو قرار الحكومة المصرية بمنحه راتباً مدى الحياة يتوارثه أبناؤه من بعده، أو قرار اللورد كرومر حاكم عام السودان الإنجليزي المصري بإعادة أمواله المصادرة، أو ما قرره خلفه الجنرال ونجت باشا عن تعويضه بنحو ثمانين ألف فدان زراعي بمشروع الجزيرة ومشروع دلتا القاش بمنطقة طوكر بشرق السودان، وإطلاق اسمه على أهم شوارع الخرطوم، وما قرره بمنح تعويضات مالية لأسر ضحايا مجازر جيسي وغردون من قبيلة أهله الجميعاب، الذين رفضوا هذه التعويضات وأعادوها إلى الجنرال ونجت، معلنين أنهم لا يبيعون دماء شهدائهم ويحتسبونهم في سبيل مبادئ الزبير والوطن، وظل الزبير باشا متمسكاً بدعواه ومطالبته بمبلغ مليون جنيه عن فترة النفي التي قضاها بجبل طارق ظلماً وبدون مسوغ، وغير ذلك من الأسباب التي أوردها في الدعوى. ورغم أن الخلاف الطويل والحاد بينه وبين الحكومة المصرية بسبب هذه المطالبة، لم ينتهِ إلاَّ بعد وفاة الزبير باشا، إلا أنّ ورثته سكتوا بعد ذلك عن هذه المطالبة.

(٣١)

عندمــا عــاد الزبــير باشــا إلى القاهــرة مــن جبــل طــارق كان محــل حفــاوةٍ واحــترام، وظــل مقيــماً فيهــا لثلاثــة عــشر عامــاً مندمجــاً في تيــار الحيــاة الاجتماعيــة والعامــة، واســتمر في اتصالاتــه وعلاقاتــه بكبــار رجــال الدولــة والمجتمــع والمشــاهير مــن العلــماء والأدبــاء ورجــال الحكــم والجيــش، وأضحــت ديــاره مــزاراً للأهــل والأصدقــاء ومنتــدًى أدبيــاً وفكريــاً لأصدقائــه الكُثــر مــن المصريــين والأوروبيــين، وكثــيراً مــا كان يقــضي نهاراتــه في زيــارة الإخــوان وقضــاء حاجاتهــم أو المشــاركة في الاحتفــالات والمناســبات الرســمية أو ممارســة رياضــة الفروســية والمــشي بــين المتنزهــات أو شــاطئ النيــل، وفي بعــض الأحيــان كان يقابــل الخديــوي عبــاس حلمــي الثــاني في قــصر عابديــن، فيلقــاه الخديــوي بالبِــشرِ والترحــابِ، ويقــضي معــه أوقاتــاً في أحاديــث الذكريــات عــن أجــداده وعــن التاريــخ المشــترك والعديــد مــن الشــؤون العامة.
هــذه الحيــاة الباذخــة التــي كان يعيشــها الزبــير باشــا في مصر لم تنســهِ أهلــه ولا ســودانه، بــل كان تواقــاً للعــودة، فعندمــا أطلقــوا سراحــه مــن معتقــل جبــل طــارق، ودَّعــه حارســه الإنجليــزي، ســيدني لــو، بحــزنٍ عميــقٍ قائــلاً لــه:

ـ ســأفتقدك يــا باشــا ويحزننــي أن يكــون الجبــل خِلْــواً منــك، ومــا يخفــف مــن ألمــي أنــك عائــدٌ إلى ديــارك.

ـ شكراً لك ولمعاملتكم الطيبة لي طوال فترة إقامتي بينكم.

ـ تســتحق ذلــك يــا باشــا، ولكــن قــل لي مــاذا ســتفعل عنــد عودتك لوطنــك بعــد كل هذه الســنوات؟

كانــت أبــواق الســفينة تزمجــر وأهــل الزبــير باشــا وحاشــيته انتظموا

بداخلهـا، وحاكـم جبـل طـارق ينتظـره عـلى مدخـل السـفينة ليودعـه، وفيكتوريـا أو رُقيـة ابنـة الزبـير باشـا الطفلـة التـي لم تبلـغ الثالثـة مـن عمرهـا، تتمسـك بكـف والدتهـا السـت زينـب بنـت منصـور، وتتشـبث بوسـامها الملكـي وهـي لا تـدري لمـاذا ولـدت في هـذا المـكان وإلى أيـن ستسـير بهـم هـذه السـفينة، والزبـير باشـا يضـع كفـه عـلى كتـف حارسـه الحزيـن ويـرد عليـه قائـلاً:

ـ لقـد أضحيـتُ رجـلاً عجـوزاً، وأصبحـتُ الآن أترقَّـب المـوت، ولكننـي قبـل أن أمـوت أحـب أن أرى بـلادي التـي شـهدت أيـام صبـاي تنعـم بالسـكينة والسـلام، وأن أرى التجـارة تزدهـر عـبر النيـل مـن أقصـاه إلى أدنـاه. قـد لا أعـود إلى وطنـي ولكـن إذا مـا تيـسر ذلـك، فإننـي سـأعمل عـلى تقديـم النصيحـة التـي أعطيهـا الآن لشـعبي الـذي سـيبارك ويذكـر اسـمي بـكل مـا هـو طيـب؛ لأننـي لا أرغـب أن أكـون عظيـماً، فسـوف أنـال مـا أسـتحقه مـن دعـوات في قـبري بعـد مـوتي بزمـنٍ طويـلٍ، ولـو أن أهـلي اسـتخدموني لعمـل أي شيء، فإننـي سـأكون مـسروراً وسـيكون ذلـك شـيئاً طيبـاً، وإذا لم أعـد ذا فائـدةٍ فسـأذهب إلى إحـدى المـدن المقدسـة مكـة أو المدينـة، هكـذا أقـضي بقيـة أيامـي.

ـ إذاً الـوداع يـا سـيدي، وسـأحتفظ بذكريـاتي معـك نـوراً ينهـض في أيامـي الماضيـة.

جوقـة الحاكـم بـدأت تموسـق لحنهـا الحزيـن والزبـير باشـا يتخلَّص مـن أحضـان سـجانه السـابق، حاكـم جبـل طـارق، وتتحـرك السـفينة متوخيـة ذات النقطـة التـي تحركـت منهـا السـفينة (أنديايا) بغتـةً قبـل ثلاثـين شـهراً.

بحلـول عـام ١٨٩٦ أنـذرت الحكومـة البريطانيـة فرنسـا مـن

الزحـف في اتجـاه السـودان، وسـيَّرت بعثـةً عسـكريةً مشـتركةً مـع مـصر لإعادة احتـلال السـودان، وكان قائـد الحملـة اللـورد هربـرت كتشـنر الـذي هـزم قـوات الخليفـة التعايـشي في معركـة كـرري بـأم درمـان في سـبتمبر ١٨٩٨، وسـقطت الخرطـوم في يـد القـوات الغازيـة وانتهـت الدولـة المهديـة، فهـرب الخليفـة عبـد الله التعايـشي وتـم اللحـاق بـه وقتلـه في موضـع يقـال لـه أم دبيكـرات. بنهايـة عـام ١٩٠٠ اكتمـل بسـط السـيطرة على كامـل كردفـان، وتُركـت دارفـور تحـت حكـم السـلطان عـلي دينـار الـذي احتفـظ بعلاقـات طيبـة مـع الحكومـة المركزيـة حتـى قـرب قيـام الحـرب العالميـة الأولى.

كل ذلـك كان إرهاصـاً لعـودة الزبـير باشـا إلى بـلاده السـودان، فقـد باتـت الحكومـة الإنجليزيـة والمصريـة وهمـا تسـتعيدان السـودان عـلى قناعـةٍ بـأن الزبـير الـذي تجـاوز السـبعين مـن عمـره أصبـح لا يقـوى عـلى التفكـير في أي جهـادٍ سـياسي أو عسـكري، فبـات المسـتعمر لا يخشـى بأسـاً للشـيخ الهـرم، وسـمح بعودتـه إلى السـودان، فأخـذ الزبـير باشـا يسـتعد لهـذه العـودة والفرحـة لا تسـعه، وفي عـام ١٩٠٣م تـرك مـصر خلفـه واتجـه صـوب السـودان.

(٣٢)

كانـت الذكريـات والأشـواق تتآمـران عـلى قلـب الزبـير باشـا تآمراً قاسـياً، وهـو في طريـق عودتـه للسـودان، وعندمـا وصـل إلى أول نقطـة عنـد حـدود السـودان الشـمالية أمـر مركبـه بالتوقـف وهبط إلى الأرض التـي أحبهـا وأسـند إليهـا جبهتـه مُصليـاً لله شـاكراً لـه، وقبضـت كفـه حفنـة مـن تـراب سـودانه، وسـمح لشـميمها أن يعـبر أنفـه ودمعـة حـرى لتسـقط عليهـا، واسـتمر موكبـه في السـير عابـراً الفيـافي ملتقيـاً بالقبائـل مبتهجـاً بحفـاوة الاسـتقبال، وخـبر العـودة يطـير إلى موطنـه الجيـلي ويرجهـا رجـاً، فأخـرج أهلهـا النحـاس والطبـول وأخـذوا ينتظـرون خارجهـا بترقّـب احتشـد بالقلـق والأشـواق، وعندمـا توغَّـل ركـب الزبـير العائـد متجهـاً إلى وسـط السـودان، تلقـاه شـابٌ متحمـس يحمـل سـحنات قبيلـة الشـكرية، وقـال للزبـير باشـا بـشيءٍ غـير قليـل مـن الفرحـة:

ـ يـا الباشـا نحمـد الله عـلى سـلامتك، ونحمـده أن زاح عنـا كـرب سـنوات التعايـشي الماضيـة، ضقنـا فيهـا الويـل لكـن ربـك كريـم ولطيـف. كان الزبـير يعلـم أنـه عندمـا دانـت السـلطة للإمـام محمـد أحمـد المهـدي بعـد قيـام الثـورة المهديـة، تخلّـص زعـماء قبيلـة الشـكرية في لباقـةٍ وهـدوءٍ مـن ولائهـم للعهـد التركـي، وبذلـك تفـادوا أيـةَ خسـائر في أيـام المهـدي، غـير أن خليفتـه عبـد الله التعايـشي نـكَّل بالشـكرية تنكيـلاً شـديداً، قتـلاً واعتقـالاً، عـلى خلفيـة حـدث قديـم تقـول وقائعـه إن قبيلـة الشـكرية وقفـت إلى جانـب الأشراف، إبـان الخـلاف الـذي كان قائـماً بـين الأشراف وأتبـاع الخليفـة عبـد الله قبـل وفـاة المهـدي.

نظـر الزبـير باشـا إلى ذلـك الشـاب وقال لـه: لا تنظـروا إلى الـوراء، ذلـك عهـدٌ مـضى بخـيره وشره، افعلـوا الآن مـا يـرضي الله ومـا

يُصلح الوطن.

ـ والله يا الباشا من شدة ما لقينا اتمنينا رجوع الإنجليز، إت ما سمع قول الحاردلو:

ناساً قُباح من دار غرب يوم جونا..

أولاد ناس عزاز متل الكلاب سوونا..

يابا الدفس يا الإنجليز إلفونا..

ابتسم الزبير ابتسامة غامضة، وقال لذلك الشاب الشكري: يا ولدي الما بتعرفو بتجهلو، ناس الغرب ديل ما ناساً قباح، ديل ناس مسلمين وفرسان وأمراء، بس ربنا سلط عليكم بذنوبكم من لا يخافه فيكم ولا يرحمكم..!

– أهلنا الشكرية يا الباشا ما سلموا منو، هو كان بقول أنحنا في حياة المهدي وقفنا مع أولاد البحر ضد أهلو، عشان كدا لمن جيش كتشنر قرب من أم درمان قلوبنا كانت بتسوي بق بق، وود تورشين بقول نبي الله الخضر قال لو أرواح جيش كتشنر تحت فروتو..! بس لامن الضرب بدا في كرري زولك هرب وخلى ناسو والحاردلو قال:

تكضب في الخضر من الكضب ما بتروى

ما قلت الترك أرواحا تحت الفروة

درب السبعتين سويتو ليلة وسروه..!

شعر الزبير باشا بالأسى على الدولة المهدية، فقد فتت العنصرية تماسكها الداخلي وأحبط التهميش رجالها، ونخر اليأس أرواحهم وزعزع إيمانهم بدولتهم الرسالية التي بدأوا فيها زاهدين، نُساكاً قيمين لا تلهيهم الحياة ولا يخيفهم الموت.

لم يكن الزبير باشا يؤمن بالفكرة التي قامت عليها المهدية وهي ظهور المهدي المنتظر الذي يقود الناس للصلاح ويملأ الدنيا عدلاً، بعد أن مُلئت جوراً، وقد ساءه أن تبطل المهدية العمل بالمذاهب الأربعة وتحرق كتبها وتحارب مشائخ الطرق الصوفية، فقال لذلك الشاب: كنت أعتقد تماماً أن المهدي يكذب فيما ادعاه من أنه مبعوث الله إلى الأرض ليتخلص من فسادها، ليعيد للإسلام مجده وقوته، حقاً كان الله يرسل الرسل الذين يتحدث عن طريقهم إلى عباده، موضحاً لهم سبل الرشاد، راسماً لهم طريق السعادة في الدارين، غير أنني مع هذا كنت أؤمن إيماناً لا يتطرق إليه الشك بأن عهد الأنبياء قد مضى وزال، وأن أولئك الذين يدعون النبوءة على الرغم من أن هذه الحقيقة التي يعلمها كل مسلم لم يكفوا عن الظهور في مختلف العصور منذ أن بُعث محمد عليه الصلاة والسلام، فكانوا يأتون ويمضون كالفقاقيع التي تذهب مع الريح هباءً، بينما تبقى كلمة الله كما جاء بها محمد خاتم الأنبياء هي الكلمة العليا، وكلمتهم هي السفلى دائماً. لقد سقط محمد أحمد في براثن أحابيل التعايشي الذي أراد في يوم ما أن يغريني بأن أكون المهدي ليسير في ركابي، ويتسقط عيشه من حياة كهذه، فأوشكت أن أضع السيف على رقبته، ولكن العلماء أوقفوا هذه الخطوة، فذهب بعد ذلك ولعب الدور الذي فشل فيه معي مع محمد أحمد، فأغراه به وجعله يتمادى في ادعاء المهدية.

(٣٣)

ذُهل الشاب من حديث الزبير وقال له: والله يا الباشا كلامك كلام علماء وكلام تاريخ، والمعنى الكلام القالو الحاردلو في ود تورشين كلو صاح مو؟

ـ أسمع يا ابني ما أقوله لك؛ الحاردلو أراه ود تورشين هولاً عندما سجنه تسع سنوات وجعله بعد ذلك تابعاً له يحمل له إبريق الوضوء وفروة الصلاة، ويسير خلف دابته أنَّى ذهب، بعد أن جرَّده من المال والسلطة، فأسلمته هذه الشدائد إلى مشاعر تحن إلى أيامٍ مضت وعهودٍ انقضت، فتناوحتها عنادل شعره بغناءٍ حزينٍ وشجوٍ أليم، فقد تبدل يسره عسراً، واستحالت سلطته وقوته إلى حسرةٍ وضعفٍ، وعشقه إلى نثارٍ من الأطياف وهشيم من الذكريات. وعندما هرب التعايشي بعد هزيمته بدأ يهجوه. ورغم أن التعايشي نكَّل بأهلي وسجن شقيقي واستولى على أسلحتي، إلاَّ أنني لا أقبل أن تُردد مثل هذه الأشعار في حق سوداني لصالح المستعمر، ودعني الآن أذهب فأهلي وعشيرتي يترقبون وصولي.

في أواخر عام ١٩٠٣م وصل الزبير باشا إلى الخرطوم، فوجد بها استقبالاً رائعاً وعيناه تعانقان ربوع الوطن ومسارح طفولته ونشأته ونجاحاته المظفرة، كتاجر وقائد عسكري وسياسي فاتح وحاكم لا متسلط ولا متجبر، وهناك على مشارف الجيلي كانت الخيول والجمال والنحاس والطبول والدفوف والزغاريد والأناشيد في انتظاره، وبعد الاستقبال الحاشد زار أهله وعشيرته، ووقف على أحوالهم واستعاد

الكثير من ذكريات الأعوام الماضية.

عامان قضاهما الزبير باشا بين أهله وعشيرته في السودان، يبني المنازل والقصور في الجيلي والسقاي وأم درمان والسرورراب، ويؤسس المزارع ويستقبل زواره وهوًى في نفسه يدفعه للعودة إلى مصر التي ترك فيها أسراً وذكرياتٍ ومشاريعَ قائمةً وأخرى بحاجةٍ إليه لتكتمل، فودع الجميع وعاد إلى مصر عودة اختيارية، وابتنى له قصراً خاصاً بمدينة حلوان بعد أن علم أن آخر القصور التي كان يقيم فيها قبل عودته للسودان وهو قصر أحمد حشمت قد شبَّ فيه حريق، وكان وقعُ ذلك أليماً على نفس الزبير باشا، الذي أفقده هذا الحريق ما كان يحتفظ به في ذلك القصر من تحفٍ ووثائق ونفائس. في قصره الجديد بحلوان أنشأ الزبير خلوة لتعليم الصغار القراءة والكتابة والدراسات الدينية وتحفيظ القرآن الكريم، وساحة يعلمهم فيها الرماية وركوب الخيل. سبعة أعوام قضاها الزبير في قصره بحلوان، أكمل خلالها شراء استراحة بالمدينة المنورة وأوقفها كنُزلٍ مجاني لراحة الحجيج السوداني، واستأجر بيتاً كبيراً بالقاهرة لإيواء وراحة حجاج المغرب العربي في رحلتي الذهاب والإياب، وخصص حصصاً من معاشه الشهري لصالح كسوة الكعبة الشريفة، وإرسالها إلى الهيئة السعودية المسؤولة عن كسوة الكعبة، وطبع سيرة ابن هشام على نفقته الخاصة بمطبعة بولاق بالقاهرة ووزعها على قطاعات واسعة من المسلمين، كان يكسو الطلبة السودانيين بالأزهرالشريف، ويدفع لهم الإعانات المالية، وأنشأ مضماراً لسباق الخيل بمدينة حلوان المصرية، وكتب مذكراته كاملة ضمّنها سيرته وكافة وقائع مجاهداته المدنية والعسكرية، لتبدأ بعد ذلك رحلة عودته النهائية إلى السودان.

قـرر الزبـير باشـا أن يقـضي مـا تبقـى مـن عمـره في السـودان بـين أهلـه وذويـه، بعـد أن بلـغ الحاديـة والثمانـين مـن عمـره، وأفصـح عـن أمنيـة عزيـزة وهـي أن يُـوارى جثمانـه ثـرى وطنـه السـودان، فطلـب مـن الحكومـة المصريـة إعـداد قطـار خـاص يقلـه وحاشـيته البالـغ عددهـا ثلاثمئـة شـخص إلى السـودان، فلـم تتأخـر الحكومـة المصريـة في الاسـتجابة لطلبـه، فتحـرك الزبـير مـن حلوان مسـقط رأس الخليفـة الصالـح عمـر ابـن عبـد العزيـز خامـس الخلفـاء الراشـدين، وألفـى القطـار الخـاص في محطـة السـكة حديـد بالقاهـرة في مسـاء العـاشر مـن أغسـطس ١٩١٢م، فودعتـه هنـاك حشـود هائلـة مـن الشـخصيات الرسـمية والشـعبية، شـملت كبـار رجـال الدولـة والجاليـات الأجنبيـة في مـصر، وبينـما كان القطـار ينهـب الطريـق كانـت الـرؤى والذكريـات والخواطـر تنهـب كيانـه، وعندمـا وصـل إلى الخرطـوم تنقـل بـين دُوره وقصـوره في أم درمـان والسـقاي والسرورراب، وقـضى الخمسـة أشـهر الأخـيرة مـن حياتـه في بلدتـه الجيـلي، بعـد أن قلَّـتْ حركتـه كثـيراً، واعتلـت صحتـه بسـبب الوهـن وتقـدم السـن والحُمـى التـي لازمتـه زمنـاً طويـلاً، حتـى أرسـل لـه الحاكـم العـام طبيـب القـصر، فوصلـه مـن الخرطـوم إلى الجيـلي، وأخـذ عينـةً مـن دمـه تـم إرسـالها إلى معامـل لنـدن الطبيـة بإنجلـترا، ليتسـنى لطبيـب القـصر معرفـة أسـباب الحمـى وتشـخيص المـرض ومـن ثـم وصـف الـدواء، وظهـرت أخـيراً نتيجـة الفحـص المعمـلي وأبانـت أن الزبـير باشـا مصـابٌ بالملاريـا الطـور الحلقـي، ولكـن قضـاء الله كان أسـبق، فقـد تُـوفي الباشـا قبـل وصـول نتيجـة الفحـص بيومـين.

(٣٤)

ما أن طار خبر وفاة الباشا حتى نكست دواوين الحكومة أعلامها وأعلنت الحداد والاستعداد للتشييع الرسمي للجثمان إلى مثواه الأخير بمقابر الجيلي. في السادس من يناير ١٩١٣م تاريخ الوفاة وضع الجثمان فوق عربة مدفع عسكرية لتبدأ مراسم التشييع المهيب، فحفت بالعربة المقلة للجثمان الأورطة الثالثة عشرة السودانية بموسيقاها الجنائزية الحزينة، ومن خلف النعش مضى كبار رجال الدولة في السودان والأعيان وممثلو القبائل وكبار رجال الجاليات الأجنبية في السودان، الذين تحرك بهم قطار خاص من الخرطوم إلى الجيلي للاشتراك في مراسم تشييع البطل القومي الزبير باشا رحمة منصور العباسي، وعلى أنغام الموسيقى العسكرية الحزينة وبعد الصلاة وصل النعش بالخطوة البطيئة لطابور الجنازة، وحينما أُنزل النعش إلى القبر أطلقت البنادق إحدى وعشرين طلقة لم تكن زخاتها أعلى صوتاً من أصوات الحزانى الباكية الذين سالت دموعهم تبكي هذا الأسطورة والبطل العظيم، وارتفعت الأصوات بالترتيل والدعاء والتكبير والتهليل والتراب يُهال على اللحد، فووريت الثرى حياةٌ حافلةٌ بالبذل والمجاهدة والمعاناة والظلم والصبر على المكاره. نعته الدولة الإسلامية وأبرزت صحيفة الأهرام القاهرية خبر وفاته ببيان مؤثر، ورثاه الشعراء ومنهم شاعر النيل حافظ إبراهيم الذي ابتدر مرثيته العصماء بقوله:

يا روضة النيلين جئت مسلماً** فعليك من لدن الإله سلامُ

لي في ربوعك من رجالك معشرٌ**شمٌ إذا جار الزمانُ كِرامُ

أين الزبيرُ أبو الفوارس والندى**قد غيبته عن حماكِ رجامُ

قد كان فخراً للبلاد وذكره**باقٍ بها ما كرتِ الأعوامُ

مات الزبير وكل حيٌ راحلٌ سننُ الحياة ما لهن بدائلُ، ولكن بقيت أعماله الجليلة تصون ذكراه وتقف على عظمته، فهو من فتح مناطق كانت عصية على الدولة الإسلامية؛ بحر الغزال وشكا ودارفور، وأقام دولة موحدة في جنوب السودان، وطبق أحكام الشريعة الإسلامية في مناطق نفوذه وأسس جيشاً حديثاً لم يعرفه السودان من قبل، وأمن طرق التجارة وعقد الاتفاقيات الأمنية وعمل على تمدين وتحضر القبائل وتشجيع التزاوج بينها، وأنشأ عدداً من الخلاوي في مراكز نفوذه ببحر الغزال وغيرها، وأقام المعاهد العلمية وجلب لها العلماء من داخل وخارج السودان، واهتم بالزراعة حيث استجلب المعدات الزراعية والمزارعين المهرة من مصر، ونظَّم الأسواق التجارية ونظَّم أوقات الصيد للمحافظة على الحيوانات البرية، وشجع الأهالي على نبذ الحروب الأهلية وأدخل نوعاً من التصنيع الزراعي البسيط، كتجفيف بعض المحصولات الزراعية وصناعة وبناء المراكب، واستجلب عدداً من الفنيين للعمل في مجال التعدين بحفرة النحاس لاستخراج النحاس والذهب، وأنشأ وحداتٍ طبيةً تستخدم مهارات العلاج بالأعشاب والرقية الشرعية، واستجلب الأطباء من شمال السودان ومصر لعلاج الجرحى والمرضى، وكان رحيماً بمواطنيه متدرجاً معهم في فرض الزكاة، وطالب بإلغاء الضريبة التركية الباهظة، وأنشأ المحاكم العدلية في كل جهات المناطق المحكومة من قبله والمجالس الاستشارية وتحريم

العـادات الوثنيـة والمتخلفـة، وعمـل عـلى تأسـيس وتمديـن المناطـق المفتوحـة حتـى وصـف المسـتر تشرشـل رئيـس الـوزراء البريطـاني حكـم الزبـير فقـال: لقـد كان حكمـه في الحقيقـة لبنـة واضحـة في بنـاء التقـدم الـذي أعقـب عهـده في السـودان.

(٣٥)

بعـد سـنواتٍ طويلـةٍ مـن وفاتـه، وقـف أحـد أحفـاد الزبـير باشـا عـلى قـبره دامـي القلـب باكيـاً، فسـقط عليـه ظـل رجـل بـانَ في ملامحـه المصريـة وقـارٌ وعلـمٌ وهـو يسـأله: أقـبراً تناجـي أم تسـائلُ فانيـاً..؟! فالتفـت ناحيتـه وقـال لـه: المقبـور هنـا هـو جـدي العظيـم الزبـير باشـا. فقـال المـصري: كان عظيـماً حقـاً. بدهشـةٍ واسـتغراب سـأله: هـل لي أن أعـرف مـن أنـت؟ فـرد مبتسـماً: أنـا باحـث مـصري اسـمي عـز الديـن إسـماعيل، وأعـد رسـالة علميـة تاريخيـة عـن جـدك الزبـير باشـا. فقـال الحفيـد: يـسرني سـماع هـذا، ولكـن مـا الـذي أغـراك بهـذه الدراسـة؟ أجـاب عـز الديـن قائـلاً: أولاً لأثبـت أن اسـتهداف الوجـود العـربي الاسـلامي في القـارة السـمراء مـن قبـل القـوى الاسـتعمارية لـه أوجـه متشـابهة فحكايـة الزبـير باشـا تتماثـل في كثـير مـن تفاصيلهـا بحكايـة «حمـد تيبـو تيـب» فقـد مثلـت شـخصية حمـد تيبـو تيـب حلقـة مـن سلـسلة الشـخصيات العربيـة التـي أسـهمت بشـكل واضـح فـي كتابـة التاريـخ الأفريقـي الحديـث في أفريقيـا غـير العربيـة وتحديـداً في شرق ووسـط القـارة فـكان مكمـلاً لمـا مثلـه البوسـعيديون في سـلطنة زنجبـار مـن إشـعاع حضـاري وفكـري، وكانـت حيـاة تيبـو تيـب مليئـة بالتحديـات كالتـي واجههـا الزبـير واسـتطاع خلالهـا وبجهـود حثيثـة إقامـة كيـان سـياسي عـربي في وسـط أفريقيـا والـذي كـان مجهـولاً مـن قبـل الكثيرين وتمكـن مـن وضـع الأسـس الرئيسـة التـي ارتكـز عليهـا ذلـك الكيـان العـربي الفتـي وسـط مجتمعـات افريقيـة بدائيـة، لتكـون تلـك الأسـس فيـما بعـد نقطـة الارتكـاز التـي قامـت عليهـا دولـة

الكونغو الحرة والتي أفادت كثيراً من تنظيمات حمد تيبو تيب على الصعيدين السياسي والاقتصادي. ما تعرضت له سلطنة زنجبار هو عينه ما تعرضت له دولة العرب في الكونغو إذ إن كلتاهما ضحية لتطلعات الاستعمار الراغب بشدة في فرض السيطرة والوجود الأوربي والقضاء على النفوذ العربي وكان ذلك تحت مسميات عديدة على الرغم من المساعدة التي قدمها العرب لهم سواء عن طريق مساعدة المستكشفين وتقديم الدعم لهم أو الدخول في تحالفات مع هذه القوة الأوربية أو تلك اعتقاداً منهم بأن ذلك سيكون كافياً لدرء الخطر لكن يبدو أن ذلك لم يكن كافياً من وجهة النظر الأوربية فالهدف هو القضاء على الوجود العربي نهائياً في القارة السمراء. التشابه المذهل بين قصتي الزبير وحمد وتزامنهما تقريباً هي أحد الأسباب التي جعلتني أفكر في كتابة بحث عن الزبير باشا لأن هذا التشابه يقف دليلاً على أكاذيب دعاوى المستعمر بإلصاق تهم الإتجار بالرق على الأبطال القوميين دعماً لسياستهم الرامية لإبعاد العروبة والإسلام عن نطاق القارة السمراء .وهل تصدق أن ما جرى لحمد من مؤامرات هو بالضبط ما حدث للزبير فكليهما تم استدراجه إلى الخارج وكما قتل سليمان الزبير فقد قتل سيف بن حمد الذي خلف والده في المقاومة أمام البلجيك. ولكن ليس هذا كل ما أغراني لكتابة بحث عن الزبير ولكن لأن أعداءه وأحباءه شهِدوا بعظمته، فخديوي مصر قال عن جدك الزبير إنه رجلٌ مؤمن، واللورد كرومر قال إنه رجل ذو عزم ووفاء ومضاء، وغردون باشا قال إنه رجل بحق وهو أقدر رجل بالسودان ويفوق بمدى غير محدود الرجال الآخرين الذين تولوا حكم السودان من قبل، وتشرشل قال لقد امتدت

شـهرة هـذا الرجـل إلى مـا وراء حـدود القـارة التـي كانـت مسرحـاً لفتوحاتـه، وامتـدت إلى الأمـم البعيـدة شـمالاً وجنوبـاً، وقـد كان حكمـه في الحقيقـة لبنـة واضحـة في بنـاء التقـدم الـذي أعقـب عهـده في السـودان. وعـالم النباتـات والمكتشـف الألمـاني شـوون فريـث قـال عنـه: خُلـق الزبـير ليحكـم النـاس، ولـو كان في أوروبـا لـكان لـه شـأن غـير هـذا الشـأن، ولـترك في تاريخهـا أثـراً بعيـداً. ومؤلـف كتـاب العـاج الأسـود جاكسـون أنصفـه حينـما قـال: إن أولئـك الذيـن اتهمـوا الزبـير بأنـه كان تاجـراً للرقيـق لم يسـتطيعوا أن يسـوقوا دليـلاً واحـداً لذلـك، فهـو لم يكـن بحـق مغامـراً أو قاطـع طريـق، بـل كان محاربـاً شـهماً يحفـظ للقتـال حرماتـه. هـذا بعـض الـذي أغـراني لأنجـز حولـه دراسـتي.

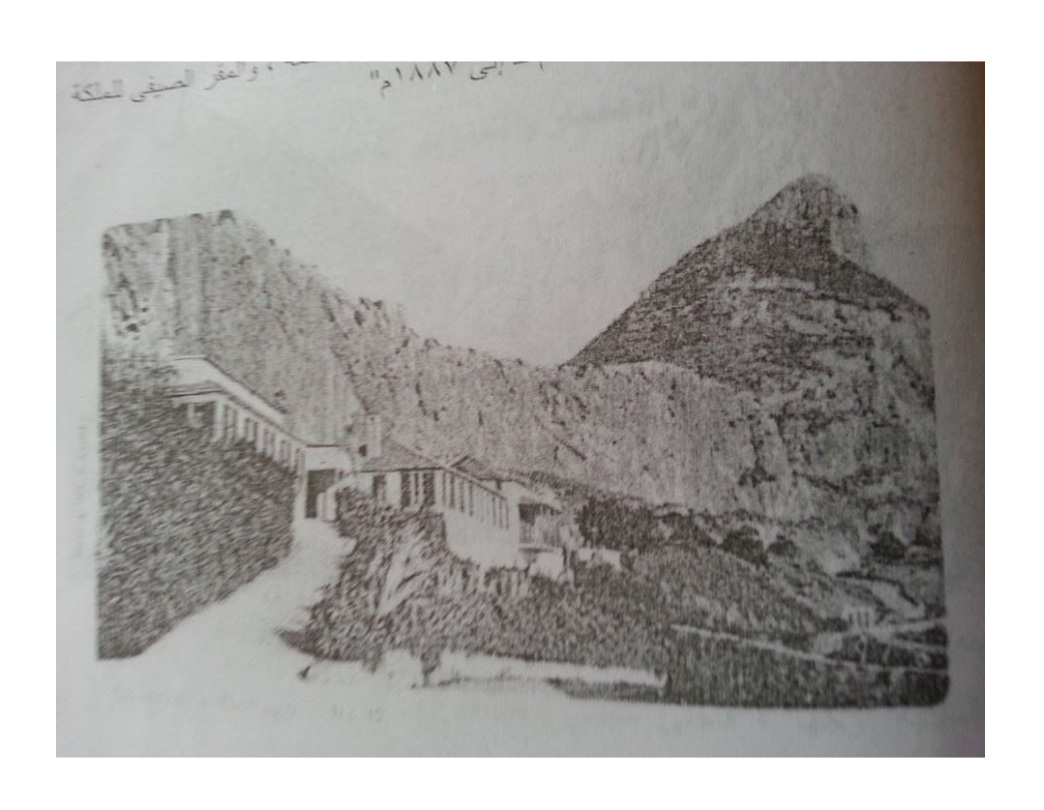
نظـر الحفيـد إلى عـز الديـن المـصري تـاركاً القـبر قائـلاً لـه: هـل يمكننـي أن أناديـك بصديقـي، وهـل تقبـل دعـوتي إلى منزلنـا بالجيـلي، إنهـا ليسـت بعيـدة مـن هنـا لـترى فيهـا سرايـا الزبـير باشـا وبعـض آثـاره، ولأطلعـك عـلى مذكراتـه التـي خطهـا بنفسـه. بانـت في وجـه عـز الديـن فرحـة وسـعادة، وقـال للحفيـد: أقبـل دعوتـك بـكل سرور يـا صديقـي. في الطريـق قـال لـه: إن جـدك الزبـير باشـا كان يمتلـك الكثـير مـن الرقيـق، ولكـن لم يتخذهـم يومـاً مـن الأيـام مـادة لتجارتـه، بـل سـلحهم وكـوَّن منهـم جيشـاً انتـصر بـه في حروباتـه التـي فُرضـت عليـه، ولـولا حسـن معاملتـه لهـم واعتـزازه بهـم، مـا تفانـوا في خدمتـه والانتصـار لـه طـوال هـذه المعـارك، وهـذا مـا يثبـت براءتـه مـن التهمـة التـي ألصقوهـا بـه كتاجـر رقيـق، وأدت لرفـض اقـتراح غـردون بتعيينـه حاكـماً على السـودان. بوصولهـما بـدأ عـز الديـن يقـرأ بشـغف مذكـرات الزبـير باشـا، وأسـقط دمعـة وهـو يقـرأ مـا كتبـه الزبـير قائـلاً: إنني أحسُّ اليـوم وقـد نيفـت عـلى الثمانـين بأننـي أسـير نحـو القـبر، نحـو

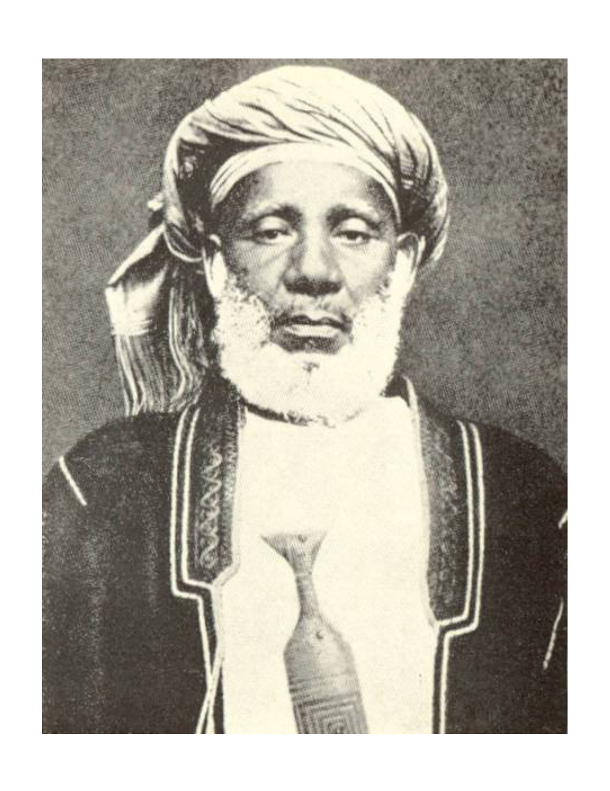
النهايـة المحتومـة. ويومـاً مـا بعـد أن يغيبنـي الثـرى سـوف يحلـو للبعـض أن يتحـدث عنـي، وأن يتنـاول سـيرتي بالتحليـل والتفنيـد، ولـن أعـدم المـادح أو القـادح، ولـن أسـتطيع يومئـذٍ أن أرد عـلى كليهـما بعـد أن أكـون قـد انتهيـت إلى حفنـة مـن العظـام البيضـاء. غـير أني أحـب أن أقـول للاثنـين - المـادح والقـادح - إننـي قـد قدمـتُ لهـما حيـاتي في صفحـات مذكـراتي الشـخصية، وقـد يكـون فيهـا مـن الأخطـاء مـا يقـع لـكل البـشر ولسـتُ إلاَّ واحـداً منهـم، ولكـن كيفـما كانـت فقـد عشـتها لأرضي خلالهـا حـق الله عـليَّ وحـق الوطـن.

(النهاية)

ملحق



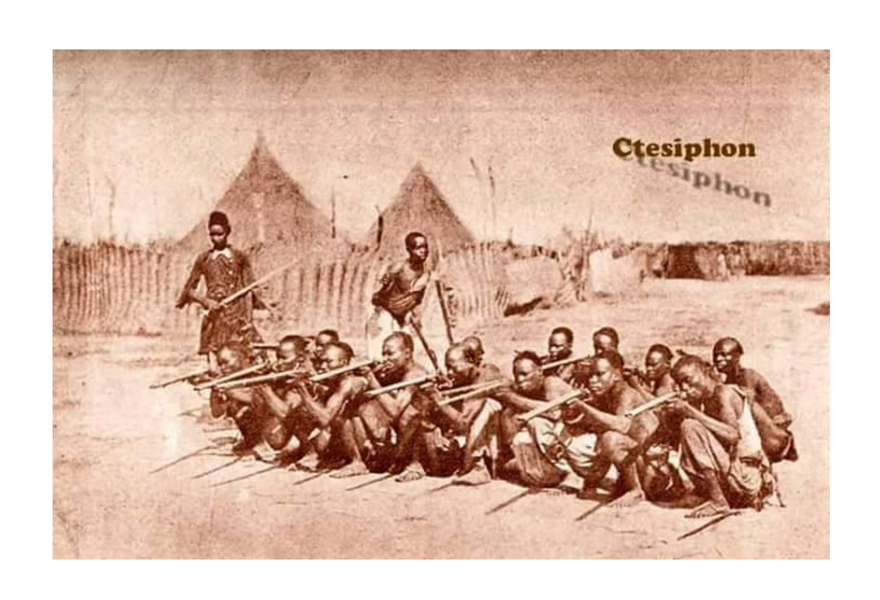





176

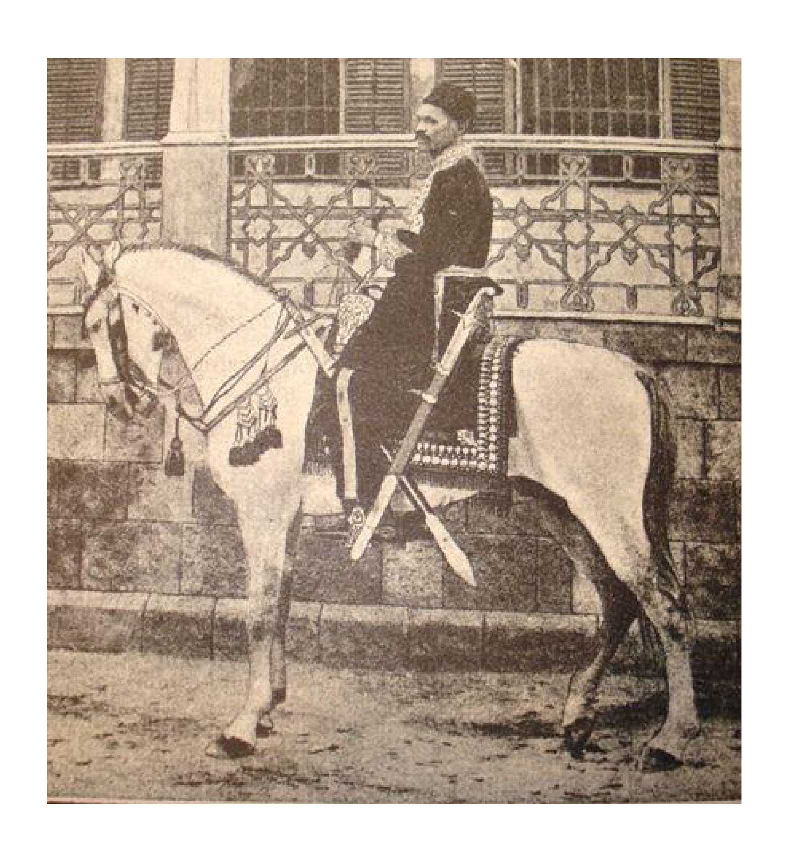





Ctesiphon



الزبير باشا فى المنفى - جبل طارق






Karim Saad ElDin Elzubair







النور عنقرة

